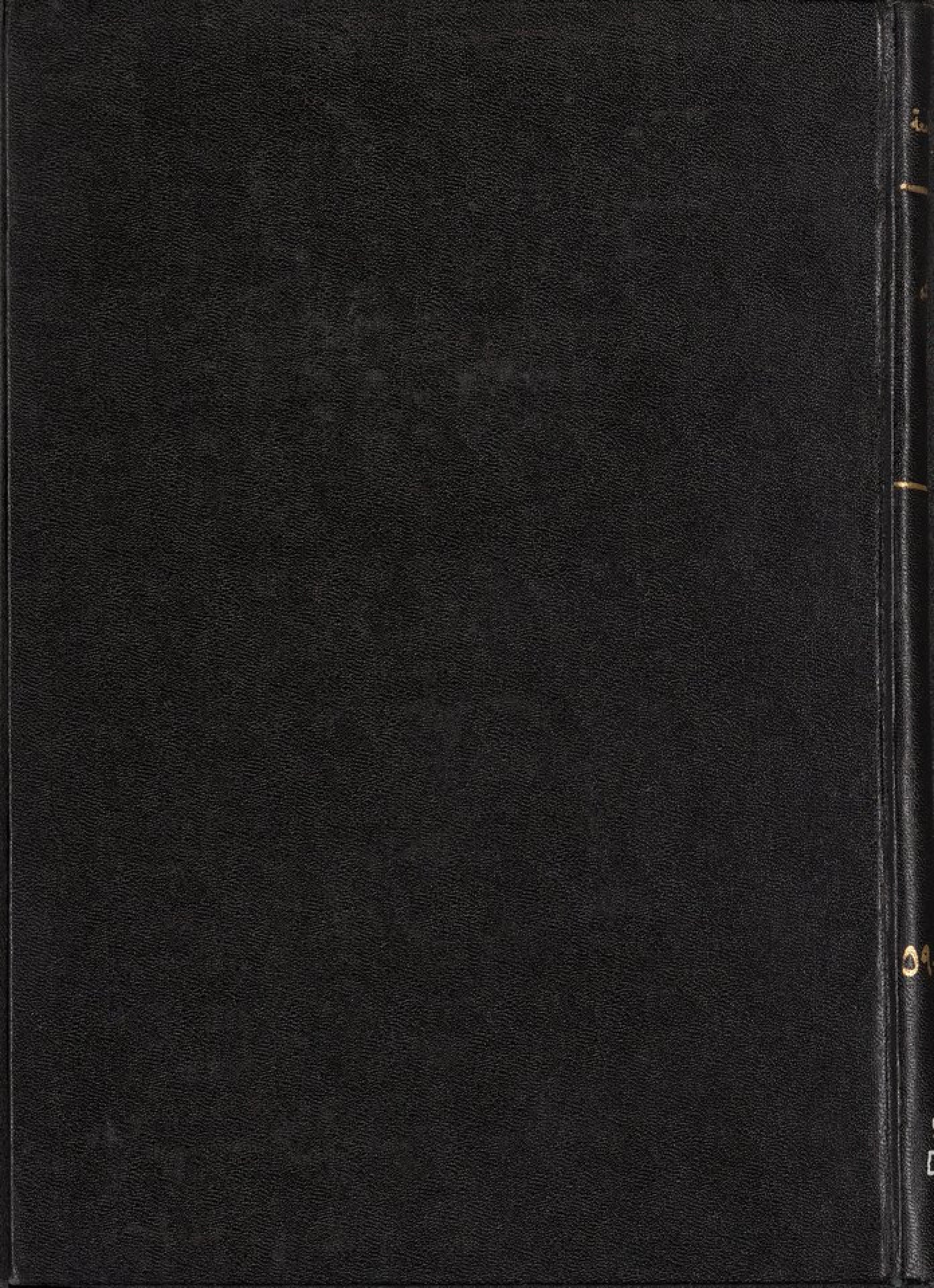
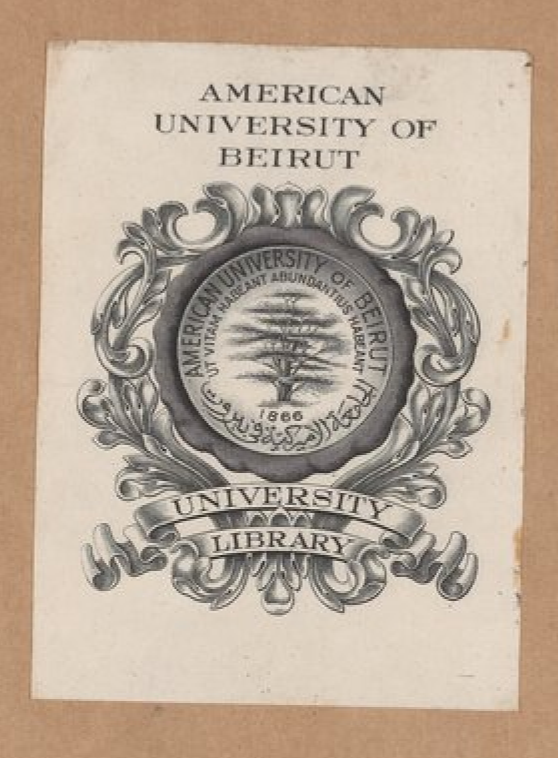
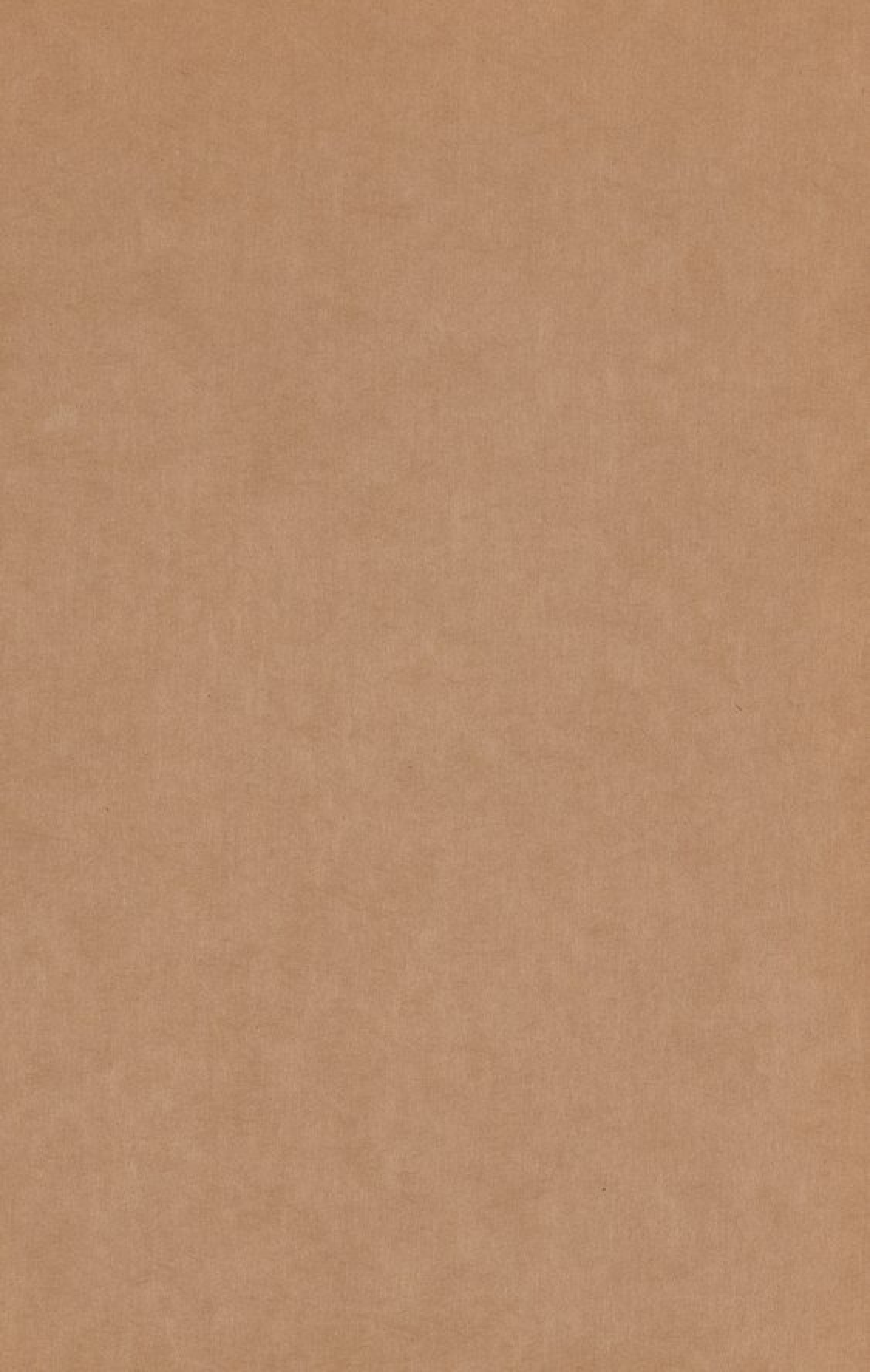



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY





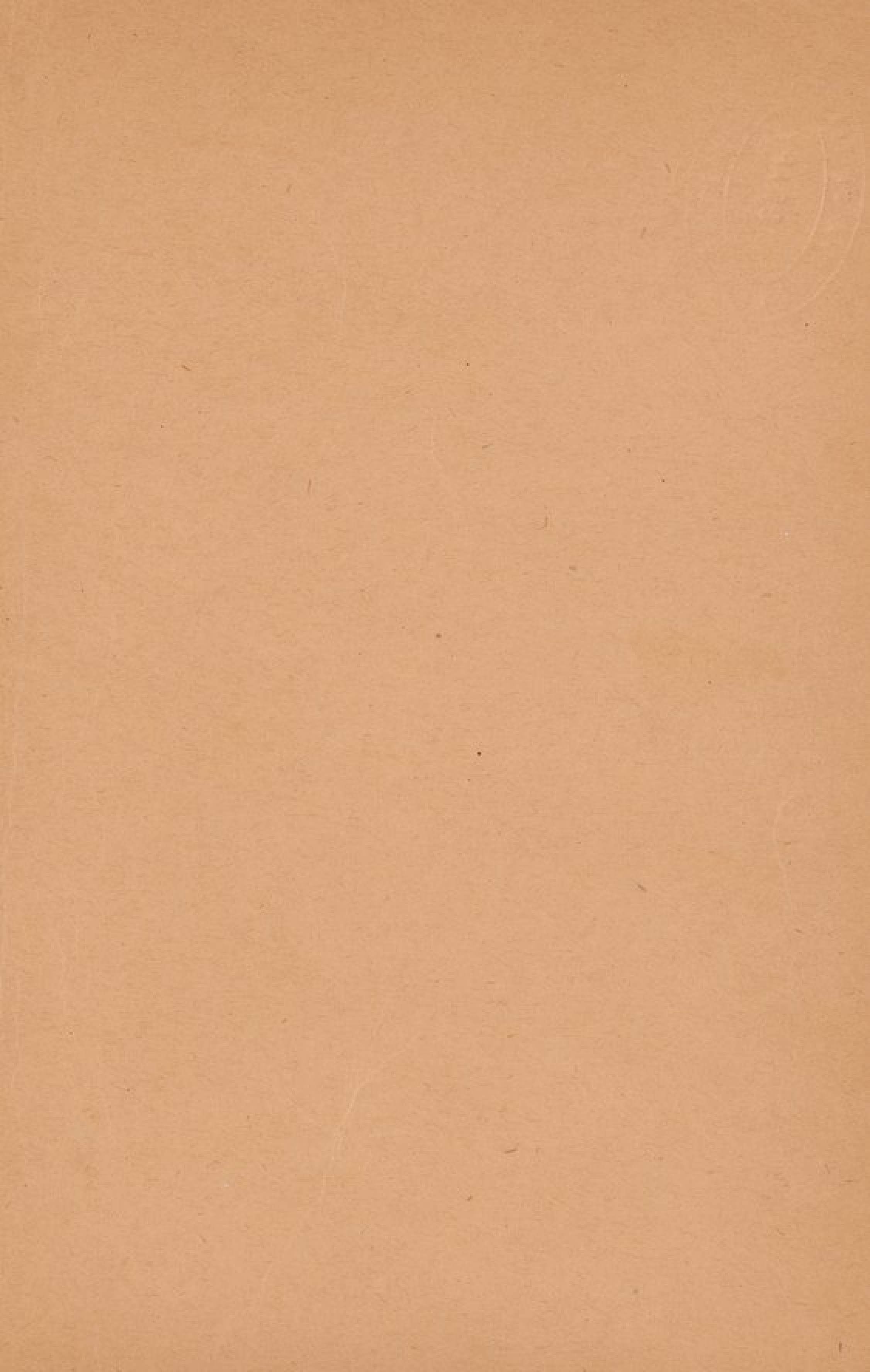
جامعة دمشق

المحاضرات العامة

خلال

العام الجامعي ١٩٥٨ – ١٩٥٩

مطبعة جامعة دمشق

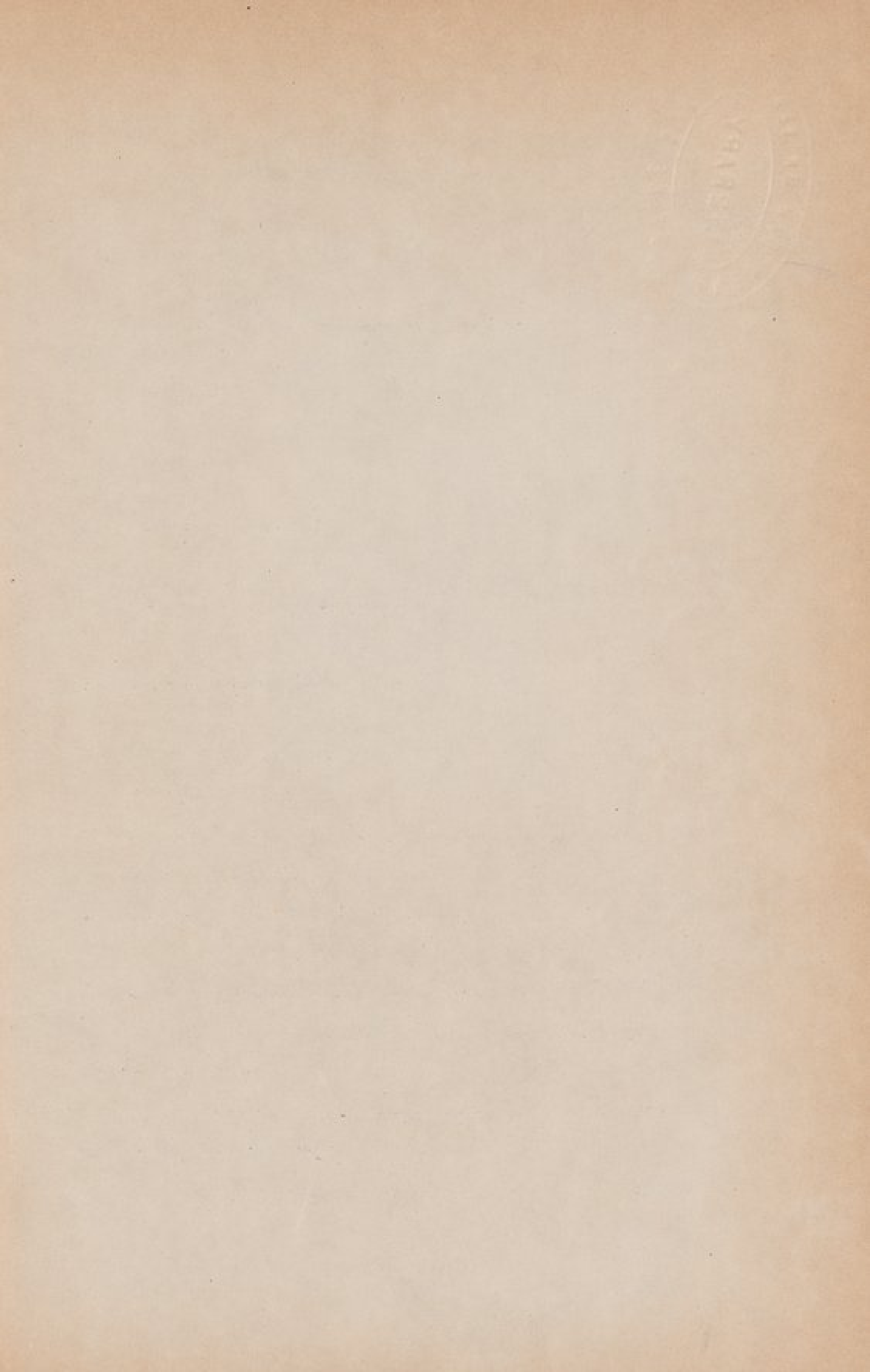


جامعة دمشق

المحاضرات العامة

في العام الجامعي ١٩٥٨ — ١٩٥٩

صفحة



كلمة مدير جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور حكمة هاشم[1]

هذه إضمامة من المحاضرات العامة التي ألقيت على مدرج جامعة دمشق خلال العام الجامعي ١٩٥٨ — ١٩٥٩ . ويسعدني أن أقدمها للجمهور في أرجاء عالمنا العربي الأكبر .

لقد درجت جامعة هذا الإقليم على سُنّة قديمة العهد تشعر أنها أشد حرصاً على موالاة العمل بها في ظل عهد الوحدة السعيد. وتقوم تلك السُنّة على الصدع برسالتها الثقافية على الملأ في محاضرات تتسم بالتبسيط وبالتعميم ، حتى لا تظل مشكاة المعرفة والفكر قابعة في حصن الجامعة وحسب ، بل تقذف بأنوارها « خارج الأسوار » كما يقولون .

وإن من تقاليد الجامعة أن تدع منبرها حراً يوسل محاضروها من أعلاه بآرائهم دون أن يكون لهذه الآراء غير طابع الاستقلال الفردي الخالص . على هذا النحو لا يمكن أن تعتبر الافكار المبثوثة في تضاعيف هذه المحاضرات ممثلة تمثيلاً مذهبياً لوجهة نظر الجامعة وإنما هي حافزة على التأمل ، مدعاة لجعل آفاق النظر رحيبة أمام كتائب الناظرين والباحثين .

١

الأمم المتحدة ، نشوؤها وتطورها

للدكتور فؤاد شباط

وكيل كلية الحقوق

في هذا اليوم السعيد تكمل المنظمة العالمية عامها الثالث عشر وتستقبل عمر البدر مضيئه بأنوارها الكرة الارضية لايحجبها الا خسوف جزئي يشاهد في سماء عدد قليل من الدول المستقلة .

كيف نشأت المنظمة التي نحتفل بعيدها اليوم ؟ وكيف تطورت خلال السنين التي مرّت عليها ؟ وهل يمكن القول انها نجحت حتى الآن في تحقيق الاهداف السامية التي بني عليها ميثاقها ؟ وماذا يكون في المستقبل ؟ هذا ماسنحاول معالجته في هذه الدراسة الحقوقية لافتين انظاركم العالية الى ان النقد الفني لايعني السلبية وأن التقريظ العلمي لايفيد الحزبية ، فنحن ندين بالحياد وهذا واجب مقدس تحتمه الدراسات القانونية بنوع خاص .

ايها السادة : نعود واياكم بالذاكرة الى عام ١٩٤١ لالنحيي تلك الايام المظلمة ولا لنحيّيها لان الانسان كان يقتل فيها اخاه الانسان دون رحمة ولا هوادة ، بل لنلمس جذور منظمة الامم المتحدة ونتبين الاصل الذي انبثقت عنه . فقد سبق تأليف المنظمة تصريحات ومؤتمرات عديدة مهدت كلها لمؤتمر سان فرنسيسكو وصياغة الميثاق .

فهذا تصريح لندن الصادر عن دول الكومنولث وممثلي الحكومات الذين ابعدوا من بلادهم ولجأوا الى العاصمة البريطانية ، وقد جاء في ١٢ حزيران ١٩٤١ عن قصر سان جيمس ينادي بان الاساس المتين لسلم دائم بين الشعوب الحرة انما يقوم على تعاون حقيقي بينها وعندئذ يزول شبح الاعتداء ويتمكن الجميع من تحقيق سلم اقتصادي واجتماعي .

« وان الموقعين على هذا التصريح يرغبون في تحقيق هذه الاهداف عاملين معاً وبالتعاون مع بقية الشعوب الحرة سواء خلال الحرب القائمة او بعد عقد الصلح » .

وبعد ثلاثة اشهر يجتمع الرئيس الاميركي روزفلت ورئيس وزراء بريطانية تشرشل في مكان ما في عرض الاطلنتي وينشران على العالم تصريحاً شهيراً يعلنان فيه بالحرف الواحد « انهما لا يسعيان الى أي توسع اقليمي وانهما يعتبران ان اي تعديل اقليمي لا توافق عليه الشعوب ذات العلاقة بصورة حرة غير جائز أصلاً ، وانهما يحترمان حق الشعوب في اختيار نظام الحكم الذي يروق لها ، ويبذلان الجهود في احترام حق الشعوب بالحصول على المواد الاولية وتأمين المبادلات التجارية واقامة تعاون كامل للتقدم الاقتصادي ، وانهما يسعيان بعد القضاء على النازية الى اقرار سلم عالمي ... » .

هذه المبادىء وغيرها مما نص عليها تصريح الاطلنتي جاءت حين اعلانها بلسماً لجراح الشعوب التي كانت محتلة من قبل الجيوش النازية والفاشية تذوق الامرين منها فبدت كبارقة أمل في انشاء منظمة عالمية تعمل في المستقبل على تجنب كوارث الحروب .

وما أن وقعها الرئيسان الاميركي والبريطاني حتى اقترنت خلال الشهر التالي بتوقيع ممثلي الاتحاد السوفياتي والحكومات التي قبلت بميثاق سان جيمس .

— وفي اليوم الاول من عام ١٩٤٢ اجتمع في واشنطن رئيس الولايات المتحدة (روزفلت) ورئيس وزراء بريطانية (تشرشل) ومكسيم ليتفينوف عن الاتحاد السوفياتي وسونغ عن الصين ووقعوا وثيقة تاريخية اطلقوا عليها اسم « تصريح الامم المتحدة » ، وهي المرة الاولى التي يستعمل فيها هذا التعبير ، وقد انضم اليها في اليوم التالي ممثلون عن اثنتين وعشرين دولة ثم وقعها بعد ذلك ممثلون عن احدى وعشرين دولة اخرى بينها الدول العربية الآتية : مصر ، المملكة العربية السعودية ، لبنان ، العراق ، سورية ، وكل هذه الدول تعهدت بأن تعمل على سحق العدو المشترك وعدم اللجوء الى عقد صلح منفرد معه ، ووافقت على مضمون تصريح الاطلنتي السابق الذكر .

وبعد ثلاث سنوات لم يدع لمؤتمر سان فرنسيسكو الا ممثلون عن الدول التي سبق لها ان وقعت « تصريح الامم المتحدة » قبل شهر آذار ١٩٤٥ وأشهرت الحرب على المانيا واليابان .

ثم يجتمع وزراء خارجية الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا العظمى وسفير الصين في موسكو ويصدر عنهم بيان بمتابعة الحرب حتى النصر النهائي ويقررون انه عندئذ لابد من انشاء « منظمة عالمية لخدمة السلم والأمن الدوليين تقبل فيها الدول المسالمة من كبيرة وصغيرة على قدم المساواة في السيادة » وهكذا يكون مؤتمر موسكو قد سبق غيره في تعريف المنظمة المزمع انشاؤها .

وأخيراً وبعد فترة قصيرة اجتمع في طهران الرؤساء الثلاثة الكبار روزفلت وستالين وتشرشل وكان اجتماعهم ببعضهم للمرة الاولى وأصدروا تصريحاً جاء فيه : « اننا على يقين بأن اتفاقنا يؤمن لنا سلماً دائماً ، واننا نشعر تماماً بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقنا وعلى عاتق الامم المتحدة من أجل تشييد صرح السلم الذي

يتوجب على غالبية الشعوب ان تدعمه والذي يبعد لاجيال عديدة قادمة شبح الحرب والمخاوف التي ينشرها في العالم » .

تلك هي أهم التصريحات التي مهدت للمنظمة العتيدة واعلنت مباديءها بصورة عامة ، وبعدها حل أوان صياغة الميثاق فجرت الاجتماعات الاولى في فندق دمبرتون اوكس في واشنطن حيث تمت مناقشات مزدوجة بين بريطانية العظمى والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية من جهة (من ٢١ آب حتى ٢٨ ايلول ١٩٤٤) وبين الولايات المتحدة الاميركية وبريطانية العظمى والصين من جهة ثانية (من ٢٩ ايلول حتى ٧ تشرين الاول ١٩٤٤) .

وقد وضعت مقترحات دمبرتون اوكس أهم الاسس التي سيرتكز عليها الميثاق الا انها لم تبت في قضية هامة للغاية وهي اصول التصويت في مجلس الامن فتلافى مؤتمر يالطة هذا النقص ، وبعد أن اتفق اركانه على قبول مبدأ الفيتو قرروا توجيه الدعوة لمؤتمر سان فرنسيسكو وكلفوا الولايات المتحدة الاميركية القيام بذلك اصالة عن نفسها ونيابة عنهم .

ولننتقل الآن الى مدينة سان فرنسيسكو الواقعة على المحيط الهادي لنشاهد ممثلين عن خمسين دولة يجتمعون في أضخم مؤتمر عرفه التاريخ من بينهم ممثلو الدول العربية التي سبق لها أن وافقت على تصريح الامم المتحدة وأعلنت الحرب الحرب على المانية واليابان ، وقد بلغ عدد المؤتمرين ثمانمائة وخمسين يضاف اليهم مستشاروهم وموظفوهم الاداريون وموظفو أمانة سر المؤتمر مما جعل عدد الحاضرين يبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة شخصاً علاوة عن الفين وخمسمائة آخرين بين مراسلي صحف وممثلي اذاعات ومراقبي منظمات وجمعيات .

عقدت اللجان الفنية المنبثقة عن المؤتمر مايقارب الاربعمائة جلسة ، وعقد المؤتمر جلسته العامة بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤٥ أقر فيها بنداء الاسماء والوقوف

الميثاق المنتظر وقد قبل بالاجماع . وفي اليوم التالي (٢٦حزيران)دعي المؤتمرون لتوقيع هذه الوثيقة التاريخية وكانت الصين اول الموقعين لانها كانت الضحية الاولى لاعتداء المحور الدفين .

وقد دامت مراسم التصديق الداخلية التي اشترطها الميثاق حتى ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٥ وعندئذ أصبحت «منظمة الامم المتحدة» قائمة فعلا بدءاً من هذا التاريخ الذي اعتبر عيداً سنوياً لها : ولما كان الميثاق لم ينص على مقر للمنظمة فقد انعقدت الدورة الاولى في مكانين مختلفين فاجتمع مجلس الامن وأمانة السر في ليك سكس والجمعية العمومية في فلاشينغ ميدوز ، وتقرر بتاريخ ١٤ كانون الاول ١٩٤٦ ان يكون مقر المنظمة في نيويورك على الضفة الشرقية من نهر الهدسن بين الشارعين ٤٢ و ٤٨ ، وقد تبرع روكفلر للبناء بمبلغ ثمانية ملايين ونصف مليون دولاراً ، ومن يزر نيويورك يشاهد في الموقع المذكور أربعة أبنية ضخمة تحيط بها الحدائق الغناء وكلها أملاك دولية واقعة في أرض أميركية ترفرف عليها اعلام الدول الاعضاء .

تلك هي خلاصة الأدوار التي مرت على نشوء الامم المتحدة وصياغة ميثاقها الذي يتألف من مقدمة ومائة واحدى عشرة مادة تهدف كما جاء في الكلمات الاولى من المقدمة الى حماية الاجيال المقبلة من كارثة الحرب التي اجتاحت الانسانية بآلام لاتوصف مرتين في مدى حياة جيل واحد .

وعلى هذا ، ومن تصفح مراحل التأسيس يبدو أن منظمة الامم المتحدة إنما هي في الاصل رابطة لعدد من الدول جمعتها مصلحة واحدة وهي محاربة المحور الهتلري وضرورة التخلص منه الى الابد ، فكانت والحالة هذه ردّة فعل للحرب العالمية الثانية التي قاسى أهوالها شعوب تلك الدول فانتفضوا عليها جامعين قواهم المادية والروحية وموحدين جهودهم في سبيل حماية الاجيال المقبلة من حرب عالمية ثالثة .

ومن ينظر الى المنظمة في وضعها الحالي يراها قد خرجت عن اصلها هذا. والدليل على ذلك أنها لم تعد تضم اعداء المحور أي الحلفاء فحسب، ولفظة «حلفاء» تشير هنا الى كل من رفع السلاح في وجه العدو النازي في الحرب العالمية الثانية من دول المعسكرين الشرقي والغربي على السواء، بل أصبحت أسرة عالمية للدول من كبيرة وصغيرة، قديمة وحديثة، قريبة وبعيدة، مهما كان نوع الديمقراطية أو اللاديمقراطية السائدة فيها، وهذه الاسرة هي اليوم مؤلفة من إحدى وثمانين دولة مستقلة هي جمهوريات أميركا بكاملها، ودول أوربا باستثناء سويسرة التي تعتقد أن حيادها الدائم يتنافى مع انتسابها للمنظمات العالمية، خلافاً لما ذهبت اليه المنظمة نفسها بالنسبة للنمسه الموجودة في وضع مماثل منذ عام ١٩٥٥ والتي انتسبت للامم المتحدة بعد الاعتراف لها بهذا الوضع، وباستثناء المانية المهشمة وهي لم تبد رغبة جديدة في الانتساب أيضاً. أما الدول الآسيوية فكلها اعضاء في الاسرة العالمية باستثناء دولتين مجزأتين (كوريا وفيتنام) ودولة عظيمة بمساحتها وعدد سكانها، كان ومايزال البعض يرفض الاعتراف بها ويحول دون ضمها للاسرة العالمية، وهذه الدولة هي الصين الشعبية وخلافاً لما سبق ذكره من الدول فهي ترغب في الانضمام المنظمة ومنذ عام ١٩٤٦ حتى يومنا هذا تقوم بعض الدول متسلحة بحيادها او بصداقتها فترشحها للعضوية وتزكيها وتكون النتيجة عدم درج قضية انتسابها في جدول أعمال الدورة تماماً كما حدث في الدورة القائمة حالياً اذ رفض النظر في اقتراح انتسابها ب ٤٤ صوتاً ضد ٢٨ و ٩ مستنكفين.

ان عدم قبول الصين الشعبية لهو دليل قاطع على ان المنظمة جنحت للاعتبارات السياسية التي تدين بها الاكثرية من اعضائها في البت بطلبات انتسابها. وقد سبق لها ان أحلت السياسة محل القانون عندما قبلت اسرائيل للعضوية عام ١٩٤٨ فقبولها إياها يعتبر خرقاً فاضحاً لنص الميثاق الذي يشترط في العضو أن يؤلف «دولة» والدولة كما نعلم لها حدود ثابتة، واسرائيل ليس لها حدود ثابتة،

فاتفاقات الهدنة تنص صراحة على ان الخطوط التي حددتها ليس لها أية قيمة سياسية . وكذلك فان الميثاق يشترط في الدولة العضو ان تكون محبة للسلام، وان تقبل الالتزامات التي يتضمنها الميثاق ، وان ترى المنظمة أنها قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات ، وان ترى المنظمة أنها راغبة في هذا التنفيذ، ولا يتردد أي شخص بعيد عن الهوى في اعتبار اسرائيل مجردة عن هذه العناصر القانونية كلها فالصهاينة جبلوا على الغدر والعدوان ، وها ان المنظمة قد ادانتهم عشرات المرات دون ان تقدم على بتر هذا العضو الفاسد ، الا يشير كل ذلك الى ان المصالح السياسية لها المقام الاول لدى المنظمة وأنها تطغي احياناً على احكام القانون الدولي .؟

والاعتبارات السياسية هي التي أملت أيضاً استخدام حق الفيتو لدى ترشيح كثير من الاعضاء فتأخر انتسابهم للمنظمة بسبب ذلك ، وعلى هذا لم تقبل في عضوية المنظمة خلال عشر سنوات أي بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٥ سوى تسع دول فقط ، ثم جرت مصالحة بين المعسكرين الشرقي والغربي لقبول ست عشرة دولة دفعة واحدة في عام ١٩٥٥ ، واصبح قبول الاعضاء يجري منذ ذلك الحين دون صعوبة وبصورة آلية ، ففي عام ١٩٥٦ قبلت في العضوية اليابان وثلاث دول عربية عقب نيل استقلالها (السودان ومراكش وتونس) كما قبلت في عام ١٩٥٧ دولتا الملايو وغانا في اليوم التالي لاعلان استقلال كل منهما ، ومازالت قضية قبول الصين الشعبية شغل العالم الشاغل .

والآن وقد اصبحت المنظمة ذات صفة عالمية هل فقدت انسجامها الذي كان السبب الرئيسي في تكوينها ؟ لا أعتقد ذلك فمحل العدو النازي الذي جمع الشمل في الاصل حل اليوم عدو مشترك آخر وهو النجاح العظيم الذي احرزه فن التسلح والاكتشافات الذرية والهيدروجينية التي تأتي كل يوم بجديد ، ومثل الخوف يكتل الافراد ، والشعوب كالافراد فهي تسارع اليوم للنجدة ببعضها

وضم جهودها للعمل على الحد من شر الاسلحة النووية وجعلها اداة بنيان وسعادة لامعول تخريب وتعاسة .

ولكن يبدو أن هـذا العدو المشترك الجديد ، وأن بقية الاعداء منه في الخطورة ، يوحد الاهداف من جديد ويفرق في الاسلوب ولهذا فهو من جهة عامل قوي على بقاء المنظمة واستمرارها ، بينما هو من جهة ثانية عامل على دعم التكتل داخل المنظمة ، وهنا يتجلى لنا الدور الهام الذي تلعبه والذي يرجى أن تستمر فيه كل من الكتلة الآسيوية الافريقية ، وكتلة أميركا اللاتينيـة في ايجاد توازن بين المعسكرين الجبـارين الشرقي والغربي ، فهاتان الكتلتان تشبهان بالدور الذي تلعبانه في المنظمة الاحزاب التي تشكل الوسط في البرلمانات والتي تعمل على التوازن بين اليساريين واليمينيين ، ولو تفاهمت هاتان الكتلتان تفاهماً كلياً في المنظمة لتمكنتا من املاء ارادتها المشتركة في الجمعية العمومية لانها تشكلان الاكثرية فيها .

ونتيجة أخرى للصفة العالمية التي اتخذتها المنظمة هي أنها أصبحت تجنح أكثر فأكثر الى تطبيق الاساليب الدبلوماسية بدلاً من التقيد بحرفية نصوص الميثاق فمنذ تجربة كوريا التي تم فيهـا تأليف قوات مشتركة عملت تحت رايـة الامم المتحـدة وحيث أن النتيجة دلت على فشلها فان المنظمة لم تعد تفكر بتطبيق أحكام الميثاق في الدفاع الحربي المشترك ، ولجنة رؤساء الاركان نفسها وان كانت موجودة حتى الآن إلا انها لاتعمل ، وعلى هـذا فان الخلافات التي تهدد السلم أصبحت تحل اليوم بالاساليب الدبلوماسية فتارة تطبق المنظمة حكمة سليمان وتارة تأخذ بأنصاف الحلول ، وكثيراً ما تلجأ للتسويف والتريث بدلاً من اتخاذ موقف حاسم في القضية المعروضة عليها تاركة للزمن أن يفعل مفعوله ويحل محلها في ايجاد مخرج لها ، وهي على الغالب تكلف الفريقين المتخاصمين أن يباشرا المفاوضات فيما بينهم حلاً للمشكلة القائمة .

وبادرة جديدة نلمسها في هذه الآونة في تطبيق الاساليب الدبلوماسية واصلاح ذات البين بحلول توفيقية تقديرية وكثيراً ما تكون تحذيرية هي أن المنظمة أخذت تعهد الى أمينها العام باختصاصات لم تقرها له بنود الميثاق فهي توفده للتحقيق وتطلب اليه اقتراح الحلول الآيلة الى المصالحة والتوفيق ، وقد باشر بتعيين من يمثله لهذه الغاية مانحاً إياه لقب سفير .

وعلى هذا نرى أن اساليب المصالحة آخذة في الاهمية لدى المنظمة وأن مركز الامين العام اصطبغ بصبغة دبلوماسية أكثر منها ادارية وكأني به يتقرب من وظيفة رئيس للامم المتحدة وحكم عالمي يلجأ إليه في الملمات الكبرى فتجتمع الوفود إليه وتحج الى مكتبه وهو يقوم بالمساعي الحسنة او بالوساطة فيما بينها .

والآن وبعد استعراض نشوء الامم المتحدة وتطورها الذي جئنا على خطوطه الكبرى ، هل يمكن القول بأن المنظمة نجحت أم فشلت حتى الآن في تحقيق أهداف ميثاقها .

انه لمن العسير جداً أن نأتي على سرد الاعمال التي قامت بها الامم المتحدة منذ عام ١٩٤٥ حتى يومنا هذا ، سيما اذا لاحظنا أن هذه الاعمال تقوم بها جهات متعددة من هيئات عامة ومتخصصة للمنظمة ، أي الجمعية العمومية ومجلس الامن والمجلس الاجتماعي والاقتصادي ومجلس الوصاية ومحكمة العدل الدولية والامانة العامة ، ومن مؤسسات مرتبطة بالمنظمة وعاملة تحت اشرافها وعددها كبير وهي منتشرة في انحاء العالم ، لذلك نقتصر على التذكير بالأهم من هذه الأعمال راجين أن لا يعتبر سكوتنا عن بعضها الآخر غمطاً لحق المنظمة أو تنقيصاً لنشاطها فنقول :

– لما كان الهدف الاول من تأسيس المنظمة العمل على حفظ الامن والسلم الدوليين فإن المنظمة قامت بتخفيف حدة التوتر الناشب بين بعض الدول الاعضاء

ولا سيما بين المعسكرين المارذين الشرقي والغربي فجمعت الشقيتين تحت سقف واحد يظلهما علم واحد هو علم الامم المتحدة ومهدت للجمع بينها في مؤتمرات عالمية ، واتخذت في سبيل المحافظة على السلم قرارات عديدة ذات شأن أهمها قضى بإحداث لجنة لدراسة المشاكل الناشئة عن اكتشاف القوى الذرية ، وحظر القيام بالدعاية للحرب بجميع أشكاله ، وتهيئة اتفاقية أممية لنزع السلاح وحظر استخدام الادوات التخريبية ذات المفعول الشامل ، وتحريم استعمال الاسلحة الذرية والهيدروجينية ، وإدانة من تسول له نفسه من عدوان مسلح ، كما فعلت في موقفها المشرف من العدوان الثلاثي الغاشم على مصر .

وفي هذا المضمار قامت محكمة العدل الدولية – ونظامها جزء لايتجزأ من الميثاق – بحل كثير من الخلافات فخدمت السلم العالمي خدمة جلى وصدر عن مقرها في لاهاي منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن تسعة عشر حكماً قضائياً في دعاوى دولية اقيمت لديها كما أبدت أحد عشر رأياً استشارياً في نقاط حقوقية جرى استفتاؤها فيها .

وعلى هذا نجحت بقية أجزاء المنظمة وأعمالها كلها تتقطب نحو خدمة السلم العالمي ، فقد توسطت المنظمة في إنهاء الحرب التي نشبت بين بعض الدول الاعضاء وتدخلت بقوة السلاح في حرب كوريا من أجل وضع حد لما اعتبرته عدواناً من بعض البلاد عليها فحالت بذلك دون نشوب حرب ثالثة .

– وقد اهتمت المنظمة منذ نشوئها بالعمل على تحقيق أهدافها الاقتصادية وما مثل ذلك يخدم السلام ، فقامت بمساعدة البلدان المتخلفة اقتصادياً ، وقد رحبت هذه البلدان على الغالب بمثل هذه المساعدات لأنها أفضل بكثير من المساعدات التي يمكن أن تأتيها عن طريق الاتفاقيات الثنائية ان من حيث الكمية أم من حيث النوع إذ لايخفى أن المساعدات – التي تأتي من دولة واحدة

قد تؤدي أحياناً الى عواقب وخيمة تكون وبالاً على من يتقيد بأغلالها فالانسان أسير الاحسان ، ولذلك فقد فتحت الدول خزائنها لمساعدات الامم المتحدة لان المنظمة شخص اعتباري يعمل على إسعاد اعضائه دون أن يرمي من وراء ذلك الى تحقيق أي هدف خفي . وعلى هذا تضع المنظمة تحت تصرف البلدان المتأخرة اقتصادياً اللجان الاقليمية والخبراء الفنيين ، وقد زاد عددهم اليوم على ستة آلاف . وترصد لهذه الغاية في كل عام الاموال اللازمة كما تقدم المنح المدرسية لتؤمن لبعض الدول الاخصائيين الذين تحتاج إليهم في تطويرها .

وتعمل المنظمة على النهوض بالبلاد الموضوعة تحت الوصاية حتى تستكمل عناصر استقلالها ، كما أنها تتلقى عرائض وشكاوى من البلاد التي ما زالت رازحة تحت نير الاستعمار وتنظر فيها على ضوء ما ورد من بنود خاصة لهذا الغرض في الميثاق .

ولما كانت القواعد الحقوقية في تطور دائم بعيدة كل البعد عن الجمود ، وهو ماعبرت عنه القاعدة الفقهية بقولها « ولا ينكر تبدل الاحكام بتبدل الازمان » فقد عنت المنظمة عناية خاصة بتنسيق القانون الدولي وتطويره تنفيذاً لما ورد في المادة ١٣ من ميثاقها وذلك على يد « لجنة الحقوق الدولية » التي شكلتها منذ البدء والتي تعقد بانتظام دورات سنوية في مدينة جنيف ، وقد استطاعت المنظمة إبرام عدد لايستهان به من الاتفاقات الجماعية ، نذكر منها على سبيل المثال الميثاق الذي أبرمته (٤٨) دولة لحظر جريمة إبادة الجنس أي القضاء على شعب ما قضاء متعمداً .

ولما كان الهدف الاصلي للقواعد الحقوقية العمل على إسعاد الانسان ، ولما كانت سعادة الانسان تقاس بالحريات الاساسية التي يتمتع بها ، وكانت سعادة الامم متوقفة على سعادة أفرادها وكرامة الشخصية البشرية وقيمتها . وكل هذه

العبارات المحببة للقلب وارادة في مقدمة الميثاق ، ولما كانت شعوب الامم المتحدة قد عزمت على رعاية الرقي الاجتماعي وتنظيم شروط احسن للحياة في نطاق حرية أوسع ، كما ذكرت المقدمة نفسها ايضاً ، فقد اوضحت المنظمة حقوق الانسان الاساسية في بيان عالمي اعترفت به معظم الدول واقتبست عنه كثيراً من الاحكام ان في دساتيرها أم في تشريعاتها الداخلية وتعاملها ، كل ذلك على أساس توفير الحريات الكاملة للجميع دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الدين . وقد أكد هذا البيان بشكل خاص حقوق المرأة وتحسين وضعها الاجتماعي على أساس المساواة بينها وبين الرجل في جميع مظاهر الحياة ولا سيما مايتصل منها بالعلم والعمل .

ومن الرجوع الى اهداف المؤسسات المتفرعة عن الامم المتحدة يتضح ما تقوم به المنظمة من اعمال مختلفة في ميادين الاقتصاد والمال والاجتماع والثقافة والصحة وغوث اللاجئين من مختلف الجنسيات . . وغير ذلك مما تسطره الانسانية بمداد العرفان .

الا ان لدى الاسرة العالمية كثيراً من القضايا الهامة التي ما زالت حتى الان معلقة وبعضها رافق المنظمة منذ نشوئها فلم تفلح في ايجاد مخرج لها أو أنها لم تقو على تنفيذ المقررات التي اتخذتها بشأنها .

وأهم هذه القضايا التي يتوقف عليها السلم العالمي الى حد بعيد هي بلا ريب قضية فلسطين العزيزة ، فقد رافقت المنظمة منذ نشوئها ، ولا توجد مشكلة عولجت فيها حتى الان اكثر منها ، ويمكن القول ان المنظمة ساهمت الى حد بعيد في خلق هذه المشكلة ثم تعثرت فيما بعد بايجاد حل لها . وقد نوقشت قضية فلسطين من قبل جميع الهيئات الرئيسية في المنظمة ، باستثناء محكمة العدل الدولية ، فلم تبحث من قبل الجمعية العمومية ومجلس الامن فحسب بل تناولها بالبحث ايضاً المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، ومجلس الوصاية ، والامانة العامة . وقد عقدت الجمعية العمومية دورتين استثنائيتين لها في عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ كما

ان مجلس الامن قد خصص لها اكثر من ربع اجتماعاته التي عقدها منذ قرار التقسيم المشؤوم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ، هذا عدا عن قرارات تربو على الالف صدرت عن المنظمة بشكاوى الدول العربية من تعديات الصهاينة المتكررة.

ومن القضايا المستعصية قضية جزيرة قبرص وقضية كشمير وقد اتخذت فيها المنظمة حتى الان موقفاً خجولا متردداً بشأن تطبيق مبدأ تقرير المصير فيها.

وكذا القول عن قبول الصين الشعبية في العضوية فانه يعتبر من الامور التي طال عليها الامد ، وقضية التمييز العنصري في اتحاد جنوبي افريقيا فهي مازالت قيد البحث والمعالجة والتسويف والمماطلة دون اي مبرر، سوى ماذكرناه من لجوء المنظمة الى العمل بالاساليب الدبلوماسية والركون الى رأي الاكثرية.

ومن اهم القضايا الحديثة المعروضة على المنظمة اليوم قضية المجر ، وهي سبب في مشادة عنيفة بين المعسكرين الشرقي والغربي وقد ادرجت في جدول اعمال الدورة الحالية ، اما قضية الجزائر المجاهدة في سبيل تحررها فمجرد درجها في جدول اعمال المنظمة واتخاذ قرارات بشأنها قد اخرجها عن صفة القضية الداخلية التي حاولت فرنسا عبثاً اقناع الرأي العام بها . واننا لنرجو ان توفق المنظمة الى الخروج من هذه القضية بالاعتراف لاخواننا الجزائريين بحقهم في حياة حرة مستقلة وبهذا تكون قد تمسكت بمبادىء العدالة وانتصرت لحق تقرير المصير الذي تأسس عليه ميثاقها ودعمه في بنوده غير مرة .

هذا ، وان كانت واحدة من هذه القضايا المعلقة تكفي لتهديد السلام في العالم فان هناك قضية نزع السلاح التي كانت ومازالت الشغل الشاغل للمنظمة ، فان لم تجد لها حلا سريعاً فالعالم يظل تحت كابوس تحويل الحرب الباردة القائمة الى حرب عالمية حامية ، أي ان المنظمة تكون قد فقدت علة وجودها وبيت قصيدها.

ورب قائل يقول ، هل ستقوى المنظمة على تذليل هذه الصعوبات وسواها القائمة لديها وتجنب الجيل الحالي ويلات حرب كونية .؟

ايها السادة اني من المتفائلين وارجوكم ان تكونوا كذلك ، وتفاءلوا بالخير تجدوه .

لاشك ان اسلوب العمل المتبع لدى المنظمة ، يحول دون اتخاذها موقفاً نهائياً وحاسماً في كثير من الامور فاشتراط المادة السابعة والعشرين من الميثاق موافقة سبعة من الاعضاء من اصل أحد عشر في الامور غير الاصولية المعروضة على مجلس الامن يكون من بينها اصوات الاعضاء الدائمين الخمسة متفقة ايجابياً ، ان هذا الاسلوب الذي نسميه « حق الاعتراض » او « الفيتو » يحول دون اتخاذ كثير من المقررات ، ولكن طريقة التصويت هذه في مجلس الامن تحمس لها الشرق والغرب عندما اقرت في مؤتمر يالطة ومن ثم ادخلت في صلب الميثاق ، فالاتحاد السوفياتي ارادها حرصاً منه على مصالحه الحيوية ، والولايات المتحدة الاميركية كذلك وتمهيداً لموافقة مجلس الشيوخ على الميثاق خوفاً لئلا تبقى هذه الدولة خارج الحظيرة كما حدث عندما عرضت على المجلس معاهدة فرساي التي اختتمت بها الحرب العالمية الاولى فرفضها وكان ميثاق عصبة الامم جزءاً منها فظلت الولايات المتحدة آنذاك بعيدة عن جمعية الامم .

لقد اقترحت حتى الان حلول كثيرة تؤول اما للقضاء على حق الفيتو او للحد من سلطانه ولكنها ذهبت ادراج الرياح .

فقالوا : على الاعضاء الدائمين ان يتفقوا فيما بينهم على التنازل عن هذا الحق طوعاً واختياراً اي باتفاق رضائي ، وتحقيق ذلك يبدو في الواقع مستحيلا للاسباب الجوهرية الآنفة الذكر .

وقالوا : لابد من تعديل الميثاق ، ولكن سهي عن بال من اقترح هذا الحل انه يشترط لتحقيقه موافقة جميع الاعضاء الدائمين (المادة ١٠٨) وعندئذ قد يستخدم احدهم حق الفيتو ازاء مبدأ التعديل فنصبح ضمن حلقة مفرغة .

ومازالت قضية التعديل هذه تشكل صعوبة كأداء وأرى انها تنذر بخطر كبير على كيان المنظمة او على الاقل على تركيبها الحالي ، وآخر ما اقرته الجمعية العمومية بشأنها كان في ٤٠ تشرين الاول ١٩٥٧ فصوت خمسون عضواً واستنكف تسعة وخالف الباقون من اجل عقد مؤتمر خلال دورة العام المقبل (١٩٥٩) لاعادة النظر بالميثاق ، وسنرى عندئذ ماذا يتم في هذا المؤتمر .

ولكن وجهة نظر الكتلة السوفياتية صريحة بالتمسك بحق الفيتو ، وقد ادلت بيلوروسية في رد رسمي بعثت به الى حكومة الولايات المتحدة في ٢ شباط الماضي قالت فيه :

« ان التخلي عن قاعدة الاجماع من شأنه ان يؤدي الى سوء الاستعمال والى انتهاك مصالح الاقلية والى محاولات لاستخدام هيئة الامم المتحده وفقاً لرغبة احدى الدول الكبرى او جملة من الدول . ان نبذ قاعدة الاجماع بين الدول الكبرى ليس من شأنه فقط انه لايقوي هيئة الامم المتحدة بل انه على العكس يضعضع هذه الهيئة ويؤدي في النهاية الى تفسخها ، ولايمكن القبول بذلك اذا كان يراد حقاً جعل منظمة الامم المتحدة هيئة فعالة للتعاون الدولي لا اداة في ايدي انصار سياسة مواقف القوة » .

هذا هو رأي الكتلة السوفياتية في الموضوع ، ومن جهة ثانية فان الكتلة الاسيوية الافريقية وكتلة اميركا اللاتينية لم ترحبا بتعديل الميثاق على الرغم من رغبتها في اعادة النظر في كثير من نقاطه المتعلقة بنوع خاص بشؤون الوصاية والاقتصاد ، وهي تقول اذا كانت النية تعديل المعنى أي المبادىء والاهداف التي ارتكز عليها الميثاق فمثل ذلك يولد حزنا ويأساً في العالم ، واذا كانت النية تعديل المبنى أي اسلوب العمل فهذا يعقد الامور بعد أن اصبح هذا الاسلوب مألوفاً تمرس عليه جميع من يعملون في المنظمة . والمخالفون لتعديل الميثاق بوجه عام يقولون ان الميثاق ولد بعد حروب وآلام قاست مرارتها الشعوب وقد اقام

الدليل على امكان التعايش والتعاون بين دول تعتنق مبادىء اساسية مختلفة وعلى هذا فهو جدير بالبقاء كما هو اذ ان تعديله قد يكون فرصة لخلق مشاكل جديدة بين الدول الكبرى وتعريض الشعوب الى حرب جديدة .

والحق يقال ان الداء لا يكمن في نصوص الميثاق بل في كيفية تطبيقها أي في سبر غور روحها فعلينا ان نفتش على النصوص « في قلوبنا لا في جيوبنا». ولا يخفى ان النصوص الداخلية وأهمها الدساتير كثيراً ما تكون ناجحة في تطبيقها على الرغم من نواقص تشوبها أو ابهام يعتريها ، أما سر نجاحها فكامن في ارادة الشعب الذي يحيطها بعنايته ورعايته فتبقى قائمة زمناً طويلاً لا يفكر احد بتنقيحها او تعديلها بل يأتي التطبيق العملي بهذا التعديل بصورة ضمنية لاشعورية.

أيها السادة ، ان المشادة القائمة بين الشرق والغرب بالنسبة لموضوع تعديل الميثاق لدليل كبير على شدة حرص الفريقين في الحفاظ على المنظمة ، وحماس الدول الصغرى لعدم التعديل كان وما زال منبعثاً عن الفائدة التي لمستها من استعمال حق الفيتو مرات متعددة انتصاراً لقضاياها ، وعن الامل الذي تعقده على المنظمة فهي محط انظار الدول ولا سيما الصغرى منها في تحقيق ما عجزت عنه جمعية الامم التي سبقتها ، وهي اليوم الامل الاخير للبشرية .

لا شك ان المنظمة تتعثر في كثير من المشاكل المعروضة عليها ولكن هل نطلب المستحيل من سيادات مختلفة ومفاهيم دولية متضاربة ..؟ يكفي للمنظمة فخراً انها جمعت على صعيد واحد وتحت سقف واحد الدول الحرّة في العالم وقرّبت وجهات النظر بينها في كثير من الشؤون على أساس المساواة في السيادة التي نص عليها الميثاق بين جميع الاعضاء (المادة ٢) ، واننا نرى ان اسلوب العمل الحالي الذي تسير عليه بفضل تطورها الذي ذكرناه يكسبها مرونة كفيلة باستمرارها وديمومتها ويحول دون الانسحاب منها ، وهذا ما حدث فعلاً حتى الآن فلم نسمع باستقالة أي عضو منها .

ونحن العرب نفخر باننا ساهمنا في وضع الحجر الاساسي للمنظمة فقد كنا وما زلنا من مؤيديها، وقد أصبح لجمهوريتنا العربية المتحدة ،أيدها الله ورعاها، كلمة مسموعة فيها ومركزاً مرموقاً بفضل مواقفها القانونية الحكيمة والخطة الحيادية التي انتهجتها في الميدان الدولي . واننا معشر العرب نشد أزر المنظمة ونأخذ بناصرها عن عقيدة أصيلة فينا فنحن جبلنا على حب الاجتماع ، على دعم الاخوة ، على ممارسة التسامح ، على خدمة الهدف الاول والاخير الذي تعمل المنظمة على تحقيقه ألا وهو « السلام » .

بهذه اللفظة التي تشنّف آذاننا منذ أن تفتّحت عيوننا للنور والتي اخذت بمجامع قلوبنا وضمائرنا دائماً وأبداً اختتم هذا الحديث .

في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٨

٢

الذّرة في خدمة الانسانيّة والسلم

للدكتور انطون الجناوي
الاستاذ بكلية العلوم

١ — أهمية الموضوع

سيداتي ، سادتي ،

اننا نعيش اليوم في عصر الذرة ، بل في عصر النواة . لقد أصبحت النواة مصدر طاقة هائلة يصعب تخيل مقدارها ، ومدى تخريبها ان خربت ، ودرجة فائدتها ان أفادت . و كثيراً ما نقرأ في الصحف ، ونسمع بالاذاعة ، أخبار **التفجيرات الذرية**، ولانزال نذكر أهوال القنبلتين الذريتين اللتين القيتا على **هيروشيما وناغازاكي** . وتوافينا الصحف بمعلومات عن **الصيحات التي** تتردد في كل مكان ضد استعمال السلاح الذري والهدرجيني . ولا يقل اهتمام الامم المتحدة بالطاقة الذرية عن الحكومات والشعوب ، فهي التي **أسست الوكالة الدولية للطاقة الذرية** التي مركزها فيينا، وشكلت **اللجنة العلمية** لدراسة تأثير الاشعاع الذري على الانسان ،وعقدت **مؤتمر الخبراء** لدراسة امكانية كشف الانفجارات الذرية . وموضوع ايقاف التجارب الذرية تمهيداً لنزع السلاح هو من أبحاث **اللجنة السياسية** للأمم المتحدة ، وتدور حوله مناقشات حادّة،وأنظار العالم كله متجهة نحوه ونحو نتائجه . فالاتحاد السوفيتي يطلب ضرورة وقف هذه التجارب وقوفاً مطلقاً غير مشروط باي شرط ، مع العلم ان الاتحاد السوفيتي كان قد سبق

وأعلن **من طرف واحد** ايقاف جميع تجارب التفجيرات الذرية والنووية ، فلو أوقفت الولايات المتحدة وبريطانيا في ذلك الوقت تجاربها الذرية لكان أصبح هذا الوقف حقيقة راهنة ولتنفس البشر الصعداء . ولكنهم رفضوا التضافر والمؤازرة وثابروا على التجارب .

ولقد أثبت **مؤتمر الخبراء في جنيف** ، اثباتاً قاطعاً ، أن لا شيء يعارض تحقيق اتفاق بين الدول الذرية حول الايقاف الفوري لتجارب جميع الاسلحة النووية . كما أسفر مؤتمر الخبراء هذا عن نتيجة حاسمة انه من الممكن تحقيق مراقبة فعلية على التوقف العام عن التجارب النووية ، وتأسيس هذه المراقبة بدون أي صعوبة تعترضها .

وماذا كان رد الفعل تجاه هذه الوقائع : **مضاعفة التجارب النووية في** المعسكر الغربي لتحسين السلاح الذري والهدروجيني من جهة ، وتصريح هذا المعسكر من جهة ثانية بانهم مستعدون لتوقيف تجاربهم النووية لسنة فقط ، مع التحفظ بالعودة اليها متى شاؤوا .

ان **توقيف التجارب النووية لسنة واحدة** ليس معناه توقيف التجارب ، لأن المدة اللازمة لتحليل هذه التجارب ودراسة نتائجها دراسة « دقيقة » وتهيئة سلسلة تجارب أخرى مبنية على هذه التجارب ، يستوجب سنة واحدة . فلا يمكن أبداً قبول هذا الوضع ، لما فيه من تآمر على أماني الشعوب وخداعها ، وهي ترغب من الاعماق ومن الصميم أن يشطب فوق هذه التجارب الى الابد .

ويقابل العالم الاوضاع هذه كلها **بصيحات** بوقف التجارب الذرية ومنع استخدام طاقتها في الحروب ، ونزع السلاح والتعايش السلمي ، وحصر استعمال الطاقة النووية لخدمة الانسانية وتقدمها لان العالم لا يزال بحاجة الى مسكن وغذاء وثقافة ورفاهية وتطور وتقدم ، ويرجح أن تبذل الجهود في هذا

السبيل السلمي ،في سبيل البناء والاعمار، لا في التخريب والدمار .

لقد أدرك العالم انه أمام أخطار جسيمة ، وأخذ القلق يساوره تجاه هـذه الطاقة التي اكتشفت حديثاً والتي تفوق بكثير ما اكتشف حتى اليوم من طاقات مختلفة ، فشعوب العالم تطالب بتسخير هذه الطاقة لخدمة الانسانية ورفع سوية الحياة لا للتدمير والفناء .

واننا نرى الامم المتحدة تدعو خلال ثلاث سنوات الى **مؤتمرين دوليين** حول استخدام الطاقة الذرية للاغراض السلمية ، فعقد المؤتمر الاول في جنيف في آب ١٩٥٥ ، وعقد المؤتمر الثاني في ايلول ١٩٥٨ ، ودام كل واحـد منهما أسبوعين ، وكانا من أعظم مؤتمرات القرن العشرين ، وأعطيا عن الطاقة الذرية صورة سلمية ، فيها شيء من التفاؤل .

ان اكتشاف الطاقة الذرية **يعد حادثاً ذا أهمية عالمية ، لان كل حضارة تستند الى منابع طاقة**، فعندما استطاع الانسان استخدام قوة الحيوان استغنى عن قوة العبيد وانتهى الرقيق . واذا استطاع الانسان أن يقوم في القرن التاسع عشر بما سموه الثورة الصناعية ، فانما يعود ذلك الى الطاقـة المدخرة في الفحم والبترول وشلالات المياه ، فوهبته ضوءاً وحرارة وغذاء ومتعـة ، وان في كثرة انتاجها شرطاً أساسياً لكل رقيّ مادي . وكلما زادت رفاهية الشعوب وسوية معيشتها ازدادت حاجتها الى الطاقة .

غير ان منابع الطاقة المألوفة محدودة ، فمدخرات الطبيعة من الفحم قريبة من أن تنفذ، وتـكاد تكون جميع مساقط المياه التي يسهل تحويلها الى كهرباء، مجهزة كهربائياً. وأخذ أرباب الصناعات الكيمياوية يقولون بأنه من التبذير حرق الفحم ، لأن الفحم مادة أولية رئيسية في صناعتهم . ولذلك كله كان لا بد من اللجوء الى طاقة جديدة . وهكذا أتت الطاقة الذرية في وقتها وبعثت من هذا

القبيل في نفس الانسان الطمأنينة لاجيال عديدة .

تظهر لنا الطاقة الذرية منذ الآن **بصورتيها** : صورة الحرب والدمار والتشاؤم والخراب والموت ، وصورة السلم والرفاه والتفاؤل والعمران والحياة.

٢ — ماهي اذن هذه الطاقة

كثيراً ما يتردد على مسامع الناس تعبيرات كالقنبلة الذرية والقنبلة الهيدرجينية ، والطاقة الذرية والطاقة الهدرجينية . فماذا تعني كل هذه التعبيرات ياترى ؟ ان الطاقة الذرية هي طاقة تحطم أو انشطار ذرات الارانيوم ، وهي من الذرات الثقيلة جداً ، الى أقسام أخف منها ، في حين أن الطاقة الثانية هي طاقة ذرات الهدرجين ، وهي أخف الذرات على الاطلاق ، عندما تلتحم ، تندمج ، تنضم بعض الى بعض .ففي الانشطار أو الالتحام تحدث طاقة هي أساس القنبلتين الذرية والهدرجينية .

ولا بد لي هنا من أن أذكر بعض الحقائق الاولية في علم الذرة .

اذا احصينا عدد الاجسام المختلفة في الطبيعة كالماء والنشا والخشب ... وجدنا انها ... ٥٠ تقريباً . أما عدد العناصر الكيميائية الداخلة في تركيب تلك الاجسام ، كالهدرجين والاكسجين ... فهو قريب من ١٠٠ فقط . واذا دققنا في تركيب كل عنصر وجدنا ان جميع العناصر تتألف من ثلاثة جسيمات عنصرية هي : النترون والبروتون والكهرب . فجوهر العنصر قسمان : أولاً النواة وهي تحوي بروتونات ونترونات ؛ وثانياً الكهارب وهي تدور حول النواة .

والنترون هو الجسيم العنصري للمادة غير المشحون بالكهرباء ، ومنه تسميته

بالنترون التي معناها المعتدل . وأما **البروتون**، وكتلته أصغر بقليل من النترون، فهو الجسيم العنصري للمادة المشحون بكهرباء موجبة تساوي تماماً بالقيمة المطلقة شحنة الكهرب ؛ واذا كانت نواة كل عنصر موجبة فانما يعود ذلك الى ما فيها من بروتونات . ونذكر أخيراً ان كتلة **الكهرب** أصغر بـ ١٨٠٠ مرة تقريباً من كتلة كل من البروتون أو النترون .

قد يكون للعنصر الكيمياوي الواحد عدة ذرات مختلفة ، كلها تحوي عدداً واحداً من البروتونات ومن الكهارب ايضاً ، ولكن عدد النترونات يختلف من ذرة الى أخرى : تدعى هذه الذرات المختلفة **بالنظائر** . مثال هذه النظائر الاورانيوم وله عدة نظائر ، كلها تتألف من ٩٢ بروتونا و ٩٢ كهربا . لكن احدها يحوي ١٤٦ نترونا ، والثاني ١٤٣ والثالث ١٤١ ؛ فيكون مجموع الجسيمات في النواة ٢٣٨ او ٢٣٥ او ٢٣٣ ، ويدعى هذا المجموع بالكتلة الذرية. ولذلك نسمي هذه الانواع المختلفة : اورانيوم ٢٣٨ ، اورانيوم ٢٣٥ ، اورانيوم ٢٣٣ . تختلف نسبة هذه الانواع في فلزات الاورانيوم اختلافاً كبيراً. فاكثرها انتشاراً في الطبيعة الاورانيوم ٢٣٨ ، بينما نسبة الاورانيوم ٢٣٥ لا تتجاوز ٧ بالالف . ومثال آخر **الهدرجين** وله ثلاثة نظائر : الهدرجين العادي وتتألف ذرته من بروتون واحد و كهرب واحد يدور حوله ؛ والهدرجين الثقيل او الدوتيريوم وتتألف ذرته من بروتون ونترون مجتمعين في النواة، ويدور حولها كهرب واحد ، ونسبة الثاني الى الاول في الماء العادي ١/٦٠٠٠ ؛ ولدينا أيضاً الهدرجين الثلاثي او التريتيوم وتحوي نواته بروتونا واحداً مع نترونين .

اذا امعنا النظر في انوية جميع العناصر الكيمياوية من اخفها الى اثقلها وجدنا ان اخفها يحوي عدداً متساوياً تقريباً من البروتونات والنترونات ، ثم يفوق عدد النترونات عدد **البروتونات** كلما كبر ثقل العنصر . ففي البيريليوم مثلا نجد ٥٢ بروتونا مقابل ٨٢ نتروناً، اي زيادة ٣٠ نتروناً. وفي الاورانيوم

٢٣٨ نلاحظ ٩٢ بروتوناً مقابل ١٤٦ نتروناً أي زيادة ٥٤ نتروناً . ان هـذه الخاصة للعناصر يجب ان تلاحظ لتفهم الطاقة الذرية .

نتخيل الآن اننا نقوم ببعض **الاعمال الكيمياوية**، التي يجريها الكيمياويون كل يوم في مخابرهم. لنفرض اننا وضعنا في وعاء كمية من **البروتونات**، وفي وعاء آخر كمية اخرى من **النترونات** تهيئة لتفاعلها . اقول « لنفرض » لان التجربة كما اصفها متعذرة ، اذ ان النترونات والبروتونات على جانب من الصغر ، يجعلها تنفذ من الاوعية ، لانها تجتاز بسهولة الفراغات الشاسعة الواقعة بين انوية المادة المصنوع منها جوانب الاناء . غير ان التجربة تجري بصورة مختلفة بتوجيه جسيمات ، بروتونات مثلا ، نحو اهداف تحوي الانوية التي نرغب في استحالتها ، فتحصل اصطدامات نادرة جداً لكنها تحصل . ولنفرض بالرغم مما سبق ، اننا خلطنا البروتونات والنترونات ، نشاهد ان البروتون الذي يلاقي نترونا يؤلف معه نواة هدرجين ثقيل . وكذلك يولد تلاقي بروتونين ونترونين نواة واحدة من الهليوم . ويرافق التفاعل هذا انطلاق كمية عظيمة جداً من الحرارة، ناشئة عن تفاني كمية من المادة ، اي ان قسما من مادة النترونات والبروتونات المتحدة يتلاشى عند الاتحاد ويتحول الى طاقة حرورية . والعكس صحيح ، قد تستحيل الطاقة الاشعاعية او الحركية الى مادة في بعض الظروف . والعلاقة الرياضية التي تنقاد اليها هذه الاستحالات من طاقة الى مادة ومن مادة الى طاقة هي علاقة أينشتين: **الطاقة تساوي مربع سرعة الضوء مضروباً بكتلة المادة المتفانية او المتولدة** . وهكذا عندما تتحد البروتونات مع النترونات في سبيل توليد نواة للمادة ، فان كتلة النواة الجديدة اصغر دائماً من مجموع كتلتي الجسيمتين اللتين ألفتاها . والفرق يتحول الى حرة . تدعى هذه الحادثة بتكاثف الكتلة . وينتج عنها انه اذا اريد تحليل النواة الى جسيماتها من بروتونات ونترونات وجب صرف حرارة عظيمة تقدر ببضع مئات ملايين من الدرجات في حال الانوية الثقيلة . بينما تجري تفاعلات الكيمياء في درجات من الحرارة تتفاوت بين بضع درجات

وألف درجة . من هنا وحده يتضح الفرق بين مقدار الطاقة الظاهرة في كل حادثة : في الحادثة الكيمياوية ، اي كيمياء الذرات من جهة في سبيل تكوين الجزيئات ، وفي الحادثة النووية أو كيمياء الانوية الذرية . وهذا مهم جداً بالنظر الى ان التفاعلات النووية سوف تبعث اشعاعات توافق **طاقة ، وتبلغ ١٠ ملايين مرة اكبر من الطاقة الحاصلة في التفاعلات الكيمياوية العادية .**

ان معظم الانوية مستقر ، ما عدا العناصر المسماة **بالمشعة** ، واشهرها الراديوم . فالراديوم مثلا يعطي جسيمات ألفا ، والجسيم ألفا هو نواة الهليوم الناتجة من تكاثف بروتونين مع نترونين . فنواة الراديوم تقذف نواة الهليوم بطاقة حركية كبيرة عفوية ، من تلقاء نفسها . فلدينا في هذه الحادثة تحرر عفوي للطاقة الداخلية . واذا اصطدمت جزيئات ألفا بماء مسعر ، توقفت عن السير وأعطت حرارة . ولدينا هنا علاوة على ما ذكر استحالة عفوية من مادة الى اخرى ، الحلم الذي طالما تغنى به السيميائيون . يتحلل الراديوم من تلقاء نفسه منتجاً جسيمات ألفا وغازاً نادراً يدعى الرادون ، أي ان عنصر الراديوم يولد عنصرين مختلفين الهليوم والرادون . ونتساءل لماذا لا تتحلل انوية الراديوم كلها وبلحظة واحدة منتجة الهليوم . ذلك لان ثمة حاجز طاقة كامنة يحول دون خروج الجسيمات عن نطاق الذرة؛ وللجسيم ألفا ، وهو يحمل شحنتين موجبتين ، احتمال ما باجتياز الحاجز المذكور ، وذلك يعود الى ما يحمله من طاقة حركية توافق الفرق بين مجموع كتلتي الرادون والهليوم وبين كتلة نواة الراديوم . يدعى الراديوم بالعنصر المشع طبيعياً ، وعدد العناصر الشبيهة به يقارب الاربعين .

ينتج من الخواص السابقة ، **خواص الانوية** ، النتيجة الآتية : اذا شطرنا بطريقة من الطرق نواة الاورانيوم ، حصلنا على طاقة عظيمة ، لان كتلة الاورانيوم المنشطر اكبر من مجموع كتلتي القطعتين الحاصلتين . وتتجلى هذه الطاقة بمعظمها في الطاقة الحركية التي اكتسبتها كل قطعة .

ان الاستحالات السابقة هي استحالات طبيعية تحصل من تلقاء نفسها . فهل يمكن لنا ان نحقق **استحالات اصطناعية**؟ لقد فكر العلماء بتسليط جسيمات ألفا الصادرة عن الاجسام المشعة الطبيعية على المادة المطلوب تحويلها ، أملا منهم ان تصادف هذه الجسيمات الهدف . وقد نجحوا في فكرتهم الفذة ، وجعلوا جسيمات ألفا تلاقي نواة الآزوت فحصلوا على أكسجين وهدرجين . غير ان مردود هذه الاستحالة ضعيف لان حجم القذائف صغير ، والمسافات الواقعة بين النواة والنواة المجاورة لها كبيرة جداً ، فاحتمال الاصطدام واحد من مليون ، ولان جسيمات ألفا مشحونة بالكهرباء الموجبة ، فتدفعها الانوية الموجبة عن التقارب منها. لكن هذه الاستحالة الاولى كانت لها أهمية عظيمة في تاريخ الفيزياء ، وعقبتها استحالات اخرى ، وأهمها الاستحالة التي ادت الى انطلاق **النترون من النواة** . وكان ذلك باطلاق اشعاع ألفا نحو هدف من البريليوم فاندلعت منه النترونات . ويمكن لهذه النترونات ان تفيد بدورها كقذائف من اجود القذائف ، لانها خالية من الشحنة وتستطيع بلوغ صميم النواة دون أن يكون ثمة رادع يردعها. فاذا ما بلغت **النواة** صدمتها، ودكت بنيتها، وانتجت مركبات جديدة هي النظائر المشعة.

ويجدر بنا هنا ان تذكر حادثة مهمة جداً ، اكتشفها العالم الابطالي **فرمي**: اذا كانت القذائف شحنات موجبة ازداد احتمال تصادمها بالنواة كلما ازدادت سرعة قذفها ، أما اذا كانت **القذائف** نترونات فان احتمال اصطدامها بالنواة يزداد **كلما صغرت سرعتها وتقاربت من سرعة الهيجان الحروري للجزيئات**. وكان هذا اكتشاف عظيم لانه يرشدنا الى معرفة أحسن الشروط التي يصيب فيها النترون النواة المقذوفة. فتناقص سرعة النترون يؤول اذن الى زيادة أبعاده بالنسبة الى الهدف ، اي الى زيادة احتمال وقوع الاصطدام والاستحالة ، او الى تصغير المسافة التي يجب على النترون ان يقطعها عبر المادة ليصطدم فيها بنواة . وكيف لنا ان نخفف سرعة النترونات ، ان نهدئها كما نقول . يكفي لذلك ان ندعها تجتاز

مادة ذراتها خفيفة ، كالهدرجين او الدوتيريوم او الفحم الكاتب . فاذا لاقى نترون نواة هدرجين مثلا ، أي بروتونا واحداً ، وكان تصادمهما مباشراً ، حل النترون محل البروتون واقفاً واندفع البروتون بالسرعة التي كانت للنترون . واذا كان الاصطدام غير مباشر ، خسر النترون قسما من طاقته وفي صدمة تالية قسما آخر ، وهكذا الى ان تصبح سرعته من رتبة سرعة ذرات الهدرجين المسبب للتهدئة ، فيقال ان النترونات صارت **«نترونات حرورية»** .
ومن المواد المخففة للسرعة البارافين والفحم الكاتب والماء الثقيل والغليسينوم ، مع العلم أن الماء الثقيل ، لاحتوائه الدوتيريوم ، يخفف السرعة أكثر من المواد ذات الذرات الثقيلة كالفحم الكاتب ، ويشترط في المادة المهدئة الا تمتص من النترونات الا القليل ليتاح لاكبر عدد ممكن منها ان يقوم بعمل القذف . وتدل التجربة على ان الهدرجين العادي أشد امتصاصاً للنترونات ، ويليه حسب الشدة المتناقصة ، الهدرجين الثقيل فالفحم الكاتب . ولذلك يرجح الماء الثقيل والفحم الكاتب على غيرهما من المهدئات .

ان الحياة الوسطى للراديوم ٢٠٠٠ سنة ، اي ان غراماً يصبح نصف غرام بعد مضي ٢٠٠٠ سنة . ويعطي الغرام الواحد منه ١٠٠ حريرة في الساعة الواحدة . فلا يصلح الراديوم اذن في توليد الحرارة ، وتعد استحالته بطيئة ، وتولد حرارة قليلة ، وثمنه غال . وكذلك العناصر المشعة الاخرى فكمياتها ضئيلة ، ولا تصلح لانتاج الحرارة . فكان لابد من اكتشاف حادثة جديدة لتوليد الطاقة وهي **التفاعل المتسلسل** . اذا سقط نترون واحد على كتلة كبيرة من الاورانيوم ، فبعد مسير معين يصطدم بنواة الاورانيوم ويحطمها الى قطعتين متساويتين تقريباً وينبعث عن هذا التحطيم ثلاثة نترونات . فاذا استطاع نترونان من هذه النترونات الثلاثة ان يصيبا نواتين من الاورانيوم استمر التفاعل ، بمعنى ان النترون يحطم ذرة ، والنترونان يحطمان ذرتين ، ثم أربعة

فثمانية ... ويحصل تفاعل متسلسل مستمر ، يتزايد في شدته باطراد ، وتنطلق منه حرارة هائلة ناجمة عن وقوف القطع الحطام الناتجة عن تحطيم كل ذرة من ذرات الاورانيوم . ولقد بحث العلماء شروط حصول هذا التفاعل المتسلسل فوجدوا انه يستوجب أن يكون حجم الاورانيوم أكبر أو يساوي حجما معينا يدعى الحجم الحرج ، ووجدوا أيضاً ان خلط الاورانيوم بالمادة المهدئة ينبغي ان يكون غير متجانس ، بل على شكل شبكات منتظمة ومتقطعة .

ان مبدأ التفاعل المتسلسل هو أساس **القنبلة الذرية** ، واستوجب صنع هذه القنبلة جهوداً كبيرة وأموالا باهظة . وكانت الصعوبة باديء ذي بدء في فصل الاورانيوم ٢٣٥ ، وهو المادة التي يصنع منها القنابل . اني أجهل تركيب القنبلة الذرية على وجه الضبط ، ولكن مبدأها الاساسي كما يلي : نفرض كتلة من الاورانيوم ٢٣٥ كروية الشكل ، توفر فيها شرط الحجم الحرج ، فاذا ما أصابتها نترونات حطمتها . نقسم هذه الكرة نصفين متساويين ، ونثبت نصفا واحداً في طرفي أنبوب اسطواني ، والنصف الآخر في الطرف الآخر من الانبوب . فطالما النصفان بعيدان فلا يمكن للتفاعل المتسلسل ان يجري ، لان شرط الحجم الحرج غير محقق . ولكن اذا دفعنا احد النصفين نحو الآخر وتماسا ، وبجانبها منبع نترونات ، تحقق شرط التفاعل المتسلسل ، وتم الانفجار ، واي انفجار !... ان شدة الانفجار لكيلو غرام واحد من الاورانيوم تعادل شدة الانفجار لثلاثة مائة الف كيلو غرام من أشد المتفجرات المعروفة . وتبلغ درجة الحرارة ملايين الدرجات ، وينتج عن الانفجار تيار هواء ساخن جداً وسريع للغاية يؤدي الى تحطيم الابنية والى انصهارها فتذوب كالشمع .

٣ — الطاقة النووية الحرورية

ان عهد الطاقة الذرية يعود الى ٢ كانون أول ١٩٤٢ والى التجربة التي قام بها العالم المشهور الاستاذ انريكو فرمي والتي حقق بها تفاعلا مراقباً للطاقة الذرية ، فوضع أمام العالم منبعاً غزيراً للطاقة كان مجهولاً من قبل . ان المفاعل الذري يعطي طاقة ، الطاقة التي تحويها نواة الذرة وذلك بتحطيم ما كان منها ثقيلا الى عناصر اقل ثقلا ، وهذا أساس الانشطار . وقد بنت الدول من هذه المفاعلات عدة أشكال فصار لدينا من الطاقة ما يساوي على أقل تعديل مائة مثل مما لدى العالم كله من طاقة مدخرة بشكل فحم وبترول ، وذلك بفضل فلزات الاورانيوم والثوريوم المعروفة على سطح الارض . على ان هذه الطاقة الناشئة من الانشطار رغم كبرها لم تعد الوحيدة التي وضعها العلم في أيدي الناس ، تهددهم وتخيفهم ، او تطمئنهم وتفيدهم . بل هنالك طاقة اوسع هي **الطاقة النووية الحرورية** لانوية العناصر الخفيفة جداً كالهدرجين . وهي الطاقة التي تنطلق حينما تنضم هذه الانوية الخفيفة في درجة عالية من الحرارة . وندعى هذه الحادثة الانصهار او الالتحام او الانضمام النووي الحروري . وانما الشمس تستمد طاقتها الحرورية والضوئية مما يجرى عليها من انضمام نووي حروري . ويبذل العلماء جهوداً لا يستهان بها لاجل تحقيق تفاعل انضمام حروري نووي مراقب ، وذلك في سبيل تأمين طاقة هائلة للانسانية . وقد وصفت لنا الابحاث العلمية الحديثة بعض الاجهزة التجريبية التي توضح المحاولات التي تستهدف التحام نظيرين نادرين للهدرجين . مع العلم ان الهدرجين هو من العناصر الاكثر انتشاراً على سطح المعمورة ، لانه أحد عنصري الماء . والهدرجين هو أخف العناصر . وذرته تتألف فقط من نواة تحوي بروتونا واحداً ، يدور حولها كهرب واحد سالب كدوران الارض حول الشمس . لكن انوية الهدرجين ليست

كلها على مثل هذه البساطة، فكل ذرة من أصل ٦٠٠٠ ذرة تقريباً تحوي نواتها نتروناً مضافاً الى البروتون الواحد، فيكون ثقلها الذري ضعف الثقل الذري للهدرجين العادي . تدعى هذه الذرة الدوتيريوم ونواتها الدوتون. فمن الناحية الكيمياوية لافرق بين الهيدرجين العادي والدوتيريوم. يدعى الدوتيريوم نظير الهدرجين العادي. يمكن الحصول على ماء مركب من هيدرجين ثقيل بدلا من هيدرجين عادي فنسمي هذا الماء الماء الثقيل. وللهدرجين نظير آخر هو التريتيوم، أو الهدرجين الثلاثي، وفي نواته بروتون واحد مع نترونين اثنين ، فذرته أثقل بثلاث مرات من ذرة الهدرجين العادي. فالدوتيريوم والتريتيوم هما المحروقان المطلوب « حرقها » (مجازاً) في المفاعل النووي الحروري : تنصهر نواة دوتيريوم مع نواة أخرى بعد اصطدامها وتعطيان نواة مهيجة غير مستقرة لاتلبث أن تنقلب الى هليوم ٣ ونترون أو الى نواة تريتيوم وبروتون ؛ وفي كلتا الحالتين يبلغ مجموع الجسمين الحاصلين وزناً أقل من مجموع وزني النواتين الملتحمتين ، وخسارة الوزن هذا تتحول الى طاقة نووية حرورية. وهناك منبع آخر للطاقة هو تفاعل التحام نواة تريتيوم مع دوتون وانتاج هليوم ٤ ونترون .

وغني عن البيان ان كل نجاح في تحقيق هذه التفاعلات بصورة مراقبة ، محكمة ، هو عمل مثمر للعالم باسره ، لان الطاقة الحاصلة من كميات الدوتيريوم والتيريتيوم الموجودة في بحار الكون تساوي مليار مرة الطاقة الخاصة بما تبقى من الفحم على الارض . ويدل الحساب على ان الهيدرجين الثقيل الموجود في ليتر واحد من الماء العادي يحوي من الطاقة بقدر ماتحوي ثلاثمائة ليتر من روح البترول ، وذلك بالرغم من ضآلة نسبته في هذا الماء العادي ، مما يدل على ان حاجة العالم الى الطاقة ستكون مؤمنة لملايين السنوات .

واذا قارنا بين الانشطار والالتحام رأينا ان الالتحام لاينجم عنه مواد

مشعة كما في الانشطار ، مما يوفر علينا اعمال طرح هذه المواد بعيدة عن بيئة الانسان ، واذا حصل حادث في مفاعل التحامي فليس فيه خطر على السكان المجاورين للمفاعل .

وينبغي على العالم ان يحقق الشروط التي يلتحم فيها اكبر عدد ممكن من الانوية الخفيفة . ولذلك يلجأ الى السبل الآتية :

كل نواة تحمل فيها شحنة كهربائية موجبة ، فنواة الهيدرجين الثقيل او نواة الهيدرجين الثلاثي تحمل اذن شحنة موجبة . ولذلك تتنافر الانوية جميعها ، فاذا تقارب نواتان من بعضهما وكانت سرعتاهما صغيرتين فقوة تنافرهما تحول دون تقاربهما بشكل كاف لتلتحما ، وبعبارة اخرى ان احتمال وقوع تفاعل الالتحام ضعيف جداً اذا لم تصطدم النواتان بطاقة كبيرة كافية .

تبلغ الطاقة اللازمة للالتحام ٢٠٠٠٠ الكترون فولت ، مع العلم ان الطاقة الحرورية للذرات وهي في الدرجة العادية من الحرارة لاتتجاوز مايعادل جزءاً من اربعين من الالكترون فولت . فاذا سخنت الذرات ازدادت طاقتها ، واذا كان المطلوب ان تصبح طاقتها ٢٠٠٠٠ الكترون فولت ، وجب تسخينها حتى الدرجة ٢٠٠ مليون درجة ! فمن البديهي ان المادة في مثل هذه الدرجة لاتبقى صلبة ولا سائلة ، فهي حتماً غازية ، ومن غاز خاص ، غير مألوف . في مثل هذه الدرجة تكتسب الكهارب من الطاقة مايجعل بقاءها على مداراتها حول النواة متعذراً ، فتشرد عن الذرة اذن وتصبح حرة طلقة في كتلة الغاز الحار . يدعى هذا الغاز بلازما ، وهو اذن مؤلف من كهارب حرة ومن شوارد موجبة اي من ذرات اقتلعت منها كهاربها . ومن الضروري كما قلنا ان تكون درجة الحرارة عالية لتكون طاقة الانوية كبيرة والا كان عدد الالتحامات ضعيفاً وتعذر الحصول على الطاقة المطلوبة . ولذلك فشرط النجاح ان يكون البلازما

حاراً جداً . ومن الضروري أن يكون البلازما كله حاراً . وكذلك يلزم ان تكون الكهارب نفسها حارة لئلا تكون سببا لضياع الطاقة .

وهنا يطرح السؤال : **ماهو الوعاء** الذي يستطيع ان يحوي بلازما درجة حرارته ٢٠٠ مليون درجة ، وهي درجة اعلى من درجة مركز الشمس . فمن البديهي ان اي وعاء ينصهر ، بل يتطاير بخاراً ، عدا ان جوانبه تبرد البلازما فيصبح عاجزاً عن الالتحام . والطريقة هنا هي ان يمنع البلازما عن ملامسة جوانب الوعاء ، وذلك بتسليط ساحة مغناطيسية اقوى بكثير من ساحة الارض ، ساحة الارض $\frac{1}{2}$ غوص تقريباً ، والساحة المسلطة هنا تبلغ ١٠٠٠٠٠ غوص . من المعلوم ان الساحة المغناطيسية تؤثر في الشحنات الكهربائية التي تجري فيها وتلزمها الدوران على دائرة نصف قطرها صغير . فاذا ماسلط على البلازما ساحة قوية — والبلازما كلها شحنات كهارب وانوية مشردة — انحصرت ضمن جوانب وهمية ، ولاتمس الجوانب الحقيقية ، وهذه الجوانب الوهمية هي الساحة المغناطيسية . بيد ان الساحة المغناطيسية ليست حاجزاً كاملا : تستطيع جسيمات البلازما ان تتلاقى وتصطدم ، مما يؤدي الى النفوذ من الحاجز ، الى اختراقه ودخول الساحة المغناطيسية بمقدار يساوي قطر الدائرة التي ترسمها في الساحة . واذا عانى الجسيم عدة اصطدامات اخترق تماماً الساحة المغناطيسية ، وبلغ جانب الوعاء ، على ان عدد هذه الحالات قليل اذا كانت شدة الساحة المغناطيسية كبيرة .

وهنالك **ضعف آخر** كامن في استعمال الساحة المغناطيسية ، هو اهم من الضعف السابق ، وهو الضعف الحاصل من وقوع عدد كبير من الجسيمات في الساحة المغناطيسية . فقد تتضافر هذه الجسيمات المشحونة على توليد ساحات كهربائية ومغناطيسية تدفع البلازما الى الخروج عن حدود الساحة المغناطيسية الساجنة . وهو

مايدعى « عدم استقرار البلازما » . وعدم الاستقرار هذا من اهم المشاكل التي يلاقيها البحاثة في شؤون الالتحام .

وبجانب ماسبق **صعوبة ثالثة**، وهي ان الساحة المغناطيسية هي بمثابة حاجز مادامت الشحنة تتحرك عامودية عليها ، فتدور الشحنة راسمة دائرة ، لكن الشحنة لاتعاني اي قوة اذا كانت تتحرك بصورة موازية للساحة ، « فالحاجز » المغناطيسي اذن مفتوح من طرفيه والجسيمات تهرب منها . ولذلك ينبغي تلافي هذا المحذور .

لم نقل شيئاً عن المدة من الزمن اللازمة لحصر البلازما ليلتحم قسم كاف من انويتها . ان هذا الوقت يتوقف على كثافة البلازما . وان الساحة المغناطيسية لاتستطيع حصر بلازما كثافتها اكبر من حد معين ، هو النهاية العظمى للكثافة . اذا مابلغت البلازما هذه الكثافة العظمى كان وقت الالتحام ثانية واحدة تقريباً ، وبعبارة اخرى يستوجب حسن سير المفاعل الالتحامي ان يحوي المفاعل البلازما مدة ثانية او اكثر . ويمكن لهذا الشرط ان يتوفر بصورة متقطعة ، وذلك بارسال دفعات من البلازما الحارة تدوم كل واحدة منها ثانية او اكثر ، وبين الدفعات وقت راحة . ويمكن تقصير مدة الحصر بتكبير الساحة المغناطيسية وجعلها اكبر من ١٠٠٠٠٠ غوص . ولكن في توليد هذه الساحة شيء من الصعوبة وله حدود ، لان التيارات المولدة للساحة لاتتحملها اسلاكها بسبب الحرارة المنطلقة فيها والقوى المنبعثة فيها ، مما ناهض النجاح في هذا السبيل .

هذا وان **اجهزة الالتحام** مبنية على طرق عديدة تهدف الحصول على بلازما حارة ومحصورة : منها مايستخدم غازا باردا في البداية واقعاً في ساحة مغناطيسية حاصرة ، ثم يسخن هذا الغاز بانفراغات كهربائية « وبالتخصير المغناطيسي » ؛ ومنها ما يستعمل الانفراغات الكهربائية لغرض التسخين ولغرض انتاج الساحة المغناطيسية

الحاصرة ؛ ومنها مايبدأ بشوارد فردية ذات طاقة كبيرة اكتسبتها من معجلات خاصة ، فتحصر هذه الشوارد بساحة مغناطيسية ، وتزاد شدتها فجأة او تفصل مجموعة شوارد بواسطة قوس كهربائية .

٤ — الاستعمالات السلمية للطاقة الذرية

سيداتي وسادتي

ان هذه المعلومات والوقائع المخبرية لها اهميتها في حياتنا ، ان هـذا العالم ، عالم الصغائر ، الذي تحدثت عنه ، والذي نلاحظ فيه اشياء صغيرة كالبروتون والنترون والكهارب ، ان هذه الاشياء الصغيرة لتهز الجبال وتستطيع تدمير العالم بأسره ، كما يمكنها رفع حياة الانسان وتأمين الرفاه والازدهار . وفي الواقع ان للطاقة الذرية استعمالات خير واستعمالات شر ، وهذا ماادركه الناس في كل مكان ، وهـذا مادفعهم لمقاومة استعمالات الشر وللمطالبة باستعمالات الخير . والاستعمالات السلمية للطاقة الذرية هي المفاعل او الفرن الذري ، والنظائر المشعة .

آ — **المفاعل الذري** : يمكن وصف المفاعل الذري بأنه فرن ، لاتتولد فيه الحرارة بواسطة اشعال الفحم او البترول ، وانما بواسطة الانشقاق او التحطيم الذري بالتفاعل المتسلسل ، وتنتقل الحرارة المنطلقة فيه الى البيئة الخارجية للاستفادة منها في استحصال بخار الماء ، الذي يحول على عنفات فيدورها ، والعنفات تدور مولدات كهربائية . واما وقود المفاعل فيمكن أن يكون معدن الاورانيوم الطبيعي ، وهو مزيج مؤلف من ١٤٠ جزءا من الاورانيوم ٢٣٨ مقابل جزء واحد من الاورانيوم ٢٣٥ . والاورانيوم ٢٣٥ هو وحده يتحطم بينما يتحول جزء من الاورانيوم ٢٣٨ الى بلوتونيوم ، وهو معدن يصلح ان

يكون وقوداً في مفاعل آخر . واذا حوى المفاعل الاورانيوم ٢٣٥ الصافي أصبح حجمه أصغر ، ووزنه أقل . واذا حوى المفاعل الثوريوم ، تحول الثوريوم الى اورانيوم ٢٣٣ ، وهو أيضاً وقود يستفاد منه في مفاعلات أخرى . وقد تفوق في بعض المفاعلات كمية الوقود الناتجة عن كمية الوقود المستهلكة ، فيسمى المفاعل مفاعلاً متوالداً .

ويستوجب تحطم الوقود في المفاعل أن يمطر بوابل من النترونات ، فاذا اصطدم أحد النترونات بنواة الاورانيوم ٢٣٥ داخل المفاعل ، انشطرت هذه النواة وأرسلت منها أكثر من اثنين من النترونات ، ويصطدم كل نترون منها بنواة أخرى من الاورانيوم ٢٣٥ ، ويستمر التفاعل في سلسلة هندسية متباعدة . وكلما حصل انشقاق انطلقت حرارة عظيمة . وهنالك مادة سائلة أو غازية في المفاعل تمتص هذه الحرارة وتنقلها الى خارج المفاعل ، الى مايسمى جهاز التبادل الحروري ، حيث يسخن الماء ويستبخر ، والبخار الناتج يوجه كالعادة الى مجموعة عنفة ومولد كهربائي . ولاتزال الاختبارات تجري لمعرفة أجود **المبرّدات** كالماء ، وأبخرة المعادن ، والمعادن المصهورة ، للاهتداء الى أكثرها فعالية وأحسنها مردوداً .

ويمكن تبسيط المفاعل باستخدام مفاعلات الماء ذات الغليان ، التي يسمح فيها الماء المبرد بالغليان ، فيتحول الى بخار يستخدم في تشغيل مجموعة عنفة ومولد كهربائي .

ويجب أن يتضمن المفاعل وسيلة **للمراقبة** لضمان عدم افلات زمام الامر ، بسبب التفاعل المتسلسل الذي قد يسبب انفجاراً ، كما هي عليه الحال في القنبلة الذرية . وكذلك ينبغي ان يكون للمفاعل **درع واق** لحماية العاملين حوله من الاشعاعات المختلفة . ويتكون الدرع الواقي في بعض المفاعلات من حائط من الاسمنت المسلح يبلغ سمكه عدة اقدام .

وهنالك أنواع من المفاعلات ، يمكن احداث الانشقاق فيها بسهولة قصوى ، اذا خفضت **سرعة النترونات الاصلية** ، بحيث يمكن اسرها بسرعة ؛ وتخفف السرعة ، كما قلنا ، بواسطة مهدىء قد يكون الفحم الكاتب او الماء الثقيل . وهناك نماذج من المفاعلات تضم الوقود والمهدىء في سائل واحد ، تدعى هذه المفاعلات **بالمفاعلات المتجانسة** لتمييزها عن المفاعلات الاخرى . وهناك أنواع أخرى من المفاعلات لا نصفها، يبلغ مجموع عدد نماذجها نحو ٣٠ تقريباً ، ويجرى عليها التجريب والتدريب ، وسيكشف لنا المستقبل عن أحسنها لتوليد الطاقة الكهربائية وأجودها للحصول على النظائر المشعة .

يستفاد من المفاعل الذري للحصول على **الطاقة الحرورية** في سبيل التدفئة ، وفي سبيل تحريك المولدات الكهربائية ، ولاستحصال النظائر المشعة .

ولقد أتيح لي **أن أزور أحد هذه المفاعلات** ، وهو المفاعل المبني جنوبي موسكو ، وهو مفاعل يولد طاقة كهربائية باستطاعة ٥٠٠٠ كيلواط لتغذية منطقة زراعية . وهو أول مفاعل في العالم ولد طاقة كهربائية من أصل ذري ، وكان ذلك في ٢٧ حزيران ١٩٥٤ أي منذ أربع سنوات ونيف .

ب ـ **النظائر المشعة** : هذا ويبلغ مجموع النظائر المشعة التي عثر عليها في الطبيعة أو أنتجت بالمعجلات والافران الذرية ١٣٠٠ تقريباً ، منها ٨٠٠ نظير مشع ، وثبت نفع ١٥٠ منها في الطب والصناعة والزراعة والعلوم البيولوجية . ونذكر منها بصورة خاصة الكوبالت ٦٠ ، والفصفور ٣٢ ، والكاربون ١٤ .

ينتشر استخدام **الكوبالت المشع ٦٠ في المستشفيات** لعلاج السرطان ، اذ تركز اشعته على الخلايا السرطانية ، وهي أشد تأثيراً من الخلايا الطبيعية المحيطة بها بما يحدثه الاشعاع الفتاك من تأثير ؛ ويمكن أيضاً استخدام الراديوم على الطريقة نفسها غير أن كمياته محدودة ونفقاته باهظة . ويمكن صنع كميات كبيرة

من الكوبالت المشع بنفقات أقل كثيراً عن طريق امطار الكوبالت العادي بنترونات نافذة من مفاعل ذري .

ويستفيد الطب أيضاً من ظاهرة أخرى ، هي أن السلوك الكيمياوي والفيزيولوجي لمادة ما لا يختلف سواء أكانت المادة ذات نشاط اشعاعي أم لا. وحيث أن مادة اليود اذا وضعت على الجسم تركزت في الغدة الدرقية ، فقد استخدمت مادة اليود ذات النشاط الاشعاعي، يود ١٣١ ، في علاج بعض أمراض تلك الغدة . فيتجمع اليود في الغدة وينطلق أشعاعها الى الناحية المرغوب فيها.

وقد أوجدت النظائر المشعة **طريقة الاقتفاء** بواسطة الاشعاع ، اذ يستخدم الاشعاع المتولد من أحد النظائر المشعة كعلامة يمكن متابعتها في طريق معقد من جسم الانسان او من النبات او في العمليات الصناعية .

ففي الطب مثلا تستخدم النظائر المشعة المقتفية في **تشخيص بعض الامراض،** فيستفاد منها في كشف موضع التورم في المخ مثلاً . وقد ألقت ضوءاً على الوظائف في جسم الانسان كالدورة الدموية ، وتولد الخلايا الدموية الحمراء ، والتغيرات الكيميائية في الجويصلات الحية، وانتشار بعض انواع السرطان .

ويمكن استخدام الكاربون ١٤ لتتبع السبيل الذي يسلكه الكاربون في **النبات** الحي بغية الاستزادة في المعرفة عن عملية النمو الاساسية للنبات . فعندما يصل الكاربون الى احدى الاوراق ، يكشف عن وصوله عدّاد جيجر اوأية آلة أخرى تكشف عن الاشعاع .وهناك وسيلة اخرى تتلخص في وضع ورقة النبات على فلم تصوير ، وعندها تلتقط الورقة صورتها بنفسها ، لأن الاشعاع يطبع صورة على الفلم .

وللنظائر المشعة فوائد عديدة في **الصناعة**، منها استعمال أشعة بيتا ، أي أشعة الكهارب المنطلقة منها ، لتقدير **السمك** ، اذ يوضع النظير المشع ، المولد لاشعة

بيتا ، على جانب من المادة المزمع قياس سمكها ، والتي تكون عادة على شكل صفائح ، وتوضع آلة القياس من الجانب الآخر ، وكلما كان السمك كبيراً كلما ازدادت كمية الاشعة الممتصة . ويمكن بمراقبة آلة القياس تحديد سمك المادة على وجه الضبط بدون ملامستها . وقد اتبعت هذه الطريقة بصورة شاملة في صنع البلاستيك ، وصفائح الالومينيوم ، للمحافظة على سمك موحد في المواد المنتجة .

وتساعد النظائر المشعة على تحسين وسائل الفلاحة ، والقضاء على **أمراض النباتات** ، وعلاوة على ذلك فانها تهيء لنا فرصة استنباط **سلالات جديدة** من النباتات تفوق السلالات القديمة جودة ومحصولا . تساعد النظائر عندما تدخل في تركيب **الاسمدة** على تحديد نوع السماد الذي يصلح لنوع معين من النبات ، كما تساعد على تحديد كمية الاسمدة المطلوبة وأين ومتى يجب ان تضاف لينتفع منها النبات الى اقصى حد . وفي هذه الحالة ترش الاسمدة الحاوية على كمية صغيرة من الفوصفات المشع رشاً منتظما على أرض الحقل تمهيداً لدراسة آثار ذلك السماد . وتجري هذه الدراسة الدقيقة بواسطة عداد لاكتشاف الاشعاعات ، وبذلك تتبين كمية الفوصفات التي يحتاجها النبات وكيف يستفيد منها . فقد دلت التجارب التي اجريت على ان شجيرات الدخان لم تكن تستفيد على الاطلاق تقريباً من الفوصفات الذي تحتويه الاسمدة ، مما أدى الى توفير مبالغ طائلة كان المزارعون ينفقونها عبثاً . وكذلك دلت تجارب مماثلة اجريت على نبات الذرة ، على ان هذا النبات لا ينتفع بالفوصفات الموجود في الاسمدة في المراحل الاولى لنموه ، اما في المراحل التالية فانه يستمد الفوصفات من التربة نفسها . ونتيجة لهذه التجارب اصبح الفلاح يعرف متى ينبغي ان يضاف الفوصفات الى التربة ، الامر الذي ساعد على تحسين محصول الذرة ، وحال دون ضياع الاسمدة عبثاً .

ساعدت النظائر على معرفة **طرق زيادة المحصول** ، فقد أدت بعض التجارب التي اجريت على فستق العبيد على زيادة محصوله ٣٠ ٪ عن النبات العادي ، وذلك

باكتشاف سلالة جديدة . قد تسلط الاشعاعات الصادرة عن النظائر على النباتات والبذور لتعجيل التغييرات الخارقة التي تحدث نادراً ، أو ببطء في الطبيعة ، فولد العلماء بالنظائر سلالات جديدة، امكن الحصول بها على غلال اجود وأوفر.

ونذكر ايضاً ان النظائر المشعة تساعد على تحديد نوع وكمية المواد المعدنية التي تحتاج اليها **الحيوانات** في عملية بناء العظام والعضلات وفي مقاومة الامراض.

واستطاع العلماء بواسطة تزويد الحشرات ببعض الكشافات المشعة ان يعرفوا على وجه التحديد مدى قدرة هذه الحشرات على التحرك، ونطاق رحلاتها، وبذلك امكن تعقب هذه الحشرات ومكافحتها والقضاء على الامراض والاوبئة التي تحملها .

وفي مضمار **حفظ الاطعمة** اثبتت التجارب ان معظم أنواع البكتيريا ، التي توجد في اللحوم والاسماك والخضراوات والاطعمة الاخرى ، يمكن قتلها بواسطة الاشعاع ، وبذلك يمكن حفظ الطعام الى أجل غير محدود بدون الاستعانة بالثلاجات . والمأمول ان تنجح هذه التجارب وان تؤدي الى ثورة في ميدان حفظ الاطعمة . ولقد اتاحت النظائر بدراسة عملية **التمثيل الضوئي** في النباتات : من المعلوم ان اشعة الشمس تساعد النبات على تحويل الماء وغاز الفحم الى سكريات ونشويات. وهذه العملية هي المسؤولة عن امداد كل كائن حي على ظهر الارض بما يحتاج من غذاء. وقد ساعدت النظائر المشعة على كشف بعض أسرار هذه العملية الغامضة، وربما ساعدتنا في يوم من الايام على ان نصنع المواد الغذائية من المنتجات الكيمياوية الرخيصة الوفيرة .

٥ — مؤتمرا جنيف للطاقة الذرية ونتائجهما

سيداتي ، سادتي ،

تلاحظون مما سبق ان للطاقة الذرية استعمالات سلمية عديدة ، كما ان لها استعمالات عسكرية ، وقد كانت الدول تعمل على نطاق قومي ، كل دولة على حدة ، وكان عهد من الصمت والتكتم حول الطرق التكنيكية المتبعة في الصناعة الذرية ، وحول الجديد من المعلومات المتعلقة بفزياء النواة، يسود العلاقات بين الدول ،وذلك منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ،وامتاز هذا العهد بالغاء الزيارات العلمية وتبادل المعلومات والمناقشات حول كل موضوع يتعلق بالذرة ، وكانت كلمة ذرة مقرونة ابداً بالسلاح الذري ، ومن ثم التكتم الشديد حول كل شيء يتعلق بالشؤون الذرية . حتى ان الاعتقاد السائد بين السلطات المختصة في الولايات المتحدة مثلا سنة ١٩٤٩ كان بضرورة حفظ السر المطلق حول تلك الشؤون الذرية لسببين : ١ — للانفراد في التمتع بالاحتكار الذري، ظناً منها انها تملك وحدها القنبلة الذرية ٢، — لأن استعمال الذرة معناه تغيير المعامل والنظام الاقتصادي ،اذ أن النظام كان قائماً وقتئذ على الفحم والبترول، فمعرفة الذرة واستعمالها معناه قلب النظام الاقتصادي رأساً على عقب وفي ذلك تغيير فجائي في توزيع ثروة العالم ، فقد تصبح دولة صغيرة ذات شأن كبير في عالم ذري . لكن الامر تغير خلال السنوات الاخيرة ، ويعود هذا التغير الى عدة اسباب: منها **نجاح الصناعة الذرية البريطانية** وتبوءها المركز الاول في تصدير النظائر المشعة الى البلاد الاجنبية (٦٠٠ ٠٠٠ جنيه مبيعات بريطانيا من النظائر المشعة) ؛ ومنها **قناعة الصناعيين** وأرباب العمل بان في استثمار الطاقة الذرية لأغراض سلمية ربحاً مغريا ؛ ومنها **رقي الابحاث والتجارب الذرية في الاتحاد السوفيتي** واعلان الاتحاد السوفيتي تدشين مركز توليد الكهرباء على الطاقة الذرية

في ٢٧ حزيران ١٩٥٤ ، مما جعل المعسكر الغربي يفقد فكرة الاحتكار للطاقة الذرية . وهكذا انتهى عهد الصمت والتكتم . وينبغي ان نضيف سبباً آخر لا يقل أهمية عن الاسباب السابقة ، بل يمكن ان يعد أهم منها ،هو تطور الرأي العام العالمي ، ورأي شعوب العالم بحل المشاكل العالمية بالمفاوضة لا بالقوة وبعدم استعمال السلاح الذري . فكان لا بد للامم المتحدة من ان تستجيب لرغبات الشعوب فدعت الى مؤتمري الطاقة الذرية. هكذا انعقد مؤتمران دوليان للطاقة الذرية واستخدامها في المضمار السلمي ، مؤتمران من اعظم ماعرفه القرن العشرين من مؤتمرات . عقد المؤتمران في جنيف : الاول في آب ١٩٥٥ والثاني في ايلول ١٩٥٨ . اخص بالذكر المؤتمر الثاني الذي اتيح لي حظ الاشتراك فيه . حضر المؤتمر الثاني ٦٣٠٠ موفد من مندوبين رسميين وخبراء ومراقبين ، ينتمون الى ٦٧ دولة ؛ وعقدت خلال مدة المؤتمر ، وهي اسبوعان ، ٧٧ جلسة مختلفة ، وأقيم معرضان ، وعرضت افلام ،وكلها بحثت المواضيع الآتية :امكانية انتاج الطاقة بطريقة الالتحام ؛ وازدياد انتاج الطاقة بتحطيم العناصر الثقيلة ؛واستعمال الطاقة النووية لتدفئة المنازل وتسيير المراكب والطيارات ؛وتشخيص الامراض ومعالجتها ؛ وتحسين المنتجات الزراعية والطرق الصناعية ؛ وأخيراً التقدمات الاخيرة الحاصلة في مبادىء وأسس نظرية المادة .

وتوزع عدد الموفدين ٦٣٠٠ كما يلي : ٢٣٠٠ مندوب و ٣٠٠٠ مراقب مبعوثين من قبل منظمات وبيوتات تجارية ومؤسسات علمية ، و ١٠٠٠ مراسل صحف ومحطات اذاعة ووسائل النشر والدعاية الاخرى .

وبلغ عدد البحوث العلمية المقدمة الى المؤتمر ٢٥٠٠ بحث،لكن ٣٠٠ منها اهمل ، لأن هنالك أبحاثا تفوقت عليها وسبقتها ،فبقي للعرض والمذاكرة ٢٢٠٠ وثيقة علمية تقريباً ، تلي منها شفهياً ٦٥٠ بحث واقتصر في بعض اللجان تكليف

مقرر اللجنة بقراءة خلاصة لعدة ابحاث تتعلق بموضوع واحد. والبحوث الآن قيد الطبع وستنشر في ٣٣ مجلداً.

وانعقد خلال المؤتمر **جلسات عامة**، وتفرع عنه **خمس لجان** مختصة. وكانت الجلسات تجتمع صباحاً وبعد الظهر وليلاً. هذا والقى بعض علماء الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا والهند محاضرات قيمة.

ورافق المؤتمر **معرضان**: معرض علمي اقيم في حديقة من قصر الامم المتحدة واشترك فيه ٢٠ دولة ومنظمتان دوليتان هما «السرن» ومركز دوبنا للابحاث النووية، وبرز فيه خاصة جناح الولايات المتحدة وجناح الاتحاد السوفياتي، وقد كان هدف هذا المعرض تبيان الحوادث والمواضيع المبحوثة في جلسات المؤتمر بلوحات وافلام واجهزة حقيقية وأجهزة مصغرة، واهم ماجلب النظر في هذا المعرض صورة للصاروخ السوفياتي الثالث، وتفسير حوادث الالتحام في الجناح الاميركي. ومعرض ثان تجاري صناعي اقيم في قصر المعروضات في مدينة جنيف نفسها، اشترك فيه المصانع وارباب التجارة والصناعة، ففيه يجد الراغب في شراء آلة تنقيب مثلا عن المعادن المشعة المدفونة تحت الارض، يجد هذا الراغب احسن عداد صنع حتى اليوم مع سعر العرض. وظهرت في هذا المعرض المنافسة التجارية بين المصانع المختلفة.

١٠ — لقد اتضح من المؤتمر **ان الطاقة الكهربائية التي انتجتها المراكز الكهربائية الذرية** المبنية على اساس تحطيم الانوية الثقيلة، بلغت حتى الآن بضع مئات الملايين من الكيلواطات الساعية، وانه من المنتظر ان ينافس سعر هذه الطاقة الكهربائية الذرية بين سنتي ١٩٦٣ و ١٩٧٣ سعر الطاقة الكهربائية الحاصلة بالطرق العادية. وقدمت لنا مشاريع من عدة دول لزيادة طاقة مراكزها الكهربائية الذرية، وبصورة خاصة نذكر مشروع مركز ذي ٥٠٠ الف

كيلواط في بريطانيا ومشروع مركز ذي ١٨٠ الف كيلواط في جنوب شيكاغو ومشروع مركز ذري ٤٠٠ الف كيلواط في سيبيريا . مما **دل على السعي المستمر في تكبير استطاعة المفاعلات ذوات التحطيم** .

٢ . — وفيما يتعلق بالطاقة الناتجة عن **تفاعلات الالتحام** ، فقد ظهر من الابحاث العلمية المقدمة ، وعددها مائة ، ان هنالك تقدماً مهماً في مواضيع مختلفة ، وسوف لاتمضي عشر سنوات الا وتكون الحرارة الناتجة عن التفاعل تساوي الحرارة المصروفة في سبيل التفاعل ... وبعد نشر المؤتمر لابحاث الالتحام والتصريح بها شيئاً جديداً ، بل ثورة في الابحاث الذرية ، وقد خصها بست جلسات .

٣ . — وقد اصبح الامل قوياً في استخدام الطاقة الذرية في **دفع السفن**، بعدما استمعنا الى تقرير الاتحاد السوفياتي بصف السفينة « محطمة الجليد » المسماة « لينين » التي قذفت الى البحر السنة الماضية ، وتقرير الولايات المتحدة عن السفينة التجارية « سافانا » التي لاتزال قيد البناء . وبعد السفن يأتي دور الطيارات ، وقد وصفت بعض التقارير المقدمة الى المؤتمر مشروعات وتصاميم لدفع الطيارات بالطاقة الذرية .

٤ . — ذكر في المؤتمر ان العناصر المشعة اصبحت في العالم كله اداة جديدة **في يد الطب والصناعة والزراعة والعلوم الاساسية** . وصرح ان الوفر السنوي الحاصل من استعمالها بلغ في الولايات المتحدة ٤٠٠ مليون دولار ، وفي الاتحاد السوفياتي مليار روبل . واكد احد العلماء ان من اهم اكتشافات العلم الحديث النظائر المشعة في الطب **للتشخيص والعلاج** . ووجه النظر بصورة خاصة الى الهدرجين الثلاثي او التريتيوم والى استعماله كأداة بحث بيولوجي وفيزيولوجي ، وهو يرسل اشعة بيتا الطرية ، ويخسر نصف اشعاعه خلال ١٢ يوم ونصف ،

فاذا حقن في مواد حية نفذ الى اعمق كيمياء خلاياها ؛ فاذا وضعت المادة البيولوجية فيما بعد بتماس لوحة التصوير ، فاشعاع التريتيوم يطبع صورة واضحة عليها . فبهذه الطريقة درست خواص الحموض النووية ، وهي مواد كيمياوية اساسية ، فيها يكمن سر الحياة لان لها خواص التوالد الذاتي .

٥ . — **واوضح لنا المؤتمر الخبرة الحاصلة في انشاء المفاعلات**،فاتضح منها ان المفاعلات ذوات الغرافيت والماء الثقيل اوفرها ؛ وان المفاعلات ذوات الماء الغالي لها طلابها وراغبوها بالنظر الى صغر حجمها وبساطة تركيبها ؛ وان المفاعل ذا المهدىء العضوي مهم بالنظر الى ان المبرد فيه غير مشع ؛ وان المفاعلات التي تعمل في درجات عالية من الحرارة والمبردة بالغازات يحسن استعمالها خاصة لدفع السفن ؛ وان المفاعلات ذات المحروق السائل والتبريد بالصوديوم مفيدة ؛ وان المفاعلات التي تولد من الوقود اكثر مما تستهلك اقتصادية ويرجح استعمالها في كثير من الاحوال .

٦ . — وصف المؤتمر طرق استعمال **البلوتونيوم** في المفاعلات ، وكذلك استعمال الثوريوم ، وقدرت كميات الاورانيوم الموجودة في العالم ، فكانت اربعة امثال ماقدرت عليه سنة ١٩٥٥ : اي انها بلغت ١٠ ملايين طن من الفلزات الغنية بالاورانيوم ، و ٥٠٠٠٠٠ طن على اقل تقدير لمدخرات الثوريوم .

٧ . — **وكشف المؤتمر النقاب عن طرق فصل الاورانيوم ٢٣٥ عن نظيره ٢٣٨** ، بعد ان كانت سراً مطلقاً ، وكان ذلك بعد ابحاث قدمت الى المؤتمر ، واعطيت المعلومات الكافية لمقارنة ثلاث طرق شائعة وكانت مكتومة : طريقة الانتشار الغازي ، وطريقة الانبوب المنفرج ، وطريقة القوة النابذة .

وتكمن اهمية فصل الاورانيوم ٢٣٥ ، وهو المادة المنشطرة ، في امكانية زيادة نسبته في الاورانيوم الطبيعي . ويعالج الاورانيوم في كل هذه الطرق

بعد تحويله الى سادس فلور الاورانيوم وهو مركب غازي .

في طريقة الانتشار الغازي يمر المزيج الغازي خلال حاجز ذي مسامات ، فالغاز الخفيف وهو سادس فلور الاورانيوم ٢٣٥ يمر بسهولة اشد . فأعطت الابحاث المقدمة تفاصيل ونتائج اختبارات تتعلق بكيفية استحصال سادس فلور الاورانيوم ، وتحضير الحواجز ذات المسامات ، ووصف منشآت صناعية للفصل .

وفي طريقة الانبوب المنفرج ، يجتاز سادس فلور الاورانيوم هذا الانبوب بسرعة تتجاوز سرعة الصوت ، فالاقسام الخفيفة من المزيج الغازي تسعى الى الشرود عن التيار الغازي وللجهاز وعاء حيث يتجمع على حدة القسم الخفيف .

واما طريقة اعتماد القوة النابذة ، فهي ان يعرض المزيج الغازي الى الدوران الى ان تصبح القوة النابذة اكبر من الثقالة بـ ١٠٠٠٠٠ مرة فينفصل القسم الثقيل من المزيج الغازي مبتعداً عن محور الدوران .

٨ . – **وبحث المؤتمر حوادث جديدة في مضمار الفيزياء النظرية والتجريبية ،** ودهش الحاضرون عندما اعلن احد علماء السرن (أي اللجنة الاوربية للابحاث النووية) نتائج تجارب تثبت الانشطار المباشر للميزون « بي » مع انتاج كهرب واحد ونترينو بدون ان يتحول الى ميزيون « مو » ، وهو تفاعل معروف نظرياً منذ ٢٣ سنة ، ولكن حقق الآن تجريبياً لاول مرة . وتناولت ابحاث الفيزياء النظرية الدقائق الغريبة ، ونظريات التفاعلات الجارية داخل النواة ، والثوابت الفيزيائية الجديدة ، ونتائج دراسة الاشعة الكونية ، ومعلومات قيمة عن المعجلات محطمات الذرات ، وعناصر جديدة في جدول مندليف كالعناصر كاليفورنيوم ، انشتينيوم ، كوريوم ، فيرميوم ...

هكذا كان المؤتمر نجاحاً عظيماً لتوضيع استعمالات الطاقة الذرية في الاغراض السلمية ، ونشط فيه تبادل المعلومات وظهر فيه شيء من التعاون الدولي ، وبيّن التطويرات الاخيرة للعلم الذري في الصناعة والزراعة والطب والعلوم ، واوضح ان العلم الذري يؤدي الى رفاهية الشعوب وتوفير الشروط التي تؤدي الى توطيد السلم في العالم .

٦ — برنامج الجمهورية العربية المتحدة

سيداتي ، سادتي ،

ترى اين نحن من كل هذا ؟ ادركت مصر وسوريا سابقاً ، والجمهورية العربية الآن ، اهمية الموضوع الذري ، ورصدت له المال ، وهيأت له الافراد وبعثت له البعثات ، فأوفدت الى البلاد الاجنبية اكثر من ٣٠٠ موفد من خيرة ابنائها ، حاملي الاجازة في العلوم والمهندسين ، للتخصص في شؤون الذرة العديدة ، وبنت المدينة الذرية بالقرب من انشاص ، واستوردت فرناً ذرياً مبرداً ومهدئاً بالماء ، يوقدون فيه الاورانيوم المزود بالاورانيوم ٢٣٥ ، وفيه تتدفق النترونات بسيالة ٢٠ مليون مليون نترون على الـ سم٢ وفي الثانية ، وبنت مخبراً للفيزياء النووية مع معجل على طراز « فان دي غراف » طاقته ثلاثة ملايين « الكترون فولط » ؛ وانشأت مركزاً للنظائر المشعة ، ووزعت الوحدات الصحية على المستشفيات ومصالح الزراعة ، وارسلت بعض البعثات الجيولوجية الاستكشافية الى مناطق مختلفة للتنقيب عن المعادن المشعة ، وعنيت بموضوع المونازايت الموجودة في الرمال السوداء ، وفيه ثوريوم واورانيوم ، وهيأت مشروعاً لاستحصال الماء الثقيل ، وجهزت المخبر الالكتروني .

والجمهورية العربية المتحدة عضو في الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وعضو

من أصل ١٥ عضو ، في اللجنة الدولية لبحث تأثير الاشعاع في الانسان . ولقد قامت بكل هذه الاعمال لانها ادركت ان لاحياة كريمة بدون صناعة ، وان الصناعة الذرية من أهم الصناعات ، لها مستقبل زاهر ومنها تؤمل فوائد جليلة .

هكذا نرى جمهوريتنا العزيزة الفتية تسرع في قطع مسافة طويلة لتتدارك التخلف الصناعي والاجتماعي ، لتلحق الصف الاول من ركب الحضارة . وتمضي في هذا الاسراع بروح ثورية في العمل والتشريع .

هذه الجمهورية التي نعتز بالانتساب اليها ، تأتي بين الدول الـ (١٥) الاولى في العالم في البرنامج الذري .

وبالرغم من هذا الاهتمام ، الذي يستوجب التقدير والتهنئة ، ينبغي ان تضاعف الجهود ، ويبذل المال بسخاء ، في سبيل تحقيق برنامج ذري معقول ومتناسب وتطور بلادنا ومستقبلها .

٧ — الانسانية أمام طريقين : الخير أو الشر ، السلم أو الحرب

اننا نعني بالموضوع الذري لاغراض قومية ، علماً منا أن الطاقة الذرية طريق نحو الرخاء والازدهار ، والتقدم والرقي ، ولاننا نعلم حق العلم أن البلاد المتخلفة اقتصاديا هي بلاد متخلفة من حيث العلم والمعارف والثقافة ، ولاننا واثقون انه لايجوز انتظار الآخرين ، بل ينبغي أن نقوم بتجاربنا بأنفسنا ، ونلحق بركب الحضارة والعلم والفن . اننا نعني بالموضوع الذري لاغراض قومية ذكرت بعضها ، وفي الوقت ذاته اننا نجاري التيار العلمي الذي يدعو الى اقتصار استعمال الطاقة الذرية لخير البشرية وخدمتها ، للاغراض السلمية فحسب ، لانه لايمكن لنا ان نتقدم اذا لم يخيم السلم على العالم ، واذا لم يزل التوتر العالمي وحرب الاعصاب والتهديدات بالقنابل الذرية والهدرجينية . ونحن رجال

العلم يؤلمنا أكثر من غيرنا ان يستغل العلم للتفنن بانواع الاسلحة الفتاكة لتدمير البلاد والجنس البشري وكل حضارة على الارض، لانقبل أن تستثمر الاكتشافات العلمية والابحاث الذرية في سبيل التدمير والتخريب ، لانقبل هذا أبداً ، ولذلك نضم صوتنا الى جميع الصيحات في العالم لوقف التجارب الذرية ونزع السلاح ؛ فنحن كعرب — والعرب شعب رحيم وانساني — و كعلماء، لدينا الاسباب الكافية ، لدينا اسباب قومية وسياسية لضم صوتنا الى جميع تلك الصيحات لوقف التجارب النووية ، راجين أن تغلب المثل العليا على المطامع ، والاعتبارات الخلقية والانسانية والروحية على الاعتبارات الاقتصادية والمادية الصرفة ، وان يقوم على الارض مجتمع انساني يسود فيه السلم والخير والعدل والحرية ، وتتعاون فيه القوى لخدمة الانسانية ورخائها والسلام .

دمشق في ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٨

٣

ذكرى إعلان حقوق الإنسان
تاريخ وآمال وحقائق

الدكتور مصطفى البارودي

استاذ القانون العام في كلية الحقوق

تحتفل جامعة دمشق هذا اليوم بمرور عشرة أعوام على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، على يوم أعلنت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة مبادىء ثلاثون استقاها واضعوها من ذروات الفكر السياسي ومشارف الضمير الانساني ، وقد سُكبت في بيان حر صريح لا لبس فيه ولا مواربة ولا شرود ، لأن طابعه البحث عن الحقيقة وتأكيدها ، والإيمان بها والدعوة لها ، حتى تزداد عمقاً ورسوخاً ، بعد أن حسر عنها أوهام السنين وظلمات العصور عقولُ الفلاسفة والحكماء الذين دانت لهم من بعد لأي عقول الحاكمين ، وانحنت أمام نتاج عبقرياتهم هامات رجال السلطة ، فأصبحت كلماتهم تسابيح ترددها قلوب اتخذت الى مستقر الإيمان سبيلاً فذاقت حلاوة الطمأنينة من بعد أن أرهقها الإلحاد بالقيم وعذبها الكفران بالمثل فكادت تزهق لولا أن رُدت إليها الروح !

وإني لأحب أن أبدأ محاضرتي بأن أقرأ أمامكم كلمات الإعلان ، فإذا نحن نستعيد ذكر العبقريات في فلسفة الدولة وفن الحكم ودراسة المجتمعات ، وإذا نحن من خلال الإعلان نعيش بضع دقائق مع أولئك الخالدين الذين لم يرضوا للحياة التي عاشوها أن تطحنهم كغيرهم في طريقها أو أن تكبل عقولهم بسلاسل

الزمن المتراخي على أكتاف الأجيال ، بل إنهم حطموا بالفكر قيود السلطة والحكم المفروض ، ودعوا أهل الأرض الى إدراك حقيقة ذواتهم وغرض وجودهم لئلا يكونوا كالسوائم في يد نفر منهم ما هم إلا أناسي مثلهم ، فكيف يسومونهم خسفاً أو يحملونهم على الهوان ، لقد آن للإنسان أن يردّ الى طريق الإخاء من ضاع عن الطريق من بني الإنسان !

ولسوف أقرأ المبادىء الثلاثين التي أقرتها الأمم المتحدة لأنتقل من سطورها الى التحليق في أجواء التاريخ ، أقطف منها ما يرد بحثنا إلى أصوله ويضعه في موضعه ، ثم أخرج الى دنيا التأمل في الآمال الجسام التي أرادت الأمم المتحدة أن تفتح أبوابها أمام بني البشر ، على الرغم من سطوة القوة وتأله الذرة ، وكبرياء ذوي الحول والمال ، واستعلاء من يحسبون أنفسهم في الأرض أعقل الوارثين ، فكأنهم ملكوا وحدهم الحكمة ، وكلٌ يحسب في نفسه القدرة على القيادة ، ويمضي في طلب دفة السفينة . فانظروا الى سفينة البشرية يتخاطف دفتها ربابنة مختصمون . .

فإذا وضعت الإعلان في موضعه من التاريخ على ضوء بيانات سبقته الى الوجود وكان نطاقها الدولة الواحدة وكان صداها في دول متقاربة الثقافة متآخية المسعى خلقت بينها الثورات نسباً ، فصيّرتها وحدة في طلب الحرية والتماس الشفاء من داء التحكم والأهواء حتى تآخت على سرير الإنسانية المريضة المدنفة مثلما تؤاخي المشافي بين المرضى والمدنفين ، فذلك لأن التاريخ يفسر من ثم الآمال التي باتت مهوى فؤاد العاملين المخلصين في الميدان العالمي الفسيح ، رغم ما يصدم المبادىء عند التطبيق من خزي الحقائق التي توشك أن تجرد الكلمات من جميل إهابها وتسلخها عن جوهر مسمياتها وتلقي بها عارية في أصل مستنبتها ، لا تنفع إلا زينةً للعقول وحلية للحديث وسحراً في البيان يتسامى إليها فكر ينفر

من شرور الدنيا وكأنها عالم من اللذائذ الموهومة لا يكون الوصول اليه إلاّ بالتخدير . . وكأن الإعلان العالمي هذا يغدو ضرباً من هذه التسلية العلوية إذ يفعل فعل المخدر الفكري العميق التأثير . ويومئذ ما أعظم التبعة التي يحملها العاقلون ليردّوا الحقائق الى دنياها ويؤكدوا أنها ما كانت ولا يجوز أن تكون أوهاماً وأحلاماً . . فأحلام العقلاء جديرة بأن تعرف التحقيق .

وإن أنا أمسكت بالإعلان العالمي لحقوق الانسان فكأني رُددت الى عشرة أعوام خلت ، فأرى الى باريس التي دعت بكل ما أوتيت من مغريات الفكر والجسد والروح لاستضافة وفود الأمم المتحدة ، وكأني أبصر الساعة بعينيّ قصر شايو وقد بسط جناحيه بهم بأن يضم إليه برج إيفل المتعالي غير بعيد ، وقد انعقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ في قاعات القصر وحجراته ، وكأني بالفرنسيين سعوا سعيهم الحثيث الى أن تعقد الأمم المتحدة لديهم دورتها الثالثة لتحتضن باريسُ مولدَ الإعلان العالمي لحقوق الانسان ، أو هم جهدوا على الأقل في أن تُنجَز في عاصمتهم ذلك العام صياغةُ الإعلان . . ولقد كان أنشط العاملين في اللجنة التي تفرغت لهذه المهمة رجلاً من بني جلدتهم ، وهو الذي تولى قراءة الإعلان في جلسة الموافقة عليه في العاشر من كانون الأول ، قبل عشرة أعوام ، يوماً بيوم ، والتراجمة ينقلون من خلال الأجهزة المعلقة بالآذان الترجمة الآنية المرافقة إلى اللغات الصينية والروسية والانكليزية والاسبانية ، فما أن تنتهي التلاوة حتى يُقَرّ الإعلان بالاجماع . . لقد ظفر الإنسان لأول مرة – بعد أعنف الحروب – بالاعتراف الدولي بحقوق الإنسان أنى كان . .

وقد جاء في هذا الإعلان في صيغته العربية التي أشرفت على ترجمتها أجهزة الأمم المتحدة :

(وهنا تلا المحاضر نص الإعلان العالمي لحقوق الانسان) .

ثم تابع المحاضر يقول :

ولعل من الواجب علينا بعد الذي رأيناه من حرص فرنسا على احتضان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، أن نتساءل عن حقيقة الصلة بين التاريخ الحضاري الفرنسي وبين ذلك الإعلان العالمي ، فهل كانت فرنسا وحدها الداعية الى حقوق الانسان ، أم أن كل ما يميزها من غيرها أنها وضعت في خدمتها البيان ، فهي والأمم الأخرى سواء في العمل الجدي في خدمة الإنسان ، مثلما دأب حكامها وحاكمون آخرون في غيرها على الكيد بالمقابل لبني الإنسان ؟!.. وعلى ذلك ما كانت الدعوة الى حقوق الانسان إلا حيث هضمت تلك الحقوق ، فما يصر المرء على تأكيد شيء إلا حين يفتقد ذلك الشيء وما يكرر الحديث عليه إلا حيث تشتد الحاجة اليه ؟!..

لا ريب أن إعلان حقوق الإنسان تراث مشترك بين بني البشر ، وقد كان في فترة تاريخية معينة يترعرع في نطاق الفكر الأوربي سواء على أرض أوربة بالذات أم في مستعمراتها في أمريكة ، العالم الجديد .

وإن الصلة التي تربط الإعلان العالمي بالتاريخ السياسي والحضاري للأمم جميعاً قائمة في فقرة من مقدمة الإعلان ، إذ تؤكد الأمم المتحدة أن من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الانسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر الى التمرد على الاستبداد والظلم .

إن هذا في الحق هو الذي يفسر إعلان حقوق الإنسان .. فهي حيث أعلنت في أي حقبة من التاريخ ، وفي أية صورة أو أية حدود ضيقة إقليمية ، وقبل أن تعرف الذيوع والإجماع العالمي ، إنما أعلنت على ألسنة المتمردين على الظلم .

وهنا أيضاً وجه المفارقة والغرابة :

إن إعلان حقوق الإنسان هو وليد العدوان على حقوق الإنسان.. ونحن ما اجتمعنا الساعة ليصرفنا سحر البيان عن الحقائق والدماء والثورات التي تولدت وتأكدت بفضلها تلك الحقوق . وإنما تسوقنا هذه الحقائق والدماء والثورات للحديث عن إعلان حقوق الإنسان من خلال كفاح الإنسان في وجه الطغيان ، واستبساله في صد العدوان . بل إن تبني الأمم المتحدة هذه الحقوق هو محاولة لتقويم الحكم في كل مجتمع لايرعى حقوق الانسان .. ومن أجل هذا فان الحديث عن هذه الحقوق هو في أصله الحديث عن الحكم على مر الزمان ، مذ كان تحكماً في الرقاب ، لارادع ولا وازع ، الى أن استفاق الفكر وتحسس الضمير فأراد من الحكم أن يكون واجباً قومياً أخلاقياً ، ثم واجباً إنسانياً عالمياً ، يصرف فيه بعض أبناء الشعب كل مواهبهم في خدمة مجموع الشعب ، في دولة استقامت معانيها ومبانيها وأصبحت كما ينبغي أن تكون الدولة : سلطة منظمة في خدمة الإنسان .

وما حقوق الإنسان إلا حقوق كل منا على السواء : حقوقي أنا ، حقوقك أنت ، نصونها من الباغين عليها ، ونستخلصها من العادين !. ولكن من ذا الذي يبغي عليها ، وممن نستخلصها ؟ إنه الإنسان ... وهل الحاكمون العتاة من غير طينتنا ، وهل الطغاة الجائرون إلا بشر مثلنا أخذتهم العزة بالإثم ، فمشوا في الأرض مرحاً ، وحسبوا أنهم يخرقون الأرض أو يبلغون الجبال طولاً ؟.

وهل ينصف الإنسان من أخيه الإنسان إلا أخوه الإنسان ؟ ههنا نتلمس العقل والفكر والضمير والوجدان ، فلكل امريء من نفسه على نفسه رقيب عتيد ، فإن أتى الشر استشعر حسابه الذاتي في نداء يهزه هزاً إذ يتعالى بين

جنبيه وقد هب الضمير الذي يمثل فيه روح الله .. حتى الحاكمون الظالمون إنما يصورون هذا الصراع في أنفسهم في أشد مظاهر تعنتهم على الناس ، فما ذلك التعنت منهم إلا هروب من الضمير ، وما الإمعان في التعذيب والاستبداد إلا إمعان في الرهبة من مواجهة الوجدان ، وباويح ذوي الفكر وأرباب العقول من خلوة مع الفكر ونشاط في العقل .. وما أروع أن ينتهي الحساب إلى صور الاتزان ..

هذا هو الإنسان في مجتمعه الابتدائي في أول صور الصراع النفسي أمام عذاب الضمير وجبروت الوجدان : ولدان من آدم وقد قتل الأخ أخاه ، فلما رآه مستلقياً أمامه رأى خور عزيمته فيما كان يختال به من قوته ، وبدت له شناعة الجبن فيما كان يحسبه من شجاعته ، ولم يستطع أن يترك أخاه حيث ألقاه بل حمله على منكبيه وكأنه يتبرأ من جرمه إذ يضم إلى ذات نفسه صورة جرمه ، وكأنه إذ يحمل ثقل الموت يتخفف من أثقال العذاب ، وهو يسائل نفسه ماهو فاعل بأخيه؟« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ،قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ، فأصبح من النادمين ... »

أليس كلنا ذلك الأخ المسئول عن أخيه الإنسان ..وفيم التباغض والتنازع والاقتتال ، وفي الأرض متسع لكل طالب عيش كريم ؟ ولم لايكون الود والوئام بدل الحقد والخصام ؟ أما ترعانا عين الله ، وقد فطر فينا الروح من أمره ، وآتانا الضمير كلمة منه نراه من خلالها بل نحسه في أعماق البصيرة ومنتهى التأمل ، وتسبح باسمه كل نبضة من نبضات الفؤاد ؟ وفيم لايقول القائل منا لأخيه : « لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك . إني أخاف الله رب العالمين »؟ أليصدق فينا غلبة الأمر بالسوء في نفس تتصرف في

لحظة عن دعوة الخير فإذا نحن كمن «طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ؟ »

أتراها شهوة التحكم والسيطرة جعلت الإنسان يُسخر لها أخاه الإنسان. أم أن سهم القدر النفاذ قد أراد بحكمة الله للقيم أن يتعاظم شأنها وللمُثُل أن يسمو شأوها بقدر مايسرف الناس في التجني عليها والتنكر لها ؟...

أوليست المجتمعات مذ بدأت تقدم عصراً بعد عصر صوراً ماتنتهي لهذا التجني وذلك التنكر فإذاهم الفكر على مر العصور أن يستخلص حقوق الإنسان من براثن الحاكمين ؟..

هذه أرفع المجتمعات قد خضعت لهذا الإثم في حق الإنسان . وهذه أثينا يغدو فيها الحكم حباً في التمكن وتلذذاً في الإخضاع رغم أنها أول المجتمعات تعلقا بالقانون واحتراما للنظام... ولكن القانون نفسه قد يغدو آلة للعدوان على الإنسان .. فكيف يمكن أن تخضع القانون لحقوق الإنسان ؟..

لقد بلغ من سطوة القانون في أثينا أن كان سبباً في مصرع المفكر الذي آمن بقدسية القانون، مصرع سقراط الحكيم.. وبالقانون اتهموه أنه يفسد عقول الناشئة فقضوا عليه بالموت، فحمل بذات يده الكأس التي خالطها السم. وهيهات للموت أن يطفيء شعلة العبقرية وهيهات للقوانين المسفة أن تمنع إشعاع الخلود.. فالعبقريات تتحدى الفناء.. والفناء للقوانين وللحاكمين. وإن أمضى الناس قوة على منصة الحكم يتمنى لو ملك في قلوب الناس ذرة من شأن العباقرة والملهمين ..

وإذن فقد تزعزع هذا المبدأ ، مبدأ قدسية القانون فلن يقبل على إطلاقه ويبدأ البحث عن طريق تغلب فيها على القوانين مباديء أسمى من القوانين .

ولقد قدم أدب اليونان نفسه سعيه في هذه السبيل. وهذا «سوفوكل» شاعر

المأساة ينطق العذراء « آنتيغون » في وجه صاحب السلطة « كريون » فتبدو هذه العذراء وقد خرجت على القانون ، لأنها آمنت بأحكام شاملة لاتحدها حدود ولا تعرف الفناء ، قوانين معصومة إلهية من السماء ، هي التي يجب أن يستمسك بها الفرد قبل أن يخضع إلى أحكام الأرض .

نعم إن تلك المبادىء العلوية كانت غير مكتوبة ، ولكن آنتيغون كانت تقرؤها في الضمير الواعي الذي كان يتحسس بها ، وفي فؤادها الذي كان يردد في خفقه هذه الفكرة العالمية التي تعارض قوانين الدولة بقوانين تفوقها قيمة وتسمو عليها لأن مداها العالم كله ، ولأنها انما تستمد من وازع الأخلاق .

وجه الخطر في هذه الدعوة بيّن لامراء فيه ، فالحقوق الوضعية في كل مجتمع لم تعط الرجحان إلا لأنها لايمكن أن تكون في المرتبة الأدنى إزاء مفاهيم لم تكتب ولم تتبلور فقد يذهب كل في تصورها المذهب الذي يشاء .

أليس خيراً للمجتمع أن يدعم قوانينه بدلاً من أن يحط من قدرها ويفتح الأبواب في أعين الناس أمام الفوضى الشاملة ، وهي أسوأ بكثير من أسوأ القواعد الوضيعة ؟

وإذن فلتكتب هذه المبادىء السامية على القوانين بدلاً من أن تظل بعيدة عن متناول الأعين كأنها شمس في فلك الأفكار تحس بأصالتها ودفئها ولكن أشعتها تنساب من بين الأيدي فلا تقبض منها على شيء ، وكأنها ليس لها وجود .. أم تراها كالريح ، آثارها بينة ناطقة ، ولكن لاتقبض منها أيضاً على شيء ، وكأنها ليس لها وجود ..

أجل إنها الشمس مرة ، والريح مرة أخرى ، ولسوف تحرق هذه المبادىء السامية المجتمعات الظالمة كلما انحرفت فيها الأنفس والقوانين عن صراط مستقيم ،

ولسوف تعصف بالظالمين فإذا هم أثر بعد عين ، كأن لم يغنَوا بالأمس ، وكأن لم يكن لهم سلطان مبين ، فلقد كرم الله بني آدم ، فما ترتضي قدرته الخارقة أن يُظلم الإنسان في الأرض ، بل يأخذ الظالمين بعذاب الهُون بما كانوا يكسبون ..

لقد ظلت هذه المبادىء مستعصية على القلم لا يكتبها ، وعلى الفكر لا يحصرها ، وإن كان يعيها ويكاد يلمسها .. ولكنها أشمل من قيود الكلمات وأعم من إطار الحروف .. غير أنها إذا لم تسجل ، فما الذي يحد سلطة إصدار القوانين ؟ وكيف تُرد هذه القوانين إلى أصلها وسبب وجودها فتكون للإنسان لا عليه ؟ لقد احتاج الإنسان إلى القانون لينظم شؤون حياته في مجتمعه لا ليذهب بها بدداً أو يلقي بنفسه في سجن كبير ..

واستمر الصراع وتجلى في تاريخ الغرب بأعنف صوره : فئة قليلة من بني الإنسان تسخر لها في المجتمع كل إنسان .. وتقوم الثورات ، وتُسفك الدماء ، وينهار الذين أساؤوا وضع القوانين أو أساؤوا تطبيق القوانين .. والإنسان الثائر ، والعاقل المفكر ، كلٌ يستمسك بحقوق الإنسان الأزلية ، المتفوقة على قوانين الحاكمين ، فكان لابد للفكر السياسي أن يجهد في عرض حقوق الإنسان ويسخر لها البيان ولو جعل مدادها شرايين القلوب ..

وكفعل البنّاء الحذر أراد الفكر أن يصف الأسس والجذور التي ينهض فوقها بنيان راسخ كالجبال الشم لا تزحزحها الأعاصير لأنها هي التي توجه سير الأعاصير.

وكانت المحاولة الأولى في العصور الوسطى ، فراح الفكر ينسب حقوق الإنسان إلى ما يسميه « الحقوق الطبيعية ». وكذلك فعل « بودان » ، فلقد أراد أن يؤكد حق التملك بأن جعل في عنق صاحب السيادة في الدولة واجباً دينياً يلزمه ألا يمس الحقوق الطبيعية لأنها من طبيعة الإرادة الالهية ..

غير ان الدين نفسه كان موضع الهزات والثورات في أووربا وقد تزعزعت وحدة الإيمان في شعوبها حين شقت البروتستانتية عصا الطاعة على البابوية. فلم يعد الدين يصلح سنداً ثابتاً للحقوق الطبيعية ، وراح الفكر يلتمس لها دعامة في الأرض ، بعد أن انقطعت بأوربة أسباب السماء. وفي هذا النطاق الجديد يلمع اسم جون لوك في الفكر الانكلوساكسوني ، ويقبس عنه جان جاك روسو مواطن جنيف..

يصور ههنا الفكر الإنسان في حالة الطبيعة ، طيب الطوية ، خالصاً من كل سوء ، وقد نعم بحقوقه جميعاً ، ليس بينه وبينها حائل ، غير أنه يخشى مع ذلك أن تفسُدَ هذه الحال فتضيع منه هذه الحقوق ، ولهذا ينتقل الأفراد معاً الى حالة الاجتماع وقد تعاقدوا على أن تبقى لهم حقوقهم الطبيعية لأنهم ما ابتغوا العيش في كيان الدولة إلا لتحفظ السلطة المنظمة حقوقهم من الضياع.

كان جون لوك يصور في هذا نصر حزب الأحرار في انكلترا على الملك جاك الثاني الذي كان يتآمر مع ملك فرنسة من أجل إعادة دين رومة إلى شعب تطرف بالأخذ بالبروتستانتية. وسجل الشعب نصره على جاك الثاني فأطاح به عن العرش ودعا اليه مكانه غليوم دورانج من هولاندة موئل البروتستانتية في أوربة ذلك الحين وسلمه الحكم وديعة وأمانة ليرعى « لائحة الحقوق » التي فرضها حزب الأحرار ، وأضحت الملكية الوراثية من ثم تجري في هذا الإطار التعاقدي الذي لا يرجع فيه صاحب التاج عما التزم به أمام الشعب...

وقد حمل المهاجرون الإنكليز الى أمريكا أفكارهم هذه إلى مستقرهم الجديد ، فلما أرادت لندن أن تفرض عليهم حكم الوطن الأم غير آبهة بحقوقهم كأناسي يريدون أن يرعوا بأنفسهم شؤون كيانهم في العالم البعيد الذي كانوا ينشئون سخروا بلندن وسلطتها وحطموا كبرياءها وتشريعها واستمدوا من لائحة

الحقوق التي كانت تنظمها عملياً على الطريقة الانكليزية يكفل للمواطنين منع كل اعتداء على حقوقهم الطبيعية ،واستمدوا من أفكار لوك التي تدعم حق الشعب في الثورة على الحاكمين الذين يخونون أمانة الحكم ويخرجون على شروط الوديعة، واستمدوا من إيمانهم العميق بالله الذي حفزهم الى مغادرة الوطن الذي تزعزع فيه ذلك الإيمان بالله ،استمدوا من كل ذلك أول صيغة نعرفها في العصر الحديث لإعلانات حقوق الإنسان فكانت كل مستعمرة ثائرة تضع إعلانها ثم وضعت كلها معاً إعلانا موحداً ، وتسلسل هذا على يد (جيمس آرتس وساموبل آدمز) وغيرهما من عام ١٧٧٢ الى عام ١٧٧٦ حين أعلنت الولايات الثائرة استقلالها ممهدة له بالذي تبغيه منه مؤكدة معناه : تحقيق حقوق الإنسان ..

ولم يعدم الثائرون الانكليز دماً في أمريكا نصيراً لهم في الوطن الذي اضطهدهم حتى انتزعوا منه استقلالهم ، وهذا « إدموند بورك » يخسر مكانته في في حزبه وقد كان من قادة حزب الأحرار وينظر اليه شزراً أكثر بني قومه، لأنه نهض يؤازر الثوار في قلب لندن التي داس الثوار تشريعها ونبذوا سلطانها ودحروا جيشها .

فاذا جاءت الثورة الفرنسية بعد قليل ، وأعلنت حقوق الإنسان على طريقتها ابتداء من عام ١٧٨٩ هب « ادموند بورك » نفسه منددا بها ساخراً من أعمالها مفنداً ماتدعيه من أنها تهدف حقاً إلى خدمة الإنسان .. وراح يعنف جماعة من الإنكليز باركوا ثورة في باريس تجيء بعد ثورتهم في انكلترا بمائة عام.. فكيف لهؤلاء أن يضعوا في حد سواء الثورة الانكليزية الرصينة الواقعية المحدودة البروتستانتية، والثورة الفرنسية الفاجرة المجردة المنطلقة الكافرة .. ألا يكفيها سوءاً أنها تنبذ نتاج العقول عبر العصور وتنكر الله وتزعم أنها تقيم بنيان الدولة بخطوط هندسية ، كأن كل الذي مضى من حقب التاريخ لم يخلف أثراً ، فلا يقيم له الثائرون وزنا ؟! حتى يقول : « إنني لا أدخل في نطاق الميتافيزيكية فأنا

أكره حتى وقع هذه الكلمة على السمع » .. ولهذا يرفض كل مناقشة تتجرد عن مناسبات الزمان والمكان والأشخاص ، لأن هذه المناسبات في الحقيقة هي التي تعطي المبدأ السياسي لونه المميز وطابعه الحقوقي وهي التي تجعل نهجاً مدنياً أو سياسياً يفيد أو يضر الجنس البشري ، فالعقل الانكليزي يأبى الدفاع عن مبدإ مجرد بغير معرفة ملابساته الدقيقة .. ولهذا ينقض بورك مفاهيم الثورة المجردة ومن بينها حقوق الإنسان لأنها جاءت على لسان الفرنسيين لغماً يهيأ تحت الأرض حتى إذا ما تفجر نسف دفعة واحدة ما جاءت به العصور القديمة والأعراف والمواثيق !. تُرى إذا كانت الحرية في معناها المجرد ينبغي أن توضع بين خيرات الجنس البشري ، فهل يُبارك المجنونُ الذي ينطلق من قسر الحماية ومن ظلمة الوحدة في الزنزانة لأنه استعاد حقه في الضياء والحرية ؟..

لاشك في أن من حق الإنسان أن يطلب العدالة وأن يستمسك بحصول عمله وبكل وسيلة تؤول الى تثميره ، وأن من حقه أن ينتسب إلى آبائه وأجداده وأن ينهض بتنشئة وتثقيف أبنائه ، وأن من حقه أن يسعى إلى أي شيء سعياً مستقلاً من أجل مصلحته دونما تعدٍ في ذلك على مصلحة الآخرين ..

لكن الذي كان يطلبه الثوريون الفرنسيون هو في الحقيقة حق اقتسام الحكم والسلطة وتسيير شئون الدولة .. وما كان هذا الحق في رأي « بورك » من الحقوق المباشرة الأولية للإنسان في المجتمع المدني ، فالحكم لا يقوم بالاستناد الى الحقوق الطبيعية لأنه من إبداع العقل البشري من أجل تلبية حاجات الناس لا من أجل إرضاء أهوائهم ، ولا جدال في أن أول حاجة عامة هي الحد بشكل كاف من الأهواء.. وفي هذا المعنى يكون القسر كالحرية في عداد حقوق الإنسان..

إن الأهواء والمصالح البشرية كثيرة معقدة ، وفيها تنتثر حقوق الإنسان في اتجاهات متعددة متغايرة ، حتى أفقدها ذلك رواء بساطتها الأولية ، وبقدر

ما تكون النظريات صحيحة في شكلها الميتافيزيكي فإنها تكون خاطئة أخلاقياً وسياسياً ، بسبب تلك الأهواء والمصالح حتى أن من الصعب تعريف حقوق الإنسان .

وهكذا يمضي (ادموند بورك) في تقريع ثورة فرنسا حتى يجند بني وطنه عليها ويطلب تطويقها في شبه حجر صحي .. فتقابلُ ذلك فرنسا بأن تخرج بدعوتها النظرية في حقوق الإنسان الى ما وراء حدودها وينطلق نابوليون في فتوحه ، وفي ركابه دعوة تصور أنه سيد العالم الذي نفر لخدمة الإنسانية ..

ومن عجب أن تؤخذ بهذه الدعوة بروسيا قلب العنجهية الألمانية ،فتعجب بالمحتل ولغته وآدابه ، حتى يستثير كبرياءها فيلسوف فذّ من أساتذتها الجامعيين ويعلن (فيخته) في وجه الفكر السياسي الفرنسي تفوق العنصر الألماني .. وينعكس ذلك كله على حقوق الإنسان فتنحصر في إطارها المحلي ، في كل دولة على طريقتها ، ويحول بينها وبين التطبيق على صعيد عالمي حروب هوجاء تريد أن يطغى مجتمع على مجتمع مثلما كان يطغى إنسان على إنسان ..

وإذْ أنقضت الحروب ظهر الإنسان ، واستنزفت خيرات الأرض فكبّتها في أتون الحرب بدلاً من أن تسعد بها البشرية حتى لتبلغ نفقات الحرب الواحدة أضعاف أضعاف ما يلزم لتحقيق الرخاء للبشرية جمعاء ، هيمنت على أفئدة الساسة المجتمعين في سان فرانسيسكو لوضع ميثاق الأمم المتحدة فيما بين الدول التي اكتوت بنار الحرب ، أفكار خالصة لوجه الإنسان ، أنى كان ، توحي بها الرهبة من حرب عالمية جديدة .. بعد كل هذا الدمار وذلك الاستهتار بالإنسان وحقه في الحياة .

وبوازع من ميثاق الأمم المتحدة الذي وقع عام ١٩٤٥ شُكلت لجنة حقوق الإنسان بعد عام ، ثم أنجزت هذه عملها في عامين ، وكان أن صُدق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مثل هذا اليوم قبل عشرة أعوام ..

وحمل الإعلان الى الإنسان آمالاً تسع الأرض جميعاً ، وقد كفلت مواده الثلاثون حقوق الأفراد في الميادين المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية،وكرمت حق الإنسان في الحياة والحرية والسلامة والعدالة،وأقرت حرمة البيوت ، وحرية الانتقال والإقامة ، ورعت حق العلم والتعلم ، وحرية العبادة ،وحرية التعبير عن الآراء،وحرية الاجتماع السلمي، والأمن الاجتماعي، وأن يكون للفرد ملك خاص ، وأن يشترك في حكم بلده ، وأن يشغل منصباً عاماً ، وأن يطلب لنفسه ملجأ ويحصل عليه ..

وقد أعلنت الجمعية العمومية أن هذه الحقوق « مستوى عام تنشد تحقيقه جميع الشعوب والأمم » ودعت الدول الأعضاء الى العمل على ترويج نص الإعلان ونشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته وبخاصة في معاهد العلم في أي دولة أو قطر أو إقليم مهما كان شأن الوضع السياسي القائم فيه .

وما لبث الإعلان أن تُرجم إلى خمسين لغة فاضحى ورداً أساسياً في كثير من الاتفاقات والمعاهدات الدولية واستقت عنه الدساتير الجديدة وروعيت أحكامه في كثير من النصوص التشريعية وقرارات المحاكم المحلية على نحو يعطيها بالنتيجة الذيوع العالمي بعد أن شعت في كل فج قريب أو بعيد .

وانطلقت الهيئات الرئيسية الثلاث في الأمم المتحدة التي ألقى عليها الإعلان العالمي واجب إنفاذ أحكامه تعمل كلٌ في ميدانها : الجمعية العامة ، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي ،ومجلس الوصاية..وراحت تُعد صيغة ميثاقين مستمدين من الإعلان ، ميثاقٍ للحقوق المدنية والسياسية وميثاق للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. وأنشأت تبحث في سيادة الشعوب والأمم على ثروتها ومواردها الطبيعية ، وحقها في تقرير المصير ، وتبحث في حماية الأقليات ومنع التمييز ، وحرية الإعلام إن في جمع الأخبار أو إذاعتها أو تصحيح المعلومات

أو في تهيئة وسائل الإعلام في الأقطار التي لما تستكمل أسباب النهضة . وعملت الأمم المتحدة مستعينة بنظمة العمل الدولية على إلغاء العمل الإجباري بجميع أشكاله ، ومضت في محاربة الرق بمختلف أنواعه ، وسعت سعياً حثيثاً في تحقيق مساواة النساء بالرجال في الحقوق في جميع الميادين السياسية والتعليمية والاقتصادية والمدنية والاجتماعية ، وتعاونت هيئة الأونسكو مع الأمم المتحدة في توسيع قبول النسوة في جميع الدول في جميع مدارس التعليم على اختلاف درجاتها وقبولهن للتدرب على الوظائف والمهن والاشتغال بها بشتى أنواعها ومساواة أجورهن مع الرجال .

وعلى الرغم من هذه الآمال الجسام التي تفتحت أبوابها بوازع من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فإن الأمم المتحدة تعترف في تقريرها الذي نشرته ، بانقضاء عشرة أعوام على الإعلان ، أن « الاعتراف العالمي الفعال والمراعاة الواجبة للحقوق والحريات التي ينص عليها لا يزالان بعيدين عن أن يكونا من الحقائق الواقعة !. وأنه إذا لم تُحترم حقوقُ الإنسان وكرامة الفرد وقدره فإن قيام السلم الدائم يغدو ضرباً من المحال !. »

ويقول التقرير : « إن الحقوق والحريات لا يمكن أن توفرها الأمم المتحدة وحدها ، ولقد قطع أعضاء هذه الهيئة على أنفسهم العهد بأن يقوموا بهذا الواجب » ، وكأن التقرير ينعي على كثير من الدول الأعضاء تخلفها عن أداء العهد المسئول .

ولعمري إن الحقائق قد تكشفت لكل ذي عينين عن عدوان آثم على حقوق الإنسان ، تم في عهد الأمم المتحدة ، فلم تُراع قراراتها ولا حفلت باحترامها كثيرٌ من الدول الأعضاء فيها .. وهذه دولة تركب رأسها في التمييز العنصري ولا تقيم وزناً لأي انتقاد توجهه اليها أجهزة الأمم المتحدة ، ألا وهي اتحاد جنوبي أفريقيا .. بل هذه دولة تقوم أجهزة الأمم المتحدة على أرضها وهي

الولايات المتحدة وهي لاتستطيع أن تمنع مواطنيها من احتقار الملونين . . وتحت سمعها وبصرها يصر بعض الأمريكيين على ان يمنعوا من ارتياد نزلهم الأناس السود على حد سواء مع الكلاب . . وهذه فرنسا وانكلترا وهولاندا تدير رحى الحرب الضروس في آسيا وأفريقيا لمنع تحرر الشعوب من نيرها وكأن هذه الشعوب لاتدخل في عداد بني البشر الذين صدر من أجلهم الإعلان العالمي لحقوق الانسان . . وهذه في النطاق العربي صورة يندى لها جبين الأمم المتحدة خجلاً من الاستهتار بمواثيقها ومقرراتها تتجلى في مليون لاجيء من فلسطين شردتهم من أرضهم شرذمة باغية، تخصصت منذ فجر حياتها في العدوان على حقوق الإنسان ، وتُقبل مع ذلك هذه الشرذمة عضواً في الأمم المتحدة التي فرضت على نفسها حماية حقوق الإنسان . . وهذه حرب الجزائر وثورة العرب في المحميات واحتلال قوى الذرة لأرض العرب برغمهم في المغرب، كلها شواهد ناطقة بشكوى الأمم المتحدة في تقريرها بالذات على استهتار أعضائها في نصرة الإنسان .

ولئن دعت الأمم المتحدة في تقريرها أن يعمل كل إنسان بطريقته الخاصة على إدراك الحقوق والحريات التي نص عليها الإعلان ، فيقيني أن الإنسان العربي أول من يلبي الدعوة ، وأن العرب أقدر الناس على النهوض بإعلان ذاتي لواجبات الإنسان العربي في تحقيق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان . .

ولقد ضرب العرب في هذا مثلا للأمم ، وكانوا أول من كفل بإعلان للواجبات حماية الحقوق ، وهذا قائد العرب الأول محمد بن عبد الله يفاخر في عهد النبوة ، أن كان حضر في عهد الجاهلية « حلف الفضول » وقد تعاقد فيه سادة العرب « لنكونن مع المظلوم على الظالم حتى يرد اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وما قام الأخشبان وما رسا ثبير مكانه ، حلف أبد لطول أمد يزيده طلوع الشمس شداً وسواد الليل مداً . . . »

وهذا في مدرسة محمد : عمر بن الخطاب ينتصف لمواطن ضعيف من خصمه الذي كان أقوى الخصام ويرسل قوله المأثور : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .. وهذه الدولة العربية في أوج ازدهارها وكمال رسالتها ليس فيها إنسان لم ينل حقه ، فما فيها محتاج ولا متظلم حتى فاضت الأموال في عهد عمر بن عبد العزيز حين فاضت الأنفس طهراً وصفاءً وخشية من الله ..

والحق أن العرب يوم يستكملون تحررهم ووحدتهم ويستدرون بأنفسهم كنوز أرضهم وخيراتهم ، لسوف يعودون أغنى دولة في الأرض ، فما يبذرون المال يومئذ لشراء الضمائر الوسخة وحملها على مركب الشرور ، بل ينفقون المال على حبه حيثما احتاج إليه إنسان ، حتى يستنقذوا الإنسان أنى كان ، تدفعهم الى ذلك مروءة يتفردون بكمالها بين بني الإنسان ..

ويومئذ يمسكون دفة السفينة ، سفينة البشرية المعذبة ، ويسوقونها الى مستقر آمن على شاطيء السلام ، وهم الذين يبدؤون وينتهون باسم الله واسم السلام .. والسلام عليكم ورحمة الله .

١٩٥٨/١٢/١٠

[illegible]

وكان هذه الشعوب لاتدخل في عداد بني البشر الذين صدر [illegible]

العالمي لحقوق الإنسان [illegible] في النطاق العربي صورة [illegible] الأمم

[illegible]

التي فرضت على نفسها حماية [illegible]

العرب في الحسابات واحتلال قوى الدول لأرض العرب برغمهم في الغرب، كما

[illegible] الأمم المتحدة في تقريرها بالذات [illegible]

في نصرة الإنسان.

ولئن دعت الأمم المتحدة في تقريرها أن يعمل كل إنسان بطريقته الخاصة
على إدراك [illegible] الحريات التي نص عليها الإعلان، فيقيني أن الإنسان العربي
أول من يلبي الدعوة، وأن العرب أقدر الناس على النهوض بإعلان ذاتي
لواجبات الإنسان العربي في تحقيق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ولقد ضرب العرب في هذا مثلا للأمم، وكانوا أول من كفل بإعلان
لواجبات حماية الحقوق، وهذا قائد العرب الأول محمد بن عبد الله يفاخر في
عهد النبوة، أن كان حضر في عهد الجاهلية «حلف الفضول». وقد تعاقد فيه
سادة العرب «ليكونن مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه، ما بل بحر
صوفة، وما قام الأخشبان وما رسا ثبير مكانه، حلف أبد الطول أمد يريده
طلوع الشمس شدا وسواد الليل مدا»...

٤

سياسة البترول الاستعمارية في الشرق العربي والعالم

للدكتور صلاح عمر باشا
وكيل كلية الآداب

ايها السادة ،

لابد لي أولاً من شكر ادارة الجامعة التي أتاحت لي شرف التحدث إليكم . وانكم لتعلمون أن موضوع المحاضرة : « سياسة البترول الاستعمارية في الشرق العربي والعالم » هو ولاشك موضوع الساعة ، بل هو موضوع كل ساعة في جميع البلاد العربية في الشرق الاوسط منذ مطلع القرن العشرين .

كما أن الازمة التي مررنا بها والتي لما تنته بعد والتي يعيشها العالم منذ ١٤ تموز إنما هي أزمة الاستعمار وأزمة البترول في جزء هام من العالم العربي .

ومثل هذا الموضوع الواسع الذي له علاقته الماسة بنا بل بالامة العربية كلها يحتاج بحثه الى محاضرات عديدة بل الى كتب ضخمة حتى تفيه حقه . ولهذا عمدت الى اجتزاء بعض الفكر الاساسية من مطالعاتي اليومية ، فعذراً إذا لم أف الموضوع حقه في هذه العجالة وجاء منقوصاً غير كامل .

١ — لمحة عن تاريخ البترول وعن أهميته العالمية في المجالات الاقتصادية والعسكرية :

منذ عصور بعيدة ، كان جوالو العالم القديم الذين يجوبون سواحل بحر

الخزر يشاهدون على أرض شبه جزيرة أبشرون apscheron حيث تقوم مدينة باكو اليوم ، ناراً تشتعل ولا تخبو . وكانت النار في ذلك الزمن بالنسبة الى البشر شيئاً مخيفاً مرعباً وغامضاً ، تمثل احدى قوى هـذا العالم الواسع المملوء بالاسرار والتي تسيطر عليه عناصر الخير تارة وعناصر الشر تارة أخرى. فكانوا يمرون بها سراعاً معرضين بوجوههم عن هذه النيران التي يتصاعد منها دخان أسود قاتم يربط الارض بالسماء ، ينطقون بما يشبه البسملة والتعاويذ ليبعدوا عن أنفسهم الشر والاذى ؛ او كانوا يسجدون خشوعاً واجلالاً لانها تتمثل لهم وكأنها مظهر من مظاهر الالوهية على وجه الارض ، تنير الليل وتقشع الظلمة المخيفة . ثم جاء عهد (زرادشت) الذي راى في هذه النار الأبدية روح النور السرمدية ، وأوجد عبادة النار المقدسة في فارس . وقد عثرت البعثات التي كانت تتحرى البترول في تلك المنطقة على آثار المعابد التي شيدت تقديساً لهذه العبادة وقادتهم هذه الآثار الى معرفة مواقع الاحواض الرئيسية .

لم تكن النار الدائمة الاشتعال ، في الحقيقة . سوى غازات ملتهبة تنبعث من أرض بيتومية التربة مخضلة بالنفط . وقد عمد فيما بعد عدد من الشعوب كالكلدانيين والفينيقيين والمصريين والرومان الى الافادة من هذه المادة السوداء اللزجة في طلي السفن لمنع تسرب الماء إليها وللاستشفاء من بعض الامراض المستعصية كالروماتيزم كما استخدموها فيما بعد في صنع بعض ادوات الحرب كقاذفات اللهب والحمم المحرقة ثم استعملها الصينيون القدامى في الانارة والطب .

وكان على البشرية أن تنتظر حتى عام ١٧٤١ م لترى اول شركة للبترول تألفت لاستغلال عرق من النفط ضمن الرمال البيتومية قرب مدينة بيشلبرون Pechelbronn .

هذا وقد جاء في التقرير الذي نشره معهد العلوم في سان ـ بطرسبورغ

عام ١٨١٧ « ان النفط سائل معدني لا فائدة منه ولا يمكن استعماله الا في تشحيم عجلات العربات » .

ولم يبدأ الاقتصاد البترولي الحديث باستغلال منتظم لحقول البترول الا في منتصف القرن التاسع عشر وكان ذلك من أجل استخراج مادة الكيروسين (زيت الكاز) للانارة فقط .

ثم طرأ على استعمال البترول تطور فجائي عندما بدأوا في استعماله كوقود في مراجل مولدات البخار منافساً في ذلك الفحم الحجري .

والارقام التالية تعطينا فكرة عن تطور استعمال البترول في النقل البحري قبل الحرب العالمية الثانية :

العام	سفن تستعمل الفحم ٪	سفن تستعمل البترول ٪
١٩١٤	٨٨,٨٤	٣,١٠
١٩٣٩	٤٤,٤٧	٥٣,٣٩

على ان التحول الاساسي في استعمال البترول لم يبلغ أهميته الكبرى الا بعد اختراع المحركات الانفجارية (ديزل)، الامر الذي سهل أمر استخدام البترول في جميع وسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية حتى انه ليؤلف اليوم بعد الفحم في (اوروبا) المصدر الثاني للقدرة على سطح الارض .

ومن المعلوم ان انتاج القدرة من مختلف أنواع المحروقات قد تطور بين عام ١٩١٣ وعام ١٩٤٨ حسب النسب الآتية :

	١٩١٣	١١٤٨
الفحم الحجري	٧٤٪	٥٥٪
الحطب	١٧,٦٪	١٠٪
البترول والغاز	٦ ٪	٢٨٪
الكهرباء	٢,٤ ٪	٧ ٪

واذا عمدنا الى لغة الارقام استطعنا ان نقول : كان البترول يؤلف عام ١٩٤٨ أكثر من ٢٨٪ من القدرة المنتجة في العالم . غير ان اهميته من الناحية الاقتصادية تفوق هذا الرقم ، لان البترول مصدر ممتاز للقدرة ، يعطي اكبر كمية من الحريرات بأدنى وزن . ولايمكن الاستعاضة عن مشتقاته بالنسبة للطائرات ووسائل النقل والمواصلات البرية . هذا ولايمكن بدونه ان نتصور الحياة الاقتصادية الحديثة وهي محرومة من شبكة مواصلات سريعة ومتفرعة. يؤلف البترول بالاضافة الى ذلك مادة اولية اساسية لصناعة كيماوية هامة،لانه لايحرق خاماً كالفحم ، إنما يستخدم مقطراً ، فالفائدة منه أتم وأكمل والفضل في ذلك يعود لحداثة استعماله الذي لايزيد على خمسين سنة .

هذا ويعتبر البترول اليوم من المواد الاساسية القليلة في العالم التي يقل العرض فيها عن الطلب ، والحاجة إليه ماتزال بازدياد مستمر رغم ارتفاع انتاجه المتواصل والجدول الآتي يبين لنا تطور هذا الانتاج بين عام ١٨٩٠ و ١٩٥٦ :

١٨٩٠	١١	مليون طن (للانارة فقط) كيروسين
١٩١٣	٥٣	» » »
١٩٢١	١٠٦	» » هذا الارتفاع في الانتاج بسبب ظهور السيارة والطائرة
١٩٣٨	٢٨٠	» » لم يعتر الانتاج ادنى نقص رغم الازمة .
١٩٤٥	٣٥١	» »
١٩٥٦	٨٣٩	» » بما فيه انتاج الاتحاد السوفيتي .

نلاحظ من الجدول ان الانتاج في صعود مستمر ولم يتعد الحاجة والطلب بل بالعكس كان الخوف ان لايصل الانتاج الى مستوى الاستهلاك . وبذلك لم يكن لجغرافية البترول السياسية ان تُحل معضلة ايجاد الاسواق (على عكس معضلة المنسوجات والمعادن والفحم) انما كان عليها ان تحل مشكلة التموين بهذه المادة الحيوية اي أنها كانت سياسة تسابق دولي لاحتلال مناطق البترول

واحتكارها . على أن تلكؤ الانتاج عن الاستهلاك والطلب لايعود الى نقص في احتياطي البترول اذ أنه لم يسبق في تاريخ انتاج البترول حقبة كان فيها الذخر العالمي من هذه المادة أغنى منه اليوم . وهو يزداد كل يوم مع توالي الاكتشافات لاحواضه التي تزخر بها مناطق متعددة في العالم لاسيما حقول الشرق العربي والشرق الاوسط .

على ان زيادة الاستهلاك هذه تعود الى عوامل عدة أهمها التوسع الصناعي العام والتقدم الاقتصادي في البلاد المنتجة للمواد الاولية وتعميم آلية الوسائل الزراعية وتحول الصناعة شيئاً فشيئاً عن الفحم الحجري الى النفط . هذا فضلاً عن اهميته الكبرى من الناحية العسكرية فالبترول من هذه الناحية اساس قوام :

١ - **القوى البحرية** : إذ يستعمل باشكال مختلفة للغواصات والوحدات الصغيرة أو للسفن الحربية الثقيلة كالمدرعات والنسافات وكاسحات الالغام الخ ...

٢ - **القوى الجوية** . اذ تستعمل الطائرات نوعاً خاصاً من البنزين نسبة الأوكتان فيه عالية .

٣ - **القوى البرية** : اذ يستخدم البترول اليوم في الوحدات الآلية وفي النقليات السريعة في جبهات القتال . استخدمت المانيا عام ١٩٤١ في بدء الحملة الروسية ٥٠٠،٠٠٠ سيارة شحن تستهلك يومياً كمية تتراوح بين ٥٠،٠٠٠ و ٧٠،٠٠٠ طن من البترول .

معنى ذلك كله أن التقدم الاقتصادي في العالم وبصورة خاصة التقدم الصناعي والستراتيجي يعتمد اعتماداً كلياً على مادة البترول . ولكي يتحقق التقدم في مختلف القطاعات الاقتصادية والعسكرية كان لابد من تحسين صناعة البترول نفسها . ومنذ ذلك الحين لم يعد ينظر إليه كمادة صالحة للاستهلاك فقط بل أصبح الشرط الأساسي لإمكان تحقيق مختلف أنواع الانتاج حتى أصبح صناعة قائمة بذاتها . وغدا

النفط موضوع صراع بين الأمم لأنه أصبح العصب الحساس لحياة الحرب كما هو لحياة السلم وهذا ماأخرجه من مرحلة الاستثمار الحر التي كانت تقوم بتحقيقها شركات كبرى الى مرحلة الاستعمار البترولي والتنافس العالمي . مما حدى الشركات الإحتكارية على زيادة نشاطها في الحصول على امتيازات جديدة للتحري والتنقيب والاستثمار وفي توسيع منشآتها للتصفية والتكرير ، وفي تشييد انابيب البترول وزيادة حجم ناقلات الزيت . ولابد لتحقيق ذلك من الحصول على امتيازات اقتصادية يدعمها النفوذ السياسي والعسكري .

٢ ــ ولكن ماهي أهمية البترول العربي وبترول الشرق الاوسط بالنسبة الى الذخر والانتاج العالميين .

إذا مادققنا جداول الإحصاء الخاصة بالبترول نلاحظ أن الانتاج العالمي في صعود مستمر كما قدمنا وأن هذا الانتاج ارتفع عام ١٩٥٦ الى ٨٣٩ مليون طن . ويتوزع هذا الانتاج على خمس مناطق كبرى بشكل متفاوت :

المنطقة الاولى من حيث اهميتها الانتاجية هي المنطقة الاميركية المؤلفة من الولايات المتحدة الاميركية وكندا وفنزويلا وبقية بلدان امريكا **اللاتينية** . تنتج هذه المنطقة مايقرب من (٥٠٠) مليون طن أي مايساوي ٦٨٪ من الانتاج العالمي . وتتوزع حقول البترول الاميركية توزيعاً حسناً من وجهة نظر استراتيجية .

المنطقة الثانية هي منطقة الشرق الأوسط التي تضم المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر ومصر والعراق وايران . انتجت هذه المنطقة عام ١٩٥٦ « ١٦٠ » مليون طن أي مايساوي ٢٠٪ من الانتاج العالمي للبترول.
المنطقة الثالثة من حيث الاهمية هي منطقة الدول الاشتراكية أو ماتدعى

بكتلة الاتحاد السوفييتي والمؤلفة من الاتحاد السوفييتي ورومانيا وهونغاريا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا والصين. يرتفع انتاج هذه المنطقة الى ٨٥ مليون طن أي مايساوي ١٠٪ من انتاج البترول في العالم. غير أن أحواض هذه المنطقة تتركز وتنحصر في اماكن معينة مما يجعلها في خطر من الناحية الستراتيجية.

المنطقة الرابعة هي منطقة الشرق الاقصى وقوامها اندونيسيا، وبورنيئو واليابان والهند وغينيا الجديدة وباكستان وبرمانيا. وهي فقيرة نسبياً إذ لايتجاوز انتاجها ٢٫٤٪ من الانتاج العالمي.

المنطقة الخامسة هي منطقة اوروبا الغربية المؤلفة من المانيا وهولندا، وفرنسا وايطاليا وانكلترة، يضاف إليها مناطق المغرب أي مراكش والجزائر. وهي أفقر المناطق بالبترول إذ لايتجاوز نسبة إنتاجها السنوي ٠٫٦٪ من الانتاج العالمي.

نلاحظ من هذا التقسيم أن منطقة الشرق الاوسط وبصورة خاصة البلدان العربية تأتي بالدرجة الثانية من حيث الانتاج اليوم. واذا ادركنا ان بعض أقاليم هذه المنطقة مثل مصر واليمن لم تزل مجهولة من حيث الانتاج فيها لاسيما في اليمن حيث قام مؤخراً بعض الخبراء الالمان باكتشاف بعض حقول النفط مؤكدين انها أهم واغزر من آبار العربية السعودية. وكان من المقرر أن يبدأ حفر الآبار اعتباراً من خريف عام ١٩٥٤. وقد اتفق على مشكلة تمويل استخراج البترول على الشكل الآتي: تساهم الشركة الالمانية بنصف التكاليف أما النصف الآخر فتساهم به الدولة اليمنية نفسها.

هذا وقدر الخبراء أن الشرق الاوسط سينتج اكثر من ٢٥٠ مليون طن من البترول عام ١٩٦١ وسيرتفع هذا الانتاج الى مايقرب من ٤٣٠ مليون طن عام ١٩٦٦.

أما في الوقت الحاضر فانتاج الشرق الاوسط بالنسبة الى الانتاج العالمي للبترول فلا يتجاوز ٢٠ ٪ تقريباً .

هـذا من حيث الانتاج أما إذا قارنا الذخر البترولي في الشرق الاوسط بالنسبة الى الذخر العالمي لطلعنا بنتائج مدهشة . وذلك لان الاحتياطي ، حسب تقدير الخبراء يؤلف في هذه المنطقة في حدود معلوماتهم اليوم ٦٥٪ [١] من الذخر العالمي غير أن هذا الذخر ليس ثابتاً بل هو قابل للزيادة كما هو الحال في الانتاج . لاسيما وأن مناطق كبيرة من بلاد العرب لم تجر فيها إلا تحريات بسيطة أولية [٢] . واننا نعلم أن اكثر حقول البترول في الشرق الاوسط لم تكتشف إلا خلال الخمس عشرة سنة الاخيرة وانه خلال ثلاث سنوات فقط أي من عام ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ تزايد الذخر في هذا الاقليم من ٤٢ الى ٦٥٪ بالنسبة الى الذخر العالمي . وتحتجز منه البلاد العربية في الشرق الاوسط مايقرب من ٥٠٪ .

وإذا اضفنا إلى كل ذلك أن آبار الشرق الاوسط تمتاز بالنسبة الى آبار البترول في العالم بقدرة انتاجية عالية بسبب بنيتها الجيولوجية الملائمة مما يجعلها غزيرة الانتاج فضلاً عن سهولة استخراج البترول منها وقربها من شواطيء البحر . واخيراً علينا أن لا ننسى رخص اجور اليد العاملة في المنطقة وحرمانها من أي نوع من انواع التأمين الاجتماعي .

وقد جاء في النشرة الاحصائية الشهرية التي صدرت منذ عدة اشهر أن (١٦٢) مليون طن من اصل (٣٠٠) مليون طن التي تقوم عليها تجارة البترول في

---

(١) لقد قدر الاحتياطي العالمي للبترول بما يقرب من (٣٦) مليار طن يحتبس الشرق الاوسط منه (٣٢) مليار طن .

(٢) ان الاراضي التي جرى تحريها لم تتجاوز حتى اليوم ٣٤٠٠٠٠ كم٢ بينما تقدر الاراضي الرسوبية المؤمل وجود البترول فيها بمليوني كم٢ في الشرق الاوسط .

العالم انما تنتجها منطقة الشرق الاوسط . كما نقلت وكالة الصحافة الفرنسية الايضاحات التالية التي وردت في النشرة الشهرية الاحصائية المذكورة :

ان ٥٠٪ من اصل البترول الوارد من الشرق الاوسط انما يمر بقناة السويس.
و ١٠٪ من هذا البترول تنقله خطوط البترول التي تنتهي في صيدا (aramco)
٧٪ ينقل بواسطة الانابيب التي تنتهي في بانياس (أي بي سي)
٥٪ ينقل بواسطة الانابيب التي تنتهي في طرابلس (اي بي سي)
وبعملية حسابية نرى أن ٧٢٪ من بترول الشرق الاوسط يمر باراضي الجمهورية العربية المتحدة .

هذا ويصدر البترول الخام الوارد من منطقة الشرق الاوسط على الشكل التالي :

٦٠٪ الى أوروبا الغربية
١٢٪ الى امريكا الشمالية
١٥٪ الى الشرق الاقصى
٨٪ الى دول الشرق الاوسط
٥٪ الى دول متفرقة

لنتصور الآن أوروبا الغربية وقد حرمت فجأة من بترول الشرق الأوسط قبيل تمكنها من استغلال الطاقة الذرية فماذا يحدث ؟ سؤال طرحه الكاتب ريمون آرون في كتابه « espoir et peur du siècle » وأجاب عليه : ستقوم في أوروبا أزمة تكون نتائجها أعنف بكثير من تلك التي تنتج عادة عن أزمات فرط الإنتاج (١٩٢٩) .

إن هذه الأهمية البالغة لبترول الشرق الاوسط وبصورة خاصة لبترول العالم العربي بالنسبة إلى أوروبا الغربية أولاً وبالنسبة إلى الاحتكارات البترولية

الكبرى ثانياً التي تجني أرباحاً جنونية طائلة من امتيازاتها في بلادنا ونهب ثرواتنا هي التي تفسر لنا حركة تكالب هذه السياسة الاستعمارية التي ينتهجونها ويعملون على تحقيقها بمختلف الوسائل ، تارة بشراء ضمائر الطبقة الحاكمة خادمة الاستعمار وعميلته ، وبافساد اخلاق الشعب والوقوف في طريق تطوره ومعاكسة كل خطوة يخطوها نحو التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وتارة بالمؤامرات الدنيئة المتتالية القائمة على الغدر والخيانة وتارة أخرى بالتهديد والوعيد وحشد الجيوش وتحريك الاساطيل وأخيراً باللجوء الى القوة والعنف .

غير اننا لن ندرك كنه سياسة الاستعمار هذه التي تجري في بلادنا اذا لم نلم بالسياسة العالمية للبترول وبالعلاقة الوثيقة التي تربط الاحتكارات البترولية الكبرى بالحكومات الاستعمارية القائمة على رأس الدول الرأسمالية .

وسنرى كيف على ضوء هذه السياسة العالمية للبترول تتجلى لنا بكل وضوح جميع أساليب الاستعمار وتظهر لنا أهدافه القريبة والبعيدة في منطقة الشرق الاوسط عامة وفي بلادنا العربية بصورة خاصة .

٣ — السياسة العالمية للبترول

في مركز الاعمال التجارية في لندن أي في « السيتي » كما هي الحال تماماً في « الوول ستريت » في نيويورك نجد الاعمال المصرفية الكبرى والبترول وصناعة اسلحة الحرب والتجسس والديبلوماسية جميعها تتضافر وتتعاون على دعم الاستعمار اينما كان وعلى بسط سلطانه ومد نفوذه . حتى أصبحت سياسة الشركات الاحتكارية الكبرى للبترول في البلدان الرأسمالية تتماشى وتندمج مع سياسة حكوماتها للاستيلاء على الاحواض الرئيسية لهذه المادة الثمينة .

إن هذا الارتباط الوثيق بين الاحتكارات البترولية الكبرى والسياسة

ظهر بوضوح في سياستي الولايات المتحدة وبريطانيا منذ مطلع القرن العشرين وبلغ أوجه خلال الحرب العالمية الثانية ولم يزل يشتد وينمو حتى اليوم . حتى اننا لنستطيع القول إن سياسة الولايات المتحدة وانكلترة في الشرق الاوسط إنما هي تعبير واضح لسياسة الستاندارد أويل والرويال – دودتش – شل وفروعها المتعددة .

في انكلترة: ان الدافع الاول لهذه السياسة كان الاميرال فيشر Fisher الانكليزي الذي شعر بأهمية البترول بالنسبة لمستقبل الاسطول البريطاني الحربي والتجاري وكانت غاية هذه السياسة وضع اليد على أحواض النفط لتأمين تموين الاسطول بالبترول كما كانت الحال في زمن الفحم . فكانت النتيجة ان تحولت الشل الى شركة بترول تستغل أحواض بورنيئو ثم اتحدت عام ١٩٠٣ مع الشركة الهولندية رويال –دوتش التي كانت تستغل أحواض جاوا وسومطره . ودعمت الحكومة البريطانية هذه الشركة في جميع المجالات : دعمتها في المكسيك حيث استطاعت أن تحتكر جميع أحواض البترول المكسيكية حتى عام ١٩٣٦ ودعمتها في فنزويلا وبلاد الشرق الاقصى (برمانيا) كذلك مدت الحكومة الانكليزية يد المساعدة لهذه الشركة ودعمتها دبلوماسياً في مجالات متعددة في أوروبا وامريكا نفسها. دعمتها في رومانيا حتى عام ١٩٤٠ ، وفي فرنسا حيث استطاعت بريطانيا عام ١٩٢٣ أن تنتزع وعداً من فرنسا باعطاء الشركة امتيازات لاستغلال البترول في المستعمرات الفرنسية ، كما نالت الشركة عملياً عام ١٩٥٠ امتيازات هامة في افريقية الشمالية (لاسيما في القسم الجنوبي من تونس) وفي المناطق التي يظن أنها تحتوي على البترول وذلك من غير مراعاة للمصلحة القومية الفرنسية . ولم تعمد بريطانيا لمساعدة سورية للخلاص من فرنسا إلا لتترك للشركة المجال الواسع لوضع يدها على بترول العراق بكامله .

هذا وقد بدأت تترسم سياسة الاستعمار البترولية البريطانية بصفة رسمية

عندما تأسست الشركة الانكليزية ـ الايرانية عام ١٩٠٩ وذلك باندماج شركة بورما للزيت وشركة الانكلو ـ بوسيان (الانكليزية ـ الفارسية) التي كانت الحكومة البريطانية تمتلك بعض اسهمها وكونتا شركة واحدة سميت الشركة الانكليزية ـ الايرانية ، للحكومة البريطانية ٥٦ ٪ من الاسهم . مهمة هذه الشركة احتكار استغلال البترول في الشرق الاوسط . ولذا كانت الحكومة الانكليزية تضغط على ايران لمنعها من منح امتيازات لدول أخرى للتحري أو لاستغلال البترول في قسمها الشمالي (صراع عنيف ضد ألمانيا حتى ١٩٣٩ . ثم ضد الاتحاد السوفييتي الذي اقترح على ايران عقد معاهدة يتقاسمان بموجبها مناصفة بترول آذربايجان الايرانية) . وحفاظاً على هذه المصالح البترولية الانكليزية فقد قضي مرات عديدة بالحديد والنار على الحركات الكردية الأزربايجانية التي قامت في ايران . كل ذلك من أجل (٢،٥) مليون جنيه سنوياً كانت تدفعها الشركة للحكومة الايرانية . (قبل ثورة مصدق) .

هذا وقد نالت الشركة الانكليزية ـ الايرانية بالاضافة الى امتيازاتها في فرنسا وافريقية الشرقية وسيلان امتيازات هامة في البلاد العربية : في العراق (الشركة العراقية ، شركة نفط الموصل ، شركة نفط البصرة) والكويت ٥٠ ٪ وفي قطر وعُمان وظفار وعسير والحجاز وسورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر ، حتى أن الشركة الانكليزية ـ الايرانية التي تملك الحكومة البريطانية كما قدمنا ، ٥٦ ٪ من أسهمها أصبحت تسيطر على ٢٤،٧٢٥ ٪ من مجموع البترول العربي و ٦،٦٧٥ ٪ تسيطر عليه شركة رويال دوتش ـ شل الانكليزية أيضاً وبذا تصبح حصة الشركات الانكليزية في البترول العربي حوالي ٣١،٤ ٪ .

وهكذا نرى أن السياسة الانكليزية إنما هي سياسة احتكار لمنابع البترول العالمية وسياسة تفاهم وتحالف مع شركات البترول الكبرى . وبذا تمكنت انكلترة من حيازة عدة أحواض بترولية خارج امبراطوريتها كما استطاعت

أن تؤمن حاجاتها وحاجات الدومينيون وتبيع كميات فائضة كبيرة لمعظم دول العالم . ويعتبر امتلاك بريطانيا لمنابع النفط من أقوى روابط التضامن الامبراطوري والانكليزي .

في الولايات المتحدة : أما الولايات المتحدة فقد حزت في سياستها البترولية حزو انكلترة ولكن بتأخر (٣٠) سنة . رغم ذلك فقد سجلت عدة نجاحات في في هذا المضمار بسبب الحربين العالميتين .

– **قبل ١٩١٤** كانت الولايات المتحدة دولة مصدرة للبترول (تصدر ١٣٪ من انتاجها عام ١٩١٣) ولذا لم تكن تخاف نفاذ البترول من أراضيها ، انما كانت منهمكة بنضالها ضد شركة الستاندارداويل (جماعة روكفلر) لتمنع احتكارها للسوق الداخلية للولايات المتحدة (دعاوى متعددة على شركة الستاندارداويل مستندة على القانون الصادر ضد الشركات الاحتكارية الكبرى) كذلك ساعدت الحكومة الاميركية شركة شل الانكليزية على دخول الولايات المتحدة ومنافسة الستاندارد أويل في عقر دارها .

– **في فترة ما بين الحربين** بدأت سياستها في التحول ، فصادراتها البترولية أخذت تهبط منذ عام ١٩٢٠ وأصبحت تخشى نقصان البترول في أراضيها كما بدأت تطمع في الاستيلاء على بعض الاحواض الخارجية . فاختصت نفسها بجزء من بترول العراق (حصة المانيا) وسعت لجعل الاتحاد السوفيتي يتخلى عن احواض جزيرة سخالين .

وعندما بدأ روزفلت بتطبيق سياسته الجديدة المسماة Le Neu deal عمد صراحة الى اتباع سياسة بترولية استعمارية .

ففي داخل الولايات المتحدة أراد الابقاء على الذخر الموجود أطول مدة

ممكنة فاتخذ اجراءات ضد التبذير واعتبر احواض البترول البيتومي في المناطق الغربية عبارة عن مستودعات طبيعيه لحين الضرورة .

اما في السياسة الخارجية فقد دعم شركات البترول الكبرى في توسعها؛ فهو الذي اعطاها امتيازاتها في البحرين وفنزويلا وفي المملكة العربية السعودية وفي مصر . كما دعم سياسة هذه الشركات في المكسيك ، وبذا أصبح للولايات المتحدة سياسة بترولية عالمية عملت الحرب العالمية الثانيه على توسيعها بسبب الحاجات العسكرية ومنحها أقوى الوسائل .

– **وفي اثناء الحرب العالمية الثانية** استفادت الولايات المتحدة من الظروف الطارئة فانشأت مؤسسة خزن البترول Petrolum Reserve Corporation وهي انموذج لمؤسسات الدول الرأسمالية . قامت هذه المؤسسة على اشتراك رؤوس الاموال الخاصة (شركات البترول) **مع رأس مال حكومي** . وتدار عملياً من قبل الشركات الاحتكارية للبترول التي تستخدم بهذه الوسيلة سلطه الدولة بكاملها . وكانت غاية المؤسسة :

١ – الحصول على البترول من خارج أراضي الولايات المتحدة ثم جمعه وبيعه .
٢ – تمثيل المصالح الاميركية في المنافسات الدولية من أجل البترول .
وقد نظمت هذه المؤسسة بالاتفاق بين الشركات الاحتكارية المشتركة برأس المال وبين **الحكومة الاميركية التي لها رآسة المؤسسة وثلاثة أعضاء في مجلس ادارتها ينتقون من الوزراء** .

– فالسياسة الاميركية إذن هي أيضاً سياسة تحالف مع الشركات الاحتكارية للبترول . وقد أخذت دعايات هذه المؤسسة تنادي بقرب نضوب أحواض البترول الاميركية (خلافاً لرأي الفنيين) لتجعل من ذلك ذريعة لبسط سيطرتها الاستعمارية حتى على البلدان التي ينقصها البترول كفرنسا مثلا (استفادت

الشركات الاميركية الكبرى من مشروع مارشال فحصلت على امتياز لاحتكار التحري عن البترول واستغلاله في جزء كبير من افريقيا الشمالية كما حصلت على امتياز استغلال البترول ايضاً في قسم كبير من حوض اكيتانيا الغربية حيث اجرى الفنيون الفرنسيون تحريات مشجعة .

وهكذا عملت الولايات المتحدة على الاقامة في كل مكان تستطيع دخوله، فاستفادت مثلاً من الضائقة التي وقعت فيها انكلترة بسبب الحرب فاشترت في الولايات المتحدة نفسها قبل قانون الاعارة والتأجير معظم المصالح الانكليزية . كذلك استفادت في فنزويلا من عجز الانكليز (بسبب الحرب) عن القيام بما توجبه القوانين المحلية الجديدة . وفي المملكة العربية السعودية استحصلت على معظم الاحواض التي خبرتها البعثات الاميركية وتنازلت عنها انكلترة . وضمت في العراق بالاضافة الى حصتها ، ٢٣،٧٥ ٪ ، جزءاً من حصة انكلترة بفضل قانون الاعارة والتأجير ، كما اتفقت مع الانكليز على حرمان فرنسا من الاشتراك في توسيع استغلال البترول العراقي وهذا رغماً عن الحقوق الدولية . كذلك حصلت في ايران (بعد ثورة مصدق) على بعض الامتيازات .

نرى مما تقدم ان الولايات المتحدة قلبت الوضع السابق رأساً على عقب كما انقلبت سياسة انكلترة البترولية وبالاً عليها واصبحت الولايات المتحدة تسيطر الآن على ٦٢،٤٢٥ ٪ من البترول العربي . بينما لم يبق لفرنسا سوى حصة صغيرة تساوي ٦،١٧٥ ٪ فقط .

ـ أما بقية الدول الفقيرة برؤوس اموالها كايطاليا واليابان أو التي تأخرت عن الركب كفرنسا والمانيا فقد عمدت اما الى سياسة الضمان والتأمين (استغلال الاحواض التي تقع تحت سيطرتها وتجهيز صناعة استخراج البترول التركيبي وبناء المصافي وموانىء التخزين) وإما الى اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي وذلك حتى لاتقع تحت رحمة شركات البترول الانكليزية والاميركية .

ردة الفعل لسياسة الاحتكار الانكلوساكسونية في البلدان المنتجة للبترول

ادى هذا الاستغلال البشع المخرب ، من قبل الاحتكارات العالمية الكبرى لاحواض البترول في البلدان المنتجة الى قيام ردة فعل قوية على اساس من القومية والاشتراكية .

١ – فالاتحاد السوفيتي هو الذي بدأ بتطبيق النظام الاشتراكي على مشاريع استغلال البترول بعد ان ابطل جميع امتيازات الشركات الاجنبية داخل بلاده وكانت في معظمها شركات انكليزية وتقوم سياسة الاتحاد السوفيتي البترولية اليوم على الاسس التالية :

أ – استغلال الثروات القومية للاتحاد في نطاق برامج السنوات الخمس . وذلك بالاكثار من مناطق الاستغلال وبتوسيع نطاق التحري الى أقصى ما يمكن .

ب – باستيراد ضئيل للبترول من رومانيا التي تدفع من انتاجها للبترول ثمن أدوات واوائل الاستخراج الحديثة التي قدمها لها الاتحاد السوفيتي .

وقد بقي الاتحاد السوفيتي بسبب اقتصاده الاشتراكي خارج دائرة النزاع العالمي على البترول .

٢ – هذا وقد أدى الغاء المصالح الرأسمالية في بلدان **الديموقراطيات الشعبية** الى طرح مشكلة استيراد هذه الدول للادوات والآلات الضرورية لصناعة البترول والتي لا تستطيع صنعها بنفسها . وحلت هذه المشكلة بانشاء شركات مختلطة يشترك فيها الاتحاد السوفيتي بنسبة النصف ، وبشكل يجعل ادارة الشركة قائمة على التفاهم لا على التبعية . على ان هذه الشركات (وهذا هو المهم في الامر)

تابعة لادارة برامج الخمس سنوات للبلد التي هي فيـه وتعمل لصالح البلد نفسه لا لصالح دولة استعمارية بعيدة كما هي حال الشركات التابعة للاحتكارات العالمية .

٣ ــ لقد اتبعت **المكسيك** سياسة مماثلة بسبب النزاع الذي تفاقم بينها وبين الشركات الاحتكارية العالمية ، غير ان هذه السياسه أحبطت بسبب المؤامرات الاميركية واستسلام الحكومة المكسيكية التي لم تدعمها دولة صناعية كبرى فخضعت ثانية لادارة الشركات الاحتكارية .

٤ ــ اما **فنزويلا** فلقد اتبعت سياسة فيها كثير من الليونة والمسايرة للاستعمار غير انها ضمنت فوائد عاجلة منذ عام ١٩٤٣ وذلك :

أ ــ بفرض رسوم على اصدار البترول وضرائب متعددة على انتاجه .

ب ــ بالعمل والسعي على مكافحة التبذير ، اذ لم تمنح الامتيازات الجديدة إلا بشروط قاسية وكثيرة التكاليف كضرورة الاستغلال ضمن مدة معينة مع واجب التوسع السريع بما يضمن لفنزويلا دخلا كبيراً متزايداً .

ج ــ واخيراً باجبار الشركات المستغلة على تصفية البترول ضمن اراضي فنزويلا .

٥ ــ اما **منطقة الشرق الاوسط** لاسيما البلدان العربية التي تعاني في الحاضر ازمات شتى مرد اكثرها الى العامل الاقتصادي ، فقد اخذت حكوماتها تطالب في السنوات الاخيرة الشركات صاحبـة الامتياز باعادة النظر في الاتفاقيات المتعلقة بتقسيم الارباح بغية تخصيص قسم هام للانماء الاقتصادي . وكانت المملكة العربية السعودية في طليعة البلاد التي توصلت الى عقـــد اتفاقية التقسيم النصفي للارباح « كانون الاول ١٩٥٠ » ثم تلتها بقية الاقطار العربية .

واخيراً عندما زال الخلاف الانكليزي ــ الايراني اثر بيان ٥ آب عام ١٩٥٤ حصلت ايران على اتفاقية التقسيم النصفي للارباح أيضاً .

٤ — التضخم الهائل في رأس مال شركات البترول الاحتكارية :

من المضاعفات الهامة التي نشأت عن احتكار البترول العالمي من قبل عدد ضئيل من الشركات الاميركية والانكليزية، احتكار يمتد من مرحلة الاستخراج الى مراحل النقل والتكرير والتوزيع وفرض الاسعار، ان نما رأس مال هذه الشركات نمواً هائلاً مخيفاً لاسيما في فترة مابين الحربين وغب الحرب العالمية الثانية، ولنضرب على ذلك مثلا شركة ستاندارد أويل التابعة لاسرة روكفلر. لقد كان الدخل السنوي لهذه الشركة عام ١٨٩٠ لايتجاوز «١٠» ملايين دولار وكانت اعمالها محدودة ضمن اراضي الولايات المتحدة وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية الاولى حيث ارتفع الدخل السنوي لهذه الشركة عام ١٩١٧ الى «١٠٠٠» مليون دولار. وقدرت الارباح الصافية لروكفلر خلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٧ بـ «٥٠٠» مليون دولار.

ثم اخذت الشركة بعد الحرب تتطلع الى مد نفوذها خارج الولايات المتحدة وتوظيف الفائض من رأس المال في حقول البترول في اميركا اللاتينية وبلاد الشرق الاوسط وذلك بالرغم من معارضة بريطانيا واحياناً كثيرة على حساب مصالحها الحيوية. كما عمدت الشركة الى فتح مراكز واسواق لبيع البترول في جميع انحاء العالم.

ثم اصبح استهلاك البترول أثناء الحرب العالمية الثانية شيئاً اساسيا في الحرب وفي الصناعات الكيماوية للانتاج الحربي. فازدادت الارباح حتى بلغت في الفترة بين ١٩٤٠ — ١٩٤٥ مايقرب من «٢» مليار دولار. وغدت شركة الستاندارد اويل التابعة لروكفلر، والتي لم تكن تمتلك غب الحرب العالمية الاولى شيئاً من الامتيازات البترولية في البلدان الاجنبية، غدت تحتكر مع

حلفائها مايقرب من ٤٠٪ استخراج البترول في العالم الراسمالي . اذ بلغت حصتها في أحواض فنزويلا ٦٧،٨٪ وفي احواض الشرق الاوسط ٥٥،٨٪ .

وهكذا فقداصبحت شركات البترول الاميركية الدعامة الاساسية للاستعمار الاميركي . حتى ان توظيف رؤوس الاموال الاميركية في البلدان الاجنبية كان بنسبة ٣٠٪ في الصناعة البترولية . فالارباح الطائلة التي تجنيها شركة ستاندارد اويل اوف نيوجرسي التي تعتبر المؤسسة الرئيسية لروكفلر تأتي بنسبة ٣٠٪ من الخارج . فشركة البترول العربية ـــ الاميركية Aramco مثلا التي تعمل في المملكة العربية السعودية والتابعة لجماعة روكفلر بلغت ارباحها لوحدها عام ١٩٥٥ « ٥٨٠ » مليون دولار .

ان يمكن توظيف هذا الشلال من الدولارات الآتية من ارباح البترول؟

لقد كانت الاحتكارات البترولية الكبرى في اميركا ادرى الناس بان الولايات المتحدة مقبلة لامحالة بعد الحرب العالمية الثانية على ازمه اقتصادية خانقة « فيض في الانتاج » . فلكي تنقذ نفسها من مثل هذه الازمة عمدت الى توظيف الفائض من رؤوس أموالها في صناعة لا تكسد اسواقها في الدول الرأسمالية هي صناعة الاسلحة الحربية ولا سيما صناعة السلاح الذري التي تدر اموالاً طائلة بالنسبة لرأس المال الموظف فيها .

وهكذا لم تكد الحرب العالمية الثانية تقارب نهايتها حتى نرى مؤسسة روكفلر وبنوك (مورغان) و (دوبون) وبعض الاحتكارات الاميركية الكبرى تضع يدها على هذه الصناعة الجديدة التي بدأت تنمو خلسة في الولايات المتحدة .

لقد اخذت شركات البترول الاميركية منذ ذلك الوقت بتوجيه اهتمامها نحو السياسة الخارجية للولايات المتحدة وقد استطاعت فعلا تسيير هذه السياسة

حسب مصالح الاحتكارات البترولية تماماً وتمكنت من تنصيب رجالها في المراكز الحساسة في وزارتي الخارجية والدفاع . حتى ان معظم الخبراء الذين الناطقين باسم حكومة الولايات المتحدة لم يكونوا في الحقيقة سوى عملاء لشركات البترول يعملون لحسابها ولاسيما لحساب شركة الستاندارد اويل أوف نيوجرسي التابعة لروكفلر ، والتي كان لها حصة الاسد في هذه الصناعة .

فوزير الخارجية نفسه **جون فوستر دلاس** كان يشغل منصب رئيس مجلس ادارة مؤسسة روكفلر ، وأخوه **آلن دلاس** الذي يقوم حالياً على رأس مصلحة الاستخبارات السرية للولايات المتحدة كان محامي مؤسسات روكفلر . كما أن **الاميرال رادفورد** الرئيس السابق لرؤساء اركان الجيش الاميركي هو الصديق الصدوق لروكفلر . ثم **نلسون روكفلر** الاخ الثاني لاسرة روكفلر أصبح الآن ملحقاً خاصاً ومستشاراً للرئيس ايزنهور نفسه .

هذا ويمكن ان نعدد اسماء كثيرة من موظفي شركة الستاندارد أويل ممن تسلمو اعلا المناصب الحساسة في السياسة والدفاع في الولايات المتحدة. **فأوجه مورفري** E ger Murphree رئيس لجنة التهييج لصنع القنبلة الذرية والمساعد الخاص في وزارة الدفاع الاميركية كان مديراً لشركة الستاندارد أويل . ثم إن **شستر برنار** مستشار وزارة الخارجية لشؤون القنبلة الذرية كان رئيساً لمؤسسة روكفلر . كما أن **لويس ستراوس** Lowis strauss الذي كان حتى مدة أشهر تقريباً رئيس لجنة الطاقة الذرية للولايات المتحدة كان يشغل منصب المستشار المالي للاخوان روكفلر . **وماريون بوايه** Marion Boyer المدير العام السابق للجنة الطاقة الذرية كان مديراً لشركة الستاندارد اويل اف نيوجرسي .

واخيراً وليس آخراً **روبير لوبارون** Robert Le Baron رئيس اللجنة العسكرية وضابط التنسيق للشؤون الذرية هو عضو في ادارة الستاندارد اويل أوف كاليفورنيا .

إني ابغي من تعداد هذه الاسماء بيان العلاقة الكبرى بين سياسة الولايات المتحدة التي جمعت اساطيلها امام الموانيء اللبنانية وانزلت جنودها يوم ١٥ تموز ١٩٥٨ وبين مصالح شركات البترول الاميركية . لقد خاطر هؤلاء الاشخاص الذين يمثلون أقطاب السياسة الاميركية بزج الولايات المتحدة والعالم باسره في حرب مدمرة لايعلم احد مداها في سبيل الحفاظ على مصالح شركات البترول الاميركية . حتى ان بعض الصحف الاميركية نفسها قالت : **ان التدخل في الشرق الادنى لم يكن** مدفوعاً إلا من جماعةروكفلر التي وظفت في هذهالمنطقة مبلغ مليار ونصف من الدولارات في حقول البترول وانابيب الزيت والتي تأمل ان تجني في السنوات القريبة أضعاف هذا المبلغ .

إن نفس الدوافع التي حملت الولايات المتحدة على انزال جنودها في لبنان متحدية في ذلك كل منطق والرأي العام العالمي هي نفسها التي حملت انكلترة ايضاً على انزال جنودها في الاردن . اذ لم تكدتعلن ثورة العراق حتى تضافرت اربع قوى في بريطانيا ، لها جميعها علاقة ماسة بالبترول العربي او بكلمة اوضح بشركة البترول العراقية التي كانت تحكم العراق حتى ١٤ تموز ١٩٥٨ .

اولى هذه القوى هي الاحتكارات البترولية الانكليزية ممثلة بالشل وبالشركة البريطانية للبترول والتي كانت تسمى بشركة الزيت الانكليزية ، غايتها الابقاء على احواض البترول في العراق ضمن دائرة نفوذها . ويقوم على رأس الشل أصحاب البنوك امثال **صاموئيل دروتشيلد** ومجموعة **البنوك الهولندية** وفرع بنك **مورغان** الاميركي في لندن . إن هؤلاء هم نواة « السيتي City في لندن ، ومن المعلوم ايضاً كما قدمنا سابقاً **ان الحكومة البريطانية هي** احدى اصحاب الشركة الانكليزية للبترول وشريكة شركة البترول العراقية .

— **تتمثل القوة الثانية بالمدرسة العسكرية الاستعمارية في انكلترة** التي

لم يزل فيها رمق من حياة والتي لا تستطيع أن تتصور مستقبل بريطانيا بعيداً عن طريقة النهب الاستعمارية . ومنذ أن اشترت الامبرالية البريطانية (قبل الحرب العالمية الاولى) بايعاذ من تشرشل جزءاً من أسهم الشركة الانكليزية-الايرانية للزيت ، دخلت الاوساط العسكرية الرجعية في نطاق سياسة الاحتكارات البترولية . ولعدد كبير من كبار الضباط علاقة وثيقة بهذه الشركات . فرئيس مجلس ادارة شركة البترول العراقية هو في الوقت الحاضر الاميرال **كونينغهام** الرئيس السابق لهيئة الاركان البحرية وقائد الاسطول البريطاني في البحر الابيض المتوسط ويقوم على ادارة الشركة نفسها الفيلد مارشال اللورد **آلن بروك** الرئيس السابق للهيئة العامة للاركان البريطانية كما يقوم على رأس شركة الشل ماريشال القوى الجوية سابقاً **جون سالمون** .

يمثل هؤلاء الضباط العسكرية البريطانية التي نشأت ودرجت على مدرسة الاستعمار وفق خطة وآراء كبار المستعمرين البريطانيين أمثال كيبلنغ وكورزون وكيتشنر . هذا وتؤلف هذه الاوساط العسكرية اليوم بالاضافة الى الناحية العقائدية التي لا يمكنها أن تتصور انكلتره من غير امبراطورية استعمارية في آسيا وأفريقيا ، أقول بالاضافة الى هذه الناحية العقائدية فانها تؤلف طبقة لها مصالحها الآنية في استغلال البترول العربي .

أما القوة الثالثة التي دفعت انكلتره على الاعتداء على البلاد العربية مرتين في هذه الفترة القريبة فتتمثل بمدرسة لورانس الاستعمارية أي جماعة « الانتليجانس سرفيس » الذين لهم أثرهم الكبير على الاوساط العسكرية والاستعمارية في انكلتره كما ترتبط هذه القوة الثالثة بعلاقة وثيقة مع شركات البترول في الشرق الاوسط وبصورة خاصة مع شركة البترول العراقية .

وقد مثل هذه القوة قديماً الكولونيل لورانس المشهور وتبعه بعده كثيرون

كانوا دائماً الساعد الايمن للاسرة الهاشمية ومنهم من حكم العراق فعلا مدة طويلة تحت ستار المستشارية أو كانوا مدراء لشركات أو مصارف ترتبط كلها ارتباطاً وثيقاً بشركة البترول العراقية .

كان جميع هؤلاء وأتباعهم يتقاضون رواتب ضخمة من شركة الشل وشركة البترول الانكليزية . وبجهودهم تمكنت الاسرة الهاشمية من الحصول على حصة من أرباح شركة البترول العراقية وأصبح الامير زيد ابن الحسين ، سفير العراق السابق في لندن ، أحد مدراء هذه الشركة ،

كما أن ممثل شركة البترول العراقية في بغداد السير هربرت Herbert. j.todd كان يمول حتى يوم ١٣ تموز جميع حاشية البلاط الملكي من الوزراء حتى صغار رجال الحرس . ولم تكن الوزارة العراقية (وزارة نوري السعيد) لتستطيع اتخاذ أي قرار هام قبل موافقته المسبقة .

وربما يكون من الفائدة ان نشير الى ان **موريس ما كميلان** ابن رئيس وزراء حكومة صاحبة الجلالة ، يشغل اليوم رآسة وكالة استعمارية في لندن تدعى وكالة الصحافة العربية . كما أن عم موريس ما كميلان هذا هو **اللورد هارلك** Harlech من زعماء حزب المحافظين ، شغل وظيفة وزير المستعمرات وهو من أصحاب البنوك الكبيرة التي لها علاقتها بالمستعمرات وبالشرق الاوسط .

هؤلاء هم بعض الفئات من الانكليز الذين تقوم سياستهم ومستقبلهم على نهب ثروات الشرق الاوسط . وقد قامت الشركات الاحتكارية الانكليزية وشركاؤها ليؤلفوا جبهة واحدة ، عند اندلاع الثورة العراقية المباركة ، ليدفعوا بانكلترة الى الاعتداء على البلاد العربية وليعيدوا الاحتلال البريطاني الى الاردن وليسحقوا الثورة العراقية ويعودوا مجدداً الى البلاد العربية .

اما القوة الرابعة في التأثير على قرار الحكومة البريطانية فهي **سفارة الولايات** المتحدة في لندن التي تمثل بحق وجهة نظر الستاندارد أويل ومصالحها بالدرجة الاولى . وهذا أمر معروف في لندن من قبل جميع الطبقات السياسية . اذ كان يشغل هذا المنصب بين عام ١٩٤٧ - ١٩٥٠ **لويس دوغلاس** Lewis Douglas أحد اعضاء مجلس الوصاية في مؤسسة روكفلر . ثم حل محله عام ١٩٥٣ **وينتروب الدريش** Winthrop Aldrich عم روكفلر والرئيس السابق لبنك روكفلر . ثم حل محله ايضاً في سفارة الولايات المتحدة في لندن **جون هاي ويتني** J. Hay Whitney ابن اكبر مساهم في شركة الستاندارد أويل .

نحن الآن على ما اعتقد ، على مثل اليقين ، ان السياسة المطبقة في بلاد الشرق الاوسط بصورة عامة وفي البلاد العربية بصورة خاصة إنما هي سياسة الاحتكارات البترولية . ولنتساءل الآن ماهي أهداف هذه السياسة وماهي خطوط مسلكها الكبرى ؟؟

٥ — اهداف السياسة الاستعمارية في العالم العربي والشرق الاوسط ووسائل تنفيذها

من المعلوم أن النفوذ الاجنبي بدأ يتغلغل في هيكل الامبراطورية العثمانية المشرفة على الانحلال منذ أواخر القرن التاسع عشر . وأدى هذا النفوذ الى تقوية تيار التبادل التجاري بين الغرب وبلاد هذه المنطقة . وفتحت اسواقها كميدان لاستثمار رؤوس أموال الدول الاجنبية . وما ان ظهرت فيها المواد الاولية حتى تولد النزاع بين دول الغرب ولكن مادة اكثر من غيرها لفتت انتباههم هي البترول ، وكان التقدم الآلي في الغرب اخذ يشعر بالحاجة الى استعماله . وتقدم العلماء والفنيون الى دولهم بتقارير عن الارباح الكبيرة التي يمكن جنيها من توظيف الأموال في استخراج البترول ، وكانت الحاجة ملحة

وكان المال متوفراً ، وكانت المنطقة رهن تصرفهم ماداموا يتمتعون بالنفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية ، وعمل اكتشاف البترول على زيادة نفوذهم ودعاهم للتدخل بالشؤون الداخلية للبلاد فضلا عما فرضوه عليها غب الحرب العالمية من تجزءة جغرافية لادخل للمنطق السليم فيها . وصار هدفهم الاستعمار بدلا من الاستثمار وبمعنى أوضح النهب بدلا من المبادلة العادلة .

وكان هدفهم الثاني تثبيت الاوضاع التي اوجدوها في تجزئة البلادالعربية وجعلها حقيقة علمية يؤمن بها السكان أنفسهم فأوجدوا قوميات متعددة وعملوا على دعمها بواسطة الطائفية البغيضة واثارة النعرات الدينية والمذهبية . كما سعوا في اضعاف اللغة العربية وتنمية لغات الاقليات كل ذلك لتفتيت أوصال الامة وكل مقومات حياتها فنادوا بالفرعونية في مصر وبالبربرية في المغرب وبالقومية السورية في سورية ولبنان وبالجركسية والاشورية والكلدانية والفينيقية الخ ...

هدفوا كذلك الى اقناعنا بأن بلادنا زراعية وعليها ان تبقى كذلكمدى الدهر لان اراضينا على زعمهم خالية من جميع مقومات الصناعة فليس فيها فحم ولاثروات معدنية كافية للتصنيع . ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على معاكسة كل حركة ترمي الى اقامة صناعة في البلاد مهما قل شأنها وهزل قدرها وذلك للحد من استهلاك البترول لانهم في الحقيقة ينتجونه وفقاً لاذواق وحاجات ومصالح المستهلكين في أوروبا وأمريكا لا وفقاً لمصالح البلد المنتج للبترول . فلا يريدون ان يكثر الطلب هنا ، بل هناك لان ازدياده هناك يعني ازدياد القوة المالية والانتاجية التي سيخضع الشرق الاوسط لها كل الخضوع . وجملة القول ان الدول الكبيرة انما تستثمر اموالها لمنفعتها الخاصة ولا يهمها ان يستفيد البلد الذي تستثمر فيه الاموال . بل هي تفعل اكثر من هذا ، تمعن في جعله يقوم باقتصادياته على منتوج وحيد ليظل متعلقاً بها دوماً . ولنا في ايران

اعظم مثال على ذلك : ان ٨٧,٥٪ من الصادرات الايرانية تتألف من البترول كما تقوم ميزانية الدولة على واردات البترول . ويكفي ان ينقص الشعب البريطاني من طلبه للبترول الايراني حتى ينخفض معدل الانتاج وبالتالي تنخفض العائدات . أو قد تعمد الحكومة البريطانية نفسها الى التوقف عن الدفع ولو لمدة من الزمن ، حتى تنهار الميزانية الايرانية وينهار تبعاً لذلك الاقتصاد الايراني مادام هذا الاقتصاد لايقوم الا على مادة البترول . وبما أن الدول الغربية المستعمرة تمنع كل نزعة نحو التصنيع وبما أن الانتاج الزراعي يظل ضعيفاً مهما قوي ، فلا مجال لمناقشة سيادة الرأسمالية الدخيلة التي هي صناعة البترول .

كذلك عملوا ويعملون حتى اليوم على **اقناعنا بفكرة ربط انتاج النفط في** الشرق الاوسط **باوروبا** كأنها العميل الوحيد لشرائه واستهلاكه . ويهددوننا بان اوروبا اذا ما اعرضت عن شراء النفط العربي ، سينهار اقتصاد البلدان العربية جملة ، وانها ستتجه عند ذلك الى استنباطه من اراضيها او من افريقيا او انها ستعمد الى استيراده من امريكا ، وانها ستضاعف جهودها عندئذ لاستبدال البترول باستخدام الذرة .

كلام كله هراء بهراء . لقد أبانت الحوادث الاخيرة أن أوروبا الغربية بحاجة الى بترول الشرق الاوسط ولا يمكنها بدونه أن تستمر بالحفاظ على كيانها وعلى مستوى حياة شعوبها . غير أن بترول الشرق الاوسط سيجد أمامه اذا ما اعرضت اوروبا عن شرائه أسواق العالم باسره لتصريفه . والاتحاد السوفييتي نفسه إذا ما أراد الآن رفع مستواه الداخلي وفتح أبواب التصدير اضطر لاستيراد كميات هائلة من نفط الشرق الاوسط بالاضافة الى انتاجه من هذه المادة .

أما الاراضي الاوروبية ففقيرة بالنفط وقد جرى تحريها كاملة . أما قضية

استنباطه من افريقيا فهـذا أمر فيه كثير من التفاؤل لان الشعوب الافريقية اليوم غيرها في القرون الماضية وهي كبقية شعوب العالم على وشك الخلاص من الاستعمار إن عاجلا أو آجلا . هذا ولا يخفى على أحد أن استيراد البترول من أمريكا يستلزم أولا دفع ثمن هذا البترول بالدولار وهذا شيء نادر في أوروبا او ان تسير سياسة اوروبا الغربية في ركاب السياسة الاميركية .

لم يبق من وسائل التهديد سوى استخدام الطاقة الذرية عوضاً عن البترول وهذا سيحصل حتما حتى ولو بقيت احواض البترول في الشرق الاوسط بكاملها تحت تصرف دول اوروبا الغربية .

لقد ادرك الغرب وعلى رأسه بريطانيا ان جميع هذه المحاولات لن تجدي نفعاً وشعر ان العرب على ابواب نهضة توشك أن تجمعهم صفاً وتوحدهم غاية ، ثم قدر ماوراء ذلك من شر يصيبه حين يؤدي ذلك الى ضياع مايستغل من ثروات ، فدبر امره ليوقف هذه النهضة ويصدع هذه الوحدة فرمانا بهذا السرطان الصهيوني « دولة اسرائيل » ليشغلنا عن امورنا وتهيئة اسباب نهضتنا. ذلك هو السر المختبيء وراء تلك المساعدات المتصلة التي قدمتها بريطانيا ظاهرة ومستورة الى اليهود في كفاحهم لانشاء دولة تؤويهم في فلسطين ،فحققت بذلك لنفسها ما أرادت ، حين زعمت أنها بانشاء تلك الدولة قد شطرت البلاد العربية شطرين ، شطراً في المشرق وشطراً في المغـرب تفصل بينهما دولة اسرائيل . ولم تبدأ المعونة الاميركية الى اسرائيل بشكلها العاجل الواسع إلا منـذ أن بدأت الاحتـكارات الاميركية بوضع يـدها على امتيازات استغلال البترول في البلاد العربية حيث اخذت امريكا عند ذلك تبذل الجهد مسرفة في معونة اسرائيل بالمال والعتاد والضغط السياسي ووسائل أخرى ، ولم تزل الاموال الاميركية والاسلحة الاميركية تتدفق على موانيء اسرائيل لتتمكن وتقوى وتستكمل اسباب الغلبة ، ولتكون قلعة للاستعمار في وسط الامة العربية ليمد

منها مده، ويبسط نفوذه، ويدس دسائسه وينفث سمومه الى كل ما حواليها من بلاد العرب . وقد كشفت معركة القناة النقاب عن وجه اسرائيل وظهر ان وجودها في هذه البقعة من ارضنا لم يكن توطيناً لشعب ولكنه تحصين لعدو .

وادرك الاستعمار ايضاً ان وجود اسرائيل كخطر يهدد بلاد العرب من الخارج لا يكفي لوقف حركة التحرر والوحدة فأراد تهديم هذه النهضة من من الداخل فعمد كما اشرنا سابقاً الى شراء ضمائر طبقة القائمين على الحكم من ملوك ورؤساء ودعم الاقطاعية الطاغية وعمل على ايقاع الخلاف بين الدول العربية نفسها. ثم اتجه الى الشعوب فعمل على إفساد الاخلاق وانحلالها وتسميم الافكار بواسطة المجلات والدعاية والافلام والمكاتب الثقافية التي افتتحها وبالنشرات التي يوزعها . ثم عندما لا ينفع كل ذلك كان الاستعمار يعمد الى التآمر للخلاص من الحكومات التي لا تخضع لارادته واوامره ، واذا استعصى عليه ذلك عمد الى الغدر والخيانة والارهاب . وكم من شهيد سقط بيد الاستعمار المجرمة القذرة لانه ابى ان يحني الرأس ذلا وخنوعا .

هذه ياسادة قصة الاستعمار في بلاد العرب وفي بلاد الشرق الاوسط بكامله تفوح من جوانبها ومن كل سطر من سطورها رائحة البترول . «هذا البترول ، كما يقول صديقي محمد سعيد العريان في كتيبه «اهداف المعركة» ، الذي ينبع من ارضنا وارض جيراننا هو قوة من قوانا نستطيع اذا اردنا ان يكون لنا دفءاً وحرارة ، ونستطيع اذا غفلنا ان يكون في ايدي عدونا وقوداً للطائرات تدمر ارضنا ولدبابات تمر على اجسادنا او اجساد اخوتنا ، ولسفن تحمل جنود الغزو الى شواطئنا وشواطيء جيراننا ، ولمصانع تصنع الدمار لنا ولقومنا . هذا البترول في ايدينا دفء لنا ، وفي ايدي عدونا نار تحرقنا ، ولقد علمتنا معركة بورسعيد ان نكون اقوى قوة لو كان بترولنا في ايدينا» .

١٧ / ١٢ / ١٩٥٨

٥

تطور مفهوم النضال العربي ضد الاستعمار

للدكتور عبد الكريم غرايبة

استاذ معاقد في كلية الآداب

تطور مفهوم النضال العربي تبعاً لتطور علاقة العرب بالغرب وتطور موقف العرب من تاريخهم وتراثهم فاذا ما استعبدهم تاريخهم وتراثهم فهموا النضال بأنه حرب لا هوادة فيها ضد الغرب وكل ما يمثله الغرب من قيم ومدنية وانتاج. واذا ما استعبدهم بريق المدنية الغربية فهموا النضال بأنه كفاح مرير للتحرر من تاريخهم وتقاليدهم وكل ما يتبع ذلك من دين ولغة فصحى وحروف كتابة وغير ذلك. وقد يتجه النضال نحو التحرر من العبوديتين لتسخير التاريخ والتراث والمدنية الغربية في سبيل بناء مجتمع عربي جديد.

وقد مر العرب خلال القرن الاخير من تاريخهم بجميع هذه المراحل. فقد شرعوا يتحررون من عبودية التاريخ والتقاليد في منتصف القرن التاسع عشر ولكن ما لبثوا أن بهرهم بريق المدنية الغربية فحاروا بين العبوديتين الى أن سقطوا في اسر الغرب. ولم يبدأ تحررهم من العبوديتين الا خلال السنين القليلة الاخيرة. ويمكن أن تلخص مراحل النضال هذا بثلاثة أدوار:

أولاً – دورة الحيرة ١٨٥٠ – ١٩١٨.

ثانياً – دور الاسر الغربي ١٩١٩ – ١٩٥٥.

ثالثاً — الدور العربي ١٩٥٥ —

اولا — دور الحيرة

ولا يوضح مفهوم النضال في هذا الدور أحد أكثر من حافظ ابراهيم اذ يقول :

وهذا يلوذ بقصر الأمير — ويدعو الى ظله الارحب
وهذا يلوذ بقصر السفير — ويطنب في ورده الاعذب
وهذا يصيح مع الصائحين — على غير قصد ولا مأرب

فالحيرة عامة ومنتشرة ولا يعرف الناس حقاً ماذا يريدون ولا يدركون حاجات البلاد الحقيقية . والمخلصون حيارى لا يدرون ماذا يفعلون ، أيكافحون الاستعمار الذي يهددهم أم الظلم الذي يرزحون تحته . أيقلدون الغرب المستعمر ويتخلون عن تراثهم أم ينتقون أم يعودون الى سيرة السلف الصالح . والهدف واحد ولكن الطرق مختلفة وخطرة .

فالكل يريد للبلاد العربية الحرية والاستقلال والانتعاش الاقتصادي والقوة ولكن كيف الوصول الى ذلك ؟ والعرب حيارى تتجاذبهم عبوديتان ، فلا يكادون يتحررون من عبوديتهم لتاريخهم حتى تتلقفهم المدنية الغربية لتخضعهم لعبودية أدهى وأمر وينشأ كرد فعل للعبودية الجديدة دعوة سلفية ناضل أصحابها في سبيل حمل العرب على اتباع سيرة السلف الصالح اعتقاداً منهم بأن للمسلمين طبيعة مختلفة لا تحتمل ادخال الانظمة الغربية المسيحية وأنه لا يصلح أمر هذه الامة الا كما صلح أولها بجعل القرآن دستوراً واتباع سنة الرسول .

وكانت الدعوة السلفية أضعف من أن تصمد في وجه الغرب العاتي فانحسرت

لتبقى في أماكن منقطعة وفي الواحات . وبرز جيل جديد يدعو الى النضال ضد الغرب المعتدي مستعملا سلاح الغرب وأساليبه .

وكان من الطبيعي أن يختلف مفهوم النضال هـذا ووسائله باختلاف الامكنة والازمنة . فهو في البلدان التي خضعت للحكم الغربي المباشر كالجزائر غيره في بلد يحكمه الغرب من وراء واجهة وطنية وغيره في بلد لم تدخله جيوش الغرب .

أ ـ نضال الاعيان والمثقفين

ورفعت راية النضال تلك الطبقة من الشعب التي تأثرت مصالحها بالخطر الغربي أو التي اعتبرت استخدام وسائل الغرب مفيداً او ضاراً بمصالحها . وبسبب الهوة السحيقة التي كانت تفصل الحاكم عن المحكوم في بلادنا العربية كان تأثر الفئات الشعبية بهذا النضال بطيئاً .

ورأى الاعيان أن مصالحهم مهددة تهديداً خطيراً بالزحف الغربي والدعوة السلفية . وشعروا ألاّ أمان لمصالحهم من الخطر الا اذا شاركوا الحكام في الحكم وسيطروا على طرق الاستفادة من الغرب وعلى ما يستورد من الغرب من آراء وأدوات . فسارعوا الى التمسك بطريقة الغرب في الحكم لانهم وجدوا في النظم النيابية خير وسيلة للسيطرة على الحكم باسم الشعب الذي لم يكن قد أبدى رأيه . وسرعان ما كسبوا الى جانبهم فئة الشباب المثقف ثقافة غربية بعد أن أقنعوه بأنهم يؤمنون بمثل ما يؤمن فسخروه وسخروا آراءه لخدمة مصالحهم .

وأثمر نضال الأعيان في كل من تونس ومصر ففي كليهما أشرك الحاكم الاعيان في الحكم . وأصدر باي تونس ما عرف بعهد الامان الذي أعلن فيه المساواة التامة أمام القانون وعزمه على تأسيس مجلس من الاعيان وعلماء الدين . وصدر

أول دستور عربي في تاريخ العرب الحديث في تونس في ١٨٦١/٤/٢٦ وأقسم الباي على التقيد بأحكامه . ونص الدستور على اسقاط بيعة الحاكم اذا ما أخل بواجباته أو حنث بيمينه كذلك نص على ايجاد مجلس للوزراء وآخر للنواب وأقر مبدأ فصل السلطات الثلاث .

كذلك حمل الاعيان الخديوي اسماعيل في مصر على جمع مجلس للاعيان في ١٨٦٦/١١/٢٥ سمي مجلس شورى للنواب . وبدأ المجلس ضعيفاً يشكر اعضاؤه ولي النعم لانعامه على عبيده ويرفعون أكفهم آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات . ولكن ما لبث العبيد ان استأسدوا وقالوا لولي النعم بانهم وكلاء الامة المدافعون عن حقوقها وان مجلسهم هو أساس المدنية والتقدم .

واعترضوا على اصدار قوانين بدون العودة إليهم وطالبوا بأن « يعرض عليهم كل ما يقصد به الاهالي » . واقر الاعيان ما عرف باللائحة الوطنية التي طالبوا فيها بتوسيع صلاحيات ممثلي الامة وجعل الوزارة مسئولة أمامه . ورضخ اسماعيل لطلباتهم وشكل وزارة يرضاها الاهالي .

ولكن الهجوم الغربي كان عنيفاً لا يرحم ولا يهاود . فلم يقبل أن يحد من سيطرته شيء حتى ولا الحياة النيابية التي هي إحدى اختراعاته . فتدخل في تونس ومصر للقضاء على هذا الاسلوب الغربي في الحكم . وأجبر الباي على تعليق الدستور عام ١٨٦٤ وعلى الغائه سنة ١٨٨١ كذلك تآمروا على الحكم النيابي في مصر فأقصوا أولا الخديوي اسماعيل . ولما تدخل الجيش المصري لدعم النضال في سبيل الدستور أعلنت انكلترا وفرنسا عزمها على أن يعيدا للخديوي السلطة المختصة به . فاحتل الانكليز مصر في منتصف ايلول ١٨٨٢ لاستعادة السلطات التي سبق وانتزعها الاعيان من الخديوي وكاد الجيش المصري ان ينجح في نقلها الى الشعب .

وكان على دعاة الدستور أن يناضلوا على جبهة أخرى داخلية . فلم ترحب بعض طبقات الشعب بالحياة الدستورية ، وكان أشدهم عداء لها اولئك الذين رأوا في الحياة النيابية تهديداً لمصالحهم الخاصة . فقاد علماء بغداد مظاهرة ضد الدستور العثماني . وحرض الشريف حسين بن علي أمير مكة السلطان عبد الحميد على اللجوء إلى البلاد العربية ليتمكن من تجهيز جيش عربي للقضاء على الدستور . ورفض الحسين العمل بموجب الدستور في الحجاز وأعلن أنه لايقبل شريعة غير شريعة الله وسنة نبيه .

١ - نضال الاعيان والمثقفين في آسيا العربية :

ولم يشعر الاعيان والمثقفون في آسيا العربية بالخطر الغربي كما شعر به عرب افريقيا . واعتبروا التحرر من السيطرة التركية هدف النضال الاول . وبلغ من استهتارهم بالخطر الغربي انهم رحبوا بالعون والوصاية الغربية اذا ماساعدهم الغرب على التحرر من الاتراك . ورحب بعض عرب آسيا بانباء الهزائم التركية وألصقوا بعبد الحميد وعهده شتى التهم . وقالوا ان الترك « قوم لايفوز لديهم إلا المشاكس » ووصفوا الدولة العثمانية :

وماهي الا دولة همجية تسوس بما يقضي هواها وتعمل

ورحبو بخدمة أغراض الاستعمار الغربي في البلاد التي لجؤوا اليها فراراً من الاضطهاد التركي . وقد خلق هذا السلوك شعوراً عدائياً نحو عرب سورية في عدد من الاقطار الافريقية ولاسيما في مصر والسودان . فيخاطب ابن النديم السوري العربي بقوله :

أنا أخوك فلم انكرتني . ما الشام ومصر الا توأمان ابوهما واحد فلم انحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين . أبكذا جنيها يبيع المرء أخاه

ووطنه بل جنسه . . أم بكلمة تعزيز نصرف حياتنا في خدمة الاجنبي لنعينه على اخواننا !

وازدادت النقمه على السوريين في مصر حتى قوطعوا ورموا بثقل الظل . وبرر حافظ ابراهيم موقف المصريين هذا على لسان سطيح في ليالي سطيح ثم دعا الى وحدة الصف وتناسي الماضي :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم   فصافحوها تصافح نفسها العرب

وأسس المثقفون وأبناء الاعيان في آسيا العربية جمعيات سرية وعلنية بلغ عددها عشر جمعيات خلال الاعوام الخمسة التي تلت خلع عبد الحميد . ولم تدع أي منها صراحة الى قطيعة تامة مع العثمانيين بل تراوحت أهدافهم من المطالبة ببعض اللامركزية ورفع مقام اللغة العربية الى المطالبة بدولة عربية يجمعها مع الاتراك وحدة التاج العثماني .

وتنادى المثقفون الى عقد مؤتمر عربي في باريس في حزيران عام ١٩١٣ مثلت فيه أكثر هذه الجمعيات . ومع أن هذا المؤتمر دعي بالمؤتمر العربي العام فإنه كان خاصاً جداً لم يحضره غير شباب من العراق وسورية ولم ينضم اليه احد من المصريين والتونسيين والجزائريين رغم وجود عدد كبير منهم في باريس ابان عقد المؤتمر . ولم يتعرض المؤتمر لغير قضايا سورية والعراق ولم يشعر بان هناك عربا غير السوريين والعراقيين . وقرر المؤتمر شكر فرنسا في الوقت الذى كان فيه المارشال ليوتي يسحق العرب في مراكش بعد أن أتمت فرنسا اخضاع تونس والجزائر . ولم يتعرض المؤتمر لأماني مصر الوطنية ولا للنكبات التي كانت تعانيها طرابلس على يد الغزاة الايطاليين .

وقدم عبد الحميد الزهراوى اوائل عام ١٩١٤ تقريراً عن امكانيات العرب النضالية . ولم يتطرق في تقريره الا لثلاثة فئات من العرب : الى السوريين

والعراقيين واعراب الجزيرة. فهو أيضاً قد حصر العرب ونضالهم بآسيا. ووصف امكانية عرب آسيا فقال بانهم ثلاثة اصناف: تجار ومتعلمون ومأمورون، فالتجار لاهم في العير ولا في النفير. والمتعلمون اي الطلاب والمثقفون اولاد في ناشئة العمر لايليقون للسياسة ولا تليق لهم. والمأمورون أربعة أقسام: الضباط ولا تجربة لهم في رأيه في هذه المسالك والأولى عدم دخولهم فيها، والمتقاعدون كالعجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء. والموظفون لاهم لهم الا حفظ المنصب. أما طلاب الوظائف فجياع مساكين لا يفهمون من الاصلاح الا المأمورية ان جاءت فقد جاء الاصلاح والا فلا يعترفون بوجود اصلاح.

وترامت الامارات والمشيخات العربية في الجزيرة في احضان الانكليز وكان احد الشيوخ احرص من الانكليز على فرض الحماية البريطانية على بلده. وكان عداء ابن سعود والادريسي والامام يحيى للعثمانيين اشد من شعورهم بالخطر الانكليزي فترك الاخير الانكليز يتوغلون في عدن ليتفرغ هو لحرب العثمانيين، بينما رحب الاول والثاني بصداقة الانكليز. واصيب الحسين شريف مكة بهذا الداء الانكليزي بعد أن رأى في السكة الحجازية خطراً عليه وسارع ابنه عبد الله الى الاتصال بالانكليز في شباط عام ١٩١٤.

٢ ـ نضال الاحزاب والمثقفين في افريقيا العربية:

واختلف مفهوم النضال في افريقيا العربية عنه في آسيا العربية اختلافاً كلياً. فقام في كل من تونس ومصر احزاب تدعو الى العودة الى احضان العثمانيين وتناضل للتخلص من الاحتلال الاجنبي الغربي. واتبعت هذه الاحزاب طريق النضال السهل بمحاولتها كسب الرأي العام في بلد اوروبي على قضاياها فاصدرت صحفاً باللغات الاوروبية لتشرح للرأي العام الغربي قضاياها العادلة.

ونادى مصطفى كامل، زعيم الحزب الوطني في مصر، في كتابه المسألة

الشرقية ، بدوام الرابطة العثمانية . وقال ان الراية العثمانية هي « الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها » ثم تضرع الى الله ان « يهب الدولة العثمانية القوة الادبية وان يحفظ السلطان عبد الحميد .. » وهاجم مشروع الخلافة العربية واتهم دعاته بانهم من دعاة الاستعمار البريطاني وختم مصطفى كامل كلامه بقوله: هذي يدي على محبة أمير المؤمنين ـ السلطان عبد الحميد ـ والا فقطعها خير من وضعها في يد الاجنبي. كذلك اعتبر الشيخ محمد عبده المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله . ودعا الشاعر المصري الكاشف الخديوي عباس الثاني الى التمسك باهداب الخلافة :

تغدو تبوعا للخليفة مخلصا 		وتروح بالهمم العلى مشغولا
هل تستغيث بضيفك المملول 		من أهليك والمولى الاعز قبيلا
متباينون هم ونحن شرائعا 		وطبائعا ومنازعا واصولا

وهاجم حافظ العصاة على السلطان :

والى الحجاز الخارجي ومابه 		الا اقتناص الاصفر الرنان

واوضح حافظ موقف عرب افريقيا من الاستعمار الغربي :

طمع القى عن الغرب اللثاما 		فاستفق بالشرق واحذر ان تناما
احرقوا الدور واستحلوا كل ما 		حرمت لاهاي في العهد احتراما

وحزن المصريون على ذهاب عبد الحميد فقال حافظ :

خالد انت رغم انف الليالي 		في كبار الرجال أهل الخلود
حاولوا طمس ماصنعت وودوا 		لو يطيقون طمس خط الحديد

واستغفر شوقي الاله له :

شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور .

وحمل محرم على المنافقين :

أمِيك ظل الله في الامس بيننا	نلوذ به والخطب ضنك مذاهبه
انطريه قهارا وتؤذيه مرهقا	كفى الليث شراً ان تقل مخالبه

ولم يتمالك عبد المطلب من رثاء العلم العثماني الذي لم يعد خفاقا في سماء مصر بعد اعلان الحماية البريطانية عليها آخر ١٩١٤ واظهر الشماتة باساطيل الحلفاء بعد فشلها في الدردنيل . ونظر عرب آسيا شذرا الى هذه الاقوال التي اعتبروها غريبة وجنونية . فعجب سليم سركيس من المصريين الذين يتمسكون باذيال العرش العثماني ويريدون الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية .

ونشأت في مصر طبقة جديدة لها مفاهيم مختلفة . فقد تغير موقف بعض الاعيان والمثقفين من الاحتلال البريطاني وتنادوا لتأسيس حزب جديد دعوه حزب الامة . وضم هذا الحزب اصحاب المصالح الحقيقية في مصر الذين «عرفوا بعلو النسب والعلم والفضل» وقيل ان كرومر كان يعطف على هذا الحزب ويشجعه لمقاومة الحزب الوطني العثماني الميول ، وطالب حزب الامة بالاستقلال والدستور ولكن في ظل الحماية البريطانية . ونادى افراد هذا الحزب بمفاهيم جديدة للدولة والوطن والنضال فالحياة الدستورية في نظرهم وظيفة اجتماعية وليست حقاً للمواطنين . ويمارس الحكم في رأيهم الاعيان الذين هم رؤساء الامة الطبيعيون . ويجب على الاعيان ان يتخذوا لهم مركزاً ثابتاً بين السلطتين (الشرعية والاحتلال او السلطان والانجليز) وان يتبعوا سياسة سلمية مشروعة لاتمس مصلحة الاجانب ولاتجعل للانجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم . ونادى فيلسوفهم لطفي السيد بعدم السماح بتدخل الشعب المتطرف بالسياسة لئلا يؤدي ذلك الى العناد والقسوة من جانب الانجليز . اما الوطن في رأيهم فهو « مصلحة مادية مشتركة تهم

اصحاب المصالح الحقيقية والاعيان » وناضل هؤلاء الأعيان لمشاركة السلطتين في الحكم عن طريق مجلس نواب ودستور ينظم العلاقة بينهم وبين السلطتين ويضمن مصالحهم الخاصة التي ادعوا بانها تمثل مصالح الشعب المصري .

ثانياً — الحرب العالمية الاولى واثرها على النضال :

وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حداً لهذه الحيرة فقد حزم الغرب امره وقرر ان يخضع العرب لحكمه . فبادر الى اعلان حمايته الرسمية على مصر ثم شرع باخضاع ماتبقى من البلاد العربية في آسيا . وتذكر عرض شريف مكة فبادر السر رونالد ستورز الى الاتصال بابن الشريف في تشرين الاول ١٩١٤ وكان هدف انجلترا كما صرح ستورز عام ١٩٥٣ هو حرمان الجيش العثماني من نصف مليون جمل يملكها الشريف واتباعه كذلك عقدت بريطانيا معاهدات مع ابن السعود والادريسي وخصصت لهما اعانات شهرية .

وتردد الحسين الى ان رأى جيرانه من الامراء قد سبقوه في الحظوه لدى الغرب بينما هو عاجز عن ارضاء العثمانيين . وادرك ان افكار العرب في سورية مضطربة . واقنعه رجال العربية الفتاة والعهد بوجوب الاتفاق مع الانكليز بل ووضعوا له مسودة لمطاليب العرب فبعث بها جواباً للمندوب البريطاني في مصر . وماطل الانكليز وتزايد الخطر على الحسين واعدمت القافلة العربية الاولى في بيروت ووصلت الحملة الالمانية الى المدينة فاصبح الحسين في وضع لايمكنه من الإطالة فوافق في اول كانون الثاني ١٩١٦ على تأجيل ايضاح المسائل المختلف عليها الى مابعد الحرب . واعلن الثورة في العاشر من حزيران ١٩١٦ بعد شهر من اعدام افراد القافلة الثانية .

ونظر العرب في سورية الى الثورة نظرة جدية ولم يتقيدوا بأهداف الحسين واولاده وحلفائه . واعتبروها فاتحة عهد للتحرر فاكسبها ذلك معنى جديداً

وجعلها اكبر واهم من الحسين واولاده. حقاً لقد اعلن الحسين الثورة وقاد اولاده جيوشها ولكن الثورة لم تبق ثورتهم وكانوا اول من تنكر لها عملياً واول من خالف مبادئها بعد ان افلت زمامها من ايديهم واصبحت ثورة الشعب العربي في سورية وكبد الجيش العربي الذي لم يتجاوز تعداد قوته النظامية الثمانية الاف ولم تزد نفقاته طوال الحرب على مليون جنيه ، العثمانيين اكثر من ٢٥٠٠٠ اسير واكثر من ٧٠٠٠ جريح وقتيل كما عطل عن الحركة ٣٠٠٠٠ جندي عثماني حوصرت في معان والمدينة واماكن اخرى. وناضل الجندي العربي ببسالة وحققت هذه القوة الصغيرة في ميدان القتال ماعجزت عنه قوات تفوقها عدداً وعدة وتدريباً.

وانتهت الحرب العالمية الاولى وقد سيطر الغرب على جميع البلاد العربية في آسيا وافريقيا باستثناء اليمن. وغدت بريطانيا محتلة للعراق واكثر سورية، ومصر والسودان وسواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبية كما تناول كل من سلطان نجد وملك الحجاز وامام عسير رواتب شهرية من الانكليز مقابل تنازلهم عن سيادتهم. فكان راتب الحسين الشهري /٢٠٠٠٠٠/ جنيها وراتب ابن سعود ٥٠٠٠ جنيها وتوقف الدفع في ١٩٢٤/٣/٣١ فبلغ مجموع ماتقاضاه الحسين ستة ملايين جنيها وماتقاضاه ابن سعود نصف مليون جنيه. كذلك احتلت فرنسا اكثر الساحل السوري وتونس والجزائر ومراكش كما احتلت ايطاليا طرابلس. وكانت اليمن هي البلد العربي الوحيد الذي لم يخضع للاحتلال الغربي ولم يكن للغرب نفوذ فيه.

II — مفهوم النضال في دور الاسر الغربي :

استسلم العرب للأسر الغربي فلم يأملوا منه فكاكا كاملا. وفهموا النضال بانه السعي لتنظيم علاقتهم بآسريهم بمعاهدة تعترف بموجبها الدولة الآسرة باستقلال

شكلي . وبدأت تختفي بسرعة افكار الوحـدة والتحرر وقل الحديث عن الامة العربية وبدأ القادة يتكلمون عن الاماني المحلية وعن اختلاف العرب باختلاف الاقاليم .

أ – الهاشميون بنز عمود سياسي التجزئة والتهدئة :

وقبل مرور شهر على انتهاء الحرب مع تركيا ، وقبـل أن تلتئم جراح المناضلين العرب، بل وقبل توقيـع الهدنة مع المانيا بدأ قائد جيش الثورة دعوة كريهة . فقد وقف فيصل بن الحسين في حلب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ ليعلن ان العرب شعوب مختلفة باختلاف الاقاليم ولا يمكن أن يخضعوا لقانون واحد . وعاد فشرح رأيه في دمشق في الخامس من أيار ١٩١٩ . واعلن ان الظروف ليست كافيه لتجعل العرب أمة واحدة وحكومة واحدة وهذا مادعاه للمطالبة بحكومات عربية. كما نادى بسورية بحدودها الطبيعية دولة مستقلة لا علاقة لها بسائر البلدان العربية .

هذا كان مصير فكرة الوحدة العربية عند الهاشميين . بدأها الحسين دعوة ضيقة لتوحيد الاقطار العربية في آسيا وفصل عرب آسيا عن عرب افريقيـا . فجاء اولاده فحطموا حتى فكرة الوحدة المحدودة ونادوا بالاقليمية وخرجوا على مبادىء الثورة وعلى مبادىء ابيهم قبل ان ينكث الحلفـاء بوعودهم لابيهم وللعرب .

وشعر أولاد الحسين ان الشعب قد بدأ يتنبه ويتشكك بموقف الهاشميـين وبوعود الحلفاء . وخشى الهاشميون هـذا الخطر الجديد وخاب املهم بان ينقاد العرب اليهم ويبايعوهم كمنقذين بدون قيد او شرط . وقام الشعب يناقش فيصل الحساب ويتهمه . فشرع فيصل يدافع عن حسن نيات الحلفاء ونبـل مقاصدهم

فاعتبر فيصل البلاغ الافرنسي البريطاني الصادر في ۱۹۱۸/۱۱/۱۸ دليلا على حسن نيات الحلفاء الذين اعلنوا في هذا البيان عزمهم على تأسيس حكومات وادارات وطنية « لا دولة عربية واحدة » .

وجمع فيصل وجوه وأعيان دمشق في ۱۹۱۹/٥/٥ ليعلن لهم بالحرف الواحد « ان الحلفاء قاموا لانصاف المغلوب والاخذ بناصر الحق لا فرق احد على الآخر في الصدق وحسن النية والاخلاص لنا » ثم طلب من الأمة تفويضاً مطلقاً بدون قيد أو شرط وباعطائه جميع ما يطلب وتفويضه بادارة السياسة الداخلية والخارجية . وهتف الوجوه والاعيان له . وصفقوا حينما وجه اليهم اسئلته :

احسن ما قمنا به : فاجيب : حسن حسن مع التصفيق والهتاف

هل هو موافق لرغائب الامة ام لا : موافق موافق مع الهتاف الشديد .

هل اعمالنا مقرونة برضى الامة . نعم وكل الرضى . . تصفيق وهتاف . .

هل يريدون ان نداوم على عملنا ام لا نداوم نداوم .. مع الهتاف

هل تؤيد الامة كل اعمالي بدون قيد او شرط نعم لك الامر

وعاد فيصل في ۱۹۲۰/۱/۲۲ فهدد المتشككين بانه لا يخاف الجمعيات وانما يخاف الله والتاريخ واعلن انه لا يسمح لجماعة او شخص ان ينتقدوا الحكومة . لان الحكومة قائمة برأيه والحكومة هي شخصه وليس لاحد الحق بالنقد والطعن والاوفق ان ينصرف كل الى عمله . ثم التفت الى الشهبندر ونصحه بترك السياسة والانصراف الى الطب .

وترأس فيصل الوفد العربي الوحيد الى مؤتمر الصلح . وكان في باريس اذ ذاك وفدان عربيان يسعيان لعرض قضايا بلديهما ولكن فيصل واعضاء وفده

أبو الاتصال بالوفد المصري الذي كان يرأسه سعد زغلول أو بالوفد التونسي برئاسة الثعالبي ورفض فيصل أن يدافع عن قضايا العرب في افريقيا . وما لبث فصيل أن تخلى حتى عن فكرة الدفاع عن وحدة العرب في آسيا .

ولم يعارض فيصل أحد من رجال وفده وكلهم لعب فيما بعد دوراً هاماً في تاريخ بلاده وبعضهم مازال يلعب دوره .

ولم يتخلوا عن وحدة العرب فحسب ولا عن وحدة العرب في آسيا بل حتى عن وحدة سورية حينما وافقوا جميعاً باستثناء واحد منهم فقط ، على توقيع اتفاقية مع فيصل - وايزمن في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ التي تنازل فيصل بموجبها عن فلسطين لليهود . وبرر فيصل ورفاقه موقفهم بانهم يبغون كسب عطف ويلسون لويد جورج ووايزمن وكليمنصو ولورنس . وكان الاعجاب بالانجليز قد بلغ بهم حداً كبيراً دعا أحدهم لان يقول : الانجليز يا أخي يختلفون عن بقية الناس .. هم وحدهم ممتازون نزلوا من السماء في قفة ويجب أن ندرس هولاء ونفهمهم ونتفاهم واياهم هم لازمون لنا .

وعمل الانجليز وحلفاؤهم بدورهم كل مافي وسعهم للاساءة الى العرب والى الحسين وأولاده . فصدرت تعليمات وزاره الحرب البريطانية بتأسيس ادارة بريطانية دائمة ، مركزها البصرة ، لحكم جنوب العراق وبلدان الخليج بينما تنشأ في بغداد واجهة عربية للحكم البريطاني كما حرصت بريطانيا على عدم تسرب مبادىء ولسن الى الاراضي التي يحتلها الجيش البريطاني كما أصر الخبراء الانجليز على ضرورة فصل العراق كلياً عن العالم العربي واشاروا بأن تمسكهم بالعراق يمكنهم من دق اسفين في العالم العربي ويحول دون تجمع العرب ، فسياسة فصل العراق عن ركب العروبة سياسة قديمة بدأها الاستعمار الغربي قبل أربعين عاماً .

ثانياً — النضال المسلح ١٩١٩ - ١٩٢٧

لم تشاطر الشعوب العربية الحسين وأولاده ايمانهم بحسن نية الحلفاء كما لم تستسلم لليأس . ومع أن الدول الغربية خرجت من الحرب منتصرة فان أكثر الشعوب العربية وجدت في نفسها الجرأة لتقدم على تحدي هذه الدول واعلان العصيان . فثارت مصر وسورية والعراق ومراكش كما حدثت اضطرابات في تونس وفلسطين وشرق الاردن .

بدأ الشعب العربي في مصر أول نضال مسلح ضد الغرب . ففي نفس اليوم الذي كان فيه فيصل يخطب في حلب مطرياً الحلفاء ومشيداً بحسن نيتهم ، كان ثلاثة من الاعيان المصريين يطلبون مقابلة المندوب البريطاني ليطالبوا بأن يكون المصريون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر . وكان هذا القول مثار دهشة المندوب الذي تساءل باستغراب : اذا أنتم تطلبون الاستقلال : فاجابه سعد زغلول ، **نحن له أهل** . فاجاب المندوب : الطفل اذا أعطي من الغذاء أكثر مما يلزم تخم . فدافع عبد العزيز فهمي عن حق مصر بالاستقلال وأبدى زغلول استعداد مصر لمنح بريطانيا الضمانات اللازمة والسماح لها وحدها دون غيرها باحتلال منطقة القنال عند الاقتضاء . وقال علي الشعراوي بأن مصر تقبل ببقاء المستشار المالي البريطاني . وتعهد ثلاثتهم بالا يبحثوا مطالب مصر الا مع ممثلي بريطانيا .

وشرعت جماعة الاعيان ، التي اطلقت على نفسها اسم الوفد المصري ، بجمع التوكيلات من الشعب المصري لكي يسعوا بالطرق السلمية المشروعة ، حيثما وجدوا للسعي سبيلا ، في سبيل استقلال مصر تطبيقاً لمبادىء الحرية والعدالة التي تنشر بريطانيا رايتها .

وتزعم هذه الحركة سعد زغلول وكان اذ ذاك في الثالثة والستين من عمره .
قضى زغلول حياته في صحبة الارستقراطية وصاهرها رغم أصله الريفي . ولم يستطع أن ينضم الى أى حزب من الاحزاب القائمة ولكنه لم يعاد أيا منها بل صادق الجميع . واصبح وزيراً برأى كرومر ودافع عن تمديد امتياز قناة السويس وعن قوانين الصحافة . ثم اصبح نائباً رغم معارضة المندوب البريطاني . وجنب نفسه اكثر حياته كل ضيق مادى او معنوى وعاش مرفهاً . ثم حزم أمره آخر عمره وقرر ان يناضل بجد وان يعرض نفسه للأذى في سبيل بلاده فأظهر ثباتا واخلاصاً ادهش الجميع .

بدأ الأعيان المصريون نضال شعبهم لتنال مصر نوعاً من الاستقلال . كانوا يأملون مشاركة الانجليز والسلطان في الحكم ويتقبلون كأمر بديهي تمتع بريطانيا بمركز خاص في مصر وسعوا الى عقد معاهد تنظم العلاقة بين بريطانيا ومصر ولم يفكر اى منهم ان الجلاء البريطاني الكامل امر ممكن أو مستحسن الحدوث . كما لم يخطر ببال اي منهم أن الشعب سيكون له نصيب بالنضال وفي قطف النتائج .

واكتفى الاعيان من النضال بالبيانات والنداءات والمقالات الصحفية . واعلن سعد في السابع من شباط بطلان الحماية بعد اسبوع من اعلان مؤتمر الصلح لحق تقرير المصير . ولم يستهدف الأعيان اثارة الشعب المصري ولا اشراكه بالنضال وانما ارادوا اسماع صوت مصر في اوروبا واثارة الرأي العام الاوروبي وكسب عطفه . وكان الامير فيصل ورفاقه يدافعون اذ ذاك عن قضايا العرب في مؤتمر الصلح ولكن حسب مفهومهم الخاص لها . وتقدم للكلام باسم العرب مندوبان احدهما انجليزي والثاني دمشقي رشحته فرنسا . وطبعاً لم يتعرض المندوبان للقضية المصرية . واعتقل سعد وثارت مصر وبطش الانجليز بالشعب المصري اثناء مناقشة القضية العربية في مؤتمر الصلح ولكن لم تناقش

قضية مصر . وبينما كانت نساء مصر يتظاهرن في شوارع القاهرة ويطاردهن الجنود الانجليز اتخذ مؤتمر الصلح قراراً بارسال لجنة تحقيق الى البلاد العربية لاستطلاع رأيها . ولكن لم يخطر ببال احد حتى ولاخطر لوفد فيصل أن العرب لايسكنون في سوريا وحدها وان من الواجب استطلاع رأي العرب في اقطار أخرى .

ادهش الشعب المصري الجميع في مصر وخارجها . فلم يخطر ببال أحد بل لم يرد احد ان يشترك الشعب بالنضال . ولكن المظاهرات بدأت عنيفة فور انتشار خبر اعتقال سعد . وثار الاعيان وها لهم الخطر الشعبي الجديد فغدا عبد العزيز فهمي تالف الاعصاب يصيح بالطلاب : انكم تلعبون بالنار ، دعونا نعمل بهدوء ولا تزيدوا في غضب الانجليز . وتأمل الاعيان ان تكون ثورة الشعب مجرد شغب عابر فسارعوا الى التنصل من مسؤليته واعلنوا ان الاعتداء على الانفس والاملاك محرم بالشرائع الالهية والقوانين الوضعية . . ويضيع على المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم و كأنما خيل للاعيان ان حرية بلد من البلدان يمكن ان تحقق في نقاش حول الموائد وعن طريق استدرار عطف الاجنبي ، و كأنما الشرائع الالهية لاتحرم الاعتداء على حريات الشعوب . واشترك الشعب المصري بكافة فئاته بالنضال فاضرب الموظفون وتظاهر الرجال والنساء والعمال واهل الفن واعتبر محمد فريد زعيم الحزب الوطني ، هذه الثورة من الحوادث المفاجئة والامور التي كانت غير منتظرة . . ان هذه الحركة لم تكن في الحسبان . وادرك الاعيان ان هذه الثورة الشعبية خطر عليهم وعلى مصالحهم . كما ادرك الانجليز ان من الخير لهم الاتفاق مع الاعيان قبل ان تفلت الامور من ايديهم ويسيطر الشعب فسارعوا الى الافراج عن سعد . ولكن سعد كان قد حزم امره وقرر ان يسلك طريق النضال الى جانب الشعب فانفض عن سعد وعن الوفد اعضاء حزب الامة القدماء من الاعيان واعيد اعتقال سعد . وتوصلت بريطانيا والاعيان الى اتفاق يضمن مصالح

الطرفين في مصر فاصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير الذي اعلنت فيه انهاء حمايتها على مصر واعلان مصر دولة مستقلة ذات سيادة واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق الدفاع عن مصر وحماية مواصلاتها وحماية المصالح الاجنبية كما احتفظت بالسودان وانذرت الشعب المصري بان الاستسلام للاماني الوطنية يعرضه للخطر وانه كلما زاد اعتراف المصريين بوحدة المصالح البريطانية ومصالحهم كلما قلت الحاجة الى الضمانات . واعتقد الاعيان ان طريق النضال اصبح واضح المعالم فلم يبق عليهم الا ان يقنعوا بريطانيا ان ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات ولا سبيل الى ذلك في رأي الاعيان الا بالتعلق باهداب السكينة والتزام الهدوء .

واصبح بامكان الاعيان ان ينصرفوا الى تنظيم علاقاتهم مع الملك بعد ان نظموها مع الانجليز . فاستعاروا دستور دولة اعيان وهو الدستور البلجيكي ليضعوا على نسقه ماعرف بدستور ١٩٢٣ . ولكن الشعب المصري بدأ يثبت وجوده فهدم أماني الاعيان عندما رفض ان يعترف بهم ممثلين عنه في البرلمان ، واكتشف الاعيان ان الدستور الذي وضعوه لخدمة مصالحهم خدم مصالح سعد والشعب فعاد الاعيان وتعاونوا مع المستعمر والملك على التلاعب بالدستور واحياناً على تعليقه او على اجراء انتخابات مزورة .

وكانت الثورة المصرية هي الاولى في سلسلة من الثورات التي عمت العالم العربي في محاولته التخلص من امر الغرب . فبعد اشهر قليلة من نشوب الثورة في مصر قامت حركة مسلحة ضد الانجليز في الجزيرة الفراتية . وسارعت حكومة دمشق الهاشمية الى التنصل منها . ونظر الانجليز نظرة جدية الى هذه الحركة وخطب تشرشل في الثالث من كانون الثاني ١٩٢٠ محذراً من الخطر الذي يهدد الحضارة الغربية من التقاء الاعداء العمالقة الثلاث : لينين واتاتورك وقائد ثورة الجزيرة رمضان شلاش .

وبدأ النضال المسلح الثالث في العراق في صيف ١٩٢٠ في الوقت الذي كانت تنهار فيه ملكية دمشق . وكان الانجليز قد حولوا العراق الى مزرعة للمنتفعين الانجليز فجبوا ثلاثة امثال ما كان يجبيه العثمانيون وانفقوا اكثر ذلك على توفير راحة الموظفين الانجليز . واقصوا العرب من الوظائف بحيث لم تتجاوز نسبة الموظفين العرب الى ٣٧٪ من كبار الموظفين واقل من نصف صغار الموظفين و ١٧ ٪ من موظفي السكك الحديدية . وادخل الانجليز نظام جرائم الحدود الهندي باسم نظام العشائر ورفعوا مكانة الشيوخ واقطعوهم اراضي واسعة . واعلنوا بوضوح ان سياستهم هي التمسك ببغداد واعتبروا الامال السياسية والرغبة في الحكم الذاتي اوهاما تجول في مخيلة المتطرفين وينبغي ان تقمع بشدة. وقالوا ان تأسيس دولة عربية في العراق يترك الشرق الاوسط كله طعمة للفوضوية والشيوعية . واعتبروا كل عراقي يدعو للاستقلال شيوعيا وعلى هذا الاساس اعتقلوا ابن المجتهد الاكبر بتهمة الشيوعية . ونشبت الثورة وكلفت بريطانيا أكثر من عشرين مليون جنيه بالاضافة الى الفى اصابة تكبدها الجيش البريطاني . ولكن بريطانيا تمكنت من اخماد الثورة في تشرين الثاني وعالجت جرحها في العراق . واعادت فصل العراق عن ركب العروبة بمساعدة الفئة التي اضاعت سورية التي حولت الى العراق لتشكل واجهة عربية حكمت بريطانيا العراق من ورائها حتى تموز ١٩٥٨ .

وكانت أعنف الثورات المسلحة ضد الاستعمار هي ثورة عبد الكريم الريفي التي بدأت في تموز ١٩٢١. وكبد العرب المراكشيون القوات الاسبانية خمسة عشر الف اصابة وكميات كبيرة من الاعتدة وأجبروا الاسبان على اخلاء اكثر الريف . وهذا كان اكبر نصر عسكري حازه جيش عربي على جيش اوربي حديث . واعتبر الافرنسيون نجاح الثورة خطرا يهدد مصالحهم ومصالح جميع الدول الاوربية . فحشدت فرنسا واسبانيا اكثر من ربع مليون جندي

و ٣٢١ طائرة ضد قوات جمهورية الريف التي لم تتجاوز عشرة آلاف جندي نظامي . وتم للغرب النصر العسكري في منتصف ١٩٢٦ .

وشكل الوطنيون في طرابلس جمهورية عربية عام ١٩٢٠ في غريان بزعامة رمضان السويحلي يساعده عبد الرحمن عزام . ثم بويع السنوسي اميرا عاما على ليبيا في تشرين الثاني ١٩٢٢ . ولكن ايطاليا الفاشستية ارسلت حملة عسكرية تمكنت من اخضاع قطاع طرابلس ١٩٢٥ واكثر برقة عام ١٩٢٩ واستسلم زعيم المقاومة في برقة عمر المختار .

ولم يتوقف النضال في سورية ضد الافرنسيين . فقد فقد الجيش الافرنسي حتى قيام الثورة السورية الكبرى اكثر من خمسة آلاف قتيل وبدأت الثورة في تموز ١٩٢٥ واستمرت الى منتصف عام ١٩٢٧ . وسجل السوريون في هذه الثورة بطولات كثيرة لا تقل عن البطولات التي كان يسجلها اخوانهم في الوقت نفسه في الريف . واضطر عدد من المناضلين الى مغادرة البلاد بعد نهاية الثورة .

وجاء الاردن في اواخر ١٩٢٠ الامير عبد الله بن الحسين مدعياً ان هدفه تحرير سورية من الافرنسيين . ووجه نداءاً الى السوريين قال فيه : « كيف ترضون بأن تكون العاصمة الاموية مستعمرة فرنسية ، إن رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى وستأتيكم غضبى ، أتينا لبذل المهج دونكم ، لا اريد منكم غير السمع والطاعة » وآمن بهذا الكلام كثيرون ولكن عبد الله سرعان ماخيب الآمال وعاد يقول : « ان الحكومة الفرنسية لا تحمل حقداً على قوميتنا وقضيتنا » وثار عليه الاردنيون في كل مكان ورجموا سيارته وقاطعوا انتخاباته ومنعوه من تأجير اراضيه لليهود .

والغريب ان البلد العربي الوحيد الذي ساده الهدوء خلال هذه السنوات

هو فلسطين . فباستثناء حوادث ١٩١٩ البسيطة ظلت الاحوال فيها هادئة حتى عام ١٩٢٩ وظهر عرب فلسطين في خلالها بمظهر من ينام على الضيم ولا تهزه الحمية لنصرة بلاده وقومه وللدفاع عن حقوقه ومصالحه . واكتفوا من النضال بعقد سبعة مؤتمرات واتخاذ قرارات واصدار بيانات و كفى الله المؤمنين القتال .

وشابه نضال تونس نضال فلسطين في النوع ونضال مصر في التنظيم . فقد ضعف امر جماعة الحاضرة وحزب تونس الفتاة اللذين كانا يدعوان الى الجامعة العثمانية الاسلامية وبرز عام ١٩١٩ حزب الدستور الذي اسسه خريج الزيتونه عبد العزيز الثعالبي . وهذا يشبه ما حدث في مصر حيث ضعف نفوذ الحزب الوطني الموالي للعثمانيين وبرز حزب الوفد برئاسة خريج الازهر سعد زغلول . وسعى الثعالبي كما سعى زغلول لاسماع صوت بلاده في مؤتمر الصلح في باريس . ولكن التونسيين لم يثوروا ولم يلجأوا الى الكفاح المسلح وانصرف ساستهم الى محاولة كسب ود الاحزاب اليسارية الافرنسية واكتفوا بالمطالبة بحياة دستورية وفتح ابواب الوظائف امام التونسيون . وضاقت فرنسا ذرعاً بهذه المطالب المعتدلة واضطر الثعالبي الى اللجوء الى مصر من ١٩٢٣–١٩٣٧ .

كانت نتيجة نضال السنوات العشر بعد الحرب العالمية الاولى مؤلمة ومخيبة للآمال . فلم يستطع أي بلد عربي ان يفك اسره . وتمكن الغرب من سحق كل مقاومة عسكرية عربية ، وتبين من مراحل هذا النضال ان الشعب اكثر استعداداً للتضحية واشد تمسكاً بحريته من زعمائه . وحققت البلاد العربية التي لجأت الى العنف بعض المكاسب السياسية واجبرت آسريها على توضيح وتنظيم علاقاتهم بتلك البلاد . واستطاع الغرب ان يجد في الزعماء عوناً على تهدئة الخواطر وبث الطمأنينة فأصدر تصريحات مطمئنة في مصر والاردن والعراق وسورية وتونس ومراكش كانت جميعها من حيث المبدأ واحدة . والتزمت الدولة

الغربية في التصريح البريطاني حول مصر في فبراير ١٩٢٢ والبلاغ البريطاني الصادر في بغداد في ١٩٢٠/٦/٢٠ وتصريحات المندوب السامي الافرنسي في سورية في الاعوام ١٩٢٧ و١٩٢٨ و١٩٣٠ بالموافقة على اقامة حكومات دستورية في هذه البلاد العربية والاعتراف باستقلالها الشكلي ، ولكن الدول الغربية اصرت على الاحتفاظ لنفسها بحق الاشراف على الامن الداخلي والخارجي وبحماية مصالحها ومصالح الدول الاجنبية على ان تنظم حقوق الدولة الغربية بموجب معاهدة تعقد مع حكومة البلد العربي .

دساتير المعاهدات

تقيد الساسة العرب ربع قرن بالمفهوم الجديد للنضال الذي اوحى به اليهم الغرب ، فقد وجه النضال وجهة اقليمية واستهدف سن دستور واجراء انتخابات وتشكيل حكومة دستورية تعقد معاهدة مع الدولة الغربية . ولكن الغرب بدأ يشترط شروطاً جديدة ، فهو يراوغ ويماطل ويصر على ان يقر المعاهدة مجلس نواب منتخب يمثل الشعب ، فيتبارى الساسة في تأسيس التجمعات والكتل والاحزاب للسيطرة على المجالس النيابية ليتم على ايديهم فخر عقد معاهدة الشرف والاستقلال والاسر الدائم .

وتكاد تلمح يد الدولة الغربية وراء كل وزارة تشكل او تسقط ، ووراء كل مجلس نواب يحل او حزب يشكل ، واصبح هدف كل حزب اقناع الشعب بأنه احرص من غيره على حقوق الشعب ، واقناع الدول الغربية بانه اقدر من غيره على اقناع الشعب بقبول المعاهدة مع الدولة الغربيه ، وبدلا من ان تتضافر جهود الساسة ويشكلوا جبهة واحدة امام المستعمر بدأ النزاع بينهم افراداً واحزاباً وكلهم يدعي انه يمثل الشعب واماني الشعب اكثر من غيره .

وقام في البلاد العربية خلال فترة الاسر هـذه اكثر من مئة حزب اسس اكثر من ربعها في سورية ومثل ذلك في العراق واكثر من اثنتي عشر حزباً في مصر ، ولا يدخل ضمن هذا التعداد الاحزاب الشيوعية ولا الاحزاب التي تنشأ في المغرب ، كفروع لأحزاب اجنبية ، واصر زعمـاء الاحزاب على ان النضال عمل تعاوني لايمكن ان يكون فردياً ويجب على الفرد ان ينخرط في الحزبية باعتبارها امراً سياسياً في حياة الفرد والامة . وبدأت الاحزاب تجند اعوانها بين طلاب المدارس والجامعات مما اضعف الروح العلمية بـين الطلاب وأحل التعصب محل التسامح والتواضع العلمي ، وكانت الاحزاب العقـائدية أشد ضرراً في هذا الميدان من الاحزاب التقليدية .

وكانت جميـع هذه الاحزاب ، باستثناء ثلاث منها ، اقليمية في نشـاطها ومبادئها . ومع ان بعض الاحزاب الاقليمية في سورية والعراق تكلمت عن الامة العربية والوحدة العربية ولكنها لم يتعد مفهوم الوحدة في نظرها وحدة اقطار الهلال الخصيب . وفي سورية قام قبل ربـع قرن اول حزب دعـا الى الوحدة العربية كما نفهمها اليوم كما قام فيها اول حزب عقائدي قومي في التاريخ لايدعو الى احتقار القوميات الاخرى ولا يدعو الى غايات عـدوانية بل يهتم بالقيم الانسانية بل يدعو لمكافحة الاستعمار ومساعدة الشعوب على التحرر .

وكان مفهوم النضال واحداً لدى الاحزاب والكتل السياسية قبل الحرب العالمية الثانية . فكلها تدعو الى وضع دستور وتشكيل مجالس نيابية منتخبة وعقد معـاهدات مع الدولة الغربية ذات المصـالح في بلدهم وجاءت الدسـاتير والانتخابات والمجالس النيابية والمعاهدات متشابهة . فلم ينص أي من الدسـاتير التي وضعت خلال هذه الفترة على ان شعب ذلك البلد هو جزء من الامة العربية . بل اكد دستور كل بلد ان شعبه امة تامة كما اكد على سيـادة البلد ومنحت

جميعها رئيس الدولة سلطات واسعة لتمكنه من القيام بالتزاماته نحو الحليف الغربي . وكان رئيس الدولة والحليفة يضيقان مراراً بالدستور فيعطلانه فقد عطل الدستور المصري سبع مرات وعاشت مصر بدون حياة دستورية سبع سنوات وفرض عليها دستور جديد لمدة ثلاث سنوات . وعلق الدستور في لبنان ثلاث مرات ولمدة سبع سنوات . وعلق الدستور او عطل او الغي في سورية ست مرات ولمدة مجموعها اثني عشر عاماً . وشاهدت سورية في تاريخها القصير مجلسين تأسيسيين وخمسة دساتير . وكانت الحياة البرلمانية في البلاد العربية متشابهة . ولقد قال نوري السعيد مرة مخاطباً النواب :

هل في الامكان - اناشدكم الله - أن يخرج أحد نائباً مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة مالم تأت الحكومة وترشحه ! وانا اراهن كل شخص يدعي بمركزه ، ووطنيته فليستقل الآن ويخرج ونعيد الانتخاب ولاندخله في قائمة الحكومة ونرى هل هذا النائب الرفيع المنزلة الذي وراءه ماوراءه من المؤيدين يستطيع ان يخرج نائباً .

وهذا القول ينطبق تماماً على السبعة عشر مجلساً نيابياً التي عرفها العراق . ولم يتم أي من هذه المجالس مدته باستثناء المجلس العاشر ١٩٣٩ - ١٩٤٣ الذي ايد ست وزارات وملكين ووصيين على العرش . وكانت مقاعد المجالس محتكرة لاشخاص معدودين . وكانت كل وزارة تحل المجلس القائم لتأتي بمجلس يتآزر واياها فتحشد فيه عدداً من النواب بالتزكية وتساعد على انجاح نسبة معينة من المعارضين ويعرف المجلس بعد ذلك باسم رئيس الوزارة الذي اشرف على انتخاباته .

وعرفت مصر عشرة مجالس نيابية لم يكمل أي منها مدته وعمر احدها يوما واحدا . ولكن لم تجر انتخابات نزيهة نسبياً الا لست مجالس دامت عشر سنوات . كذلك كان نصيب سورية تسعة مجالس نيابيه . كما قام في الاردن

عشرة مجالس تشريعية ونيابية . ولم تقم في غير هذه الاقطار حياة دستورية نيابية .

وبرع المستعمر الغربي في استغلال الفوضى الحزبية وعدم استقرار الحياة النيابية . فقد ادرك ان مصالح الاعيان اصحاب المصالح الحقيقية اصبحت تهددها الحياة النيابية الصحيحة اكثر من الاستعمار . وكان الملوك اسرع من الاعيان الى التزام جانب المستعمر بعد ان شعروا ان حراب الاستعمار هي السند الوحيد لتيجانهم . فتضافرت جهود المستعمر والاعيان والملوك على تشويه الحكم النيابي واثبات عدم صلاحية الشعب له وعدم ملاءمته للشعب . فقالوا بان البرلمانية تهدد الشرق العربي بمستقبله وانها تفسد الاخلاق وتفقر البلاد وتتنافى واستعداد الشرق . قالوا ان الازمة ليست ازمة رجال بل ازمة حكم ونظام .

وكانت المجالس النيابية تحت رحمة الوزارات كلما جاءت وزارة أصرت على على الاتيان بمجلس نيابي يلائمها . ولم يسحب مجلس نيابي الثقة من وزارة قائمة بل على العكس من ذلك اذ كانت المجالس هي التي تطلب ثقة الوزارات . ومع ذلك لم تكن الوزارات اكثر ثباتاً من المجالس النيابية . فقد عرفت سورية خمساً وخمسين وزارة ضمت اكثر من ١٥٠ وزيراً شكل نصفها من عام ١٩٤٣ وترأس صبري العسلي خمس من وزارات العهد الاستقلالي واشترك خالد العظم بنصفها كما اشترك فيضي الاتاسي بعشرة والعجلاني بسبعة وحسن جبارة بخمسة .

وشكل مثل هذا العدد من الوزارات في العراق ولكن نوري السعيد هناك ترأس اكثر من ربع الوزارات في تاريخ العراق كما اشترك بربع آخر كوزير للدفاع او للخارجية . أما في مصر فلم يزد عدد وزاراتها قبل الثورة على الاربعين وزارة نصفها في عهد فاروق الذي غير الوزارة في آخر نصف سنة من حكمه ست مرات . كذلك بلغ عدد الوزارات اللبنانية اكثر من خمس واربعين

وزارة . وزاد عدد وزارات الاردن على سبع وعشرين وزارة قام نصفها في السنين الخمسة الاخيرة في عهد الحسين .

فلماذا كانت هذه الوزارات تتساقط بسرعة بحيث اصبح معدل عمر الوزارة لايزيد على نصف سنة ؟ هل حدث ذلك لان البلاد العربية كانت تتمتع بنظام حكم غير صالح ؟ وهل فشلت حقاً النظم النيابية في البلاد العربية ؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد من العود الى الوراء قليلا لنرى لماذا وكيف قامت هذه النظم النيابية . ونجد أن النظم البرلمانية لم تقم لاشراك الشعب في تحمل مسؤولية الحكم ، وان الوزارات لم تستهدف افهام الشعب انها ليست الا قسماً من الامة تخصص لقيادتها . ولم اجد من عالج هذا الامر بوضوح وكشف الغطاء عن الحقيقة غير بدوي لايقرأ ولا يكتب .

مر بدوي بأرض كانت ميداناً لمعركة من معارك التحرر العربي بصحبه ابي حنيك كلوب . فقال البدوي لكلوب :

ياصاحب اتعرف هذه الارض .. هنا ثردنالك الانجليز ثرداً انهذه الارض ماتشبه الاراضي انها حمراء مشحونة بالاشلاء افتدري لم هذه التضحيات .. انا أجيبك لنؤسس حكومة عربية مستقلة .

فاجاب ابوحنيك : لقد تم لكم ذلك فلكم الآن حكومة ودستور وبرلمان ووزراء وموظفون فماذا تريدون غير هذا ؟

فاجابه البدوي ، ولكنهم يرطنون ياصاحب . ولطم جبينه بيده وصاح : عوينت ابيكم ياولد عمي .

وقد سيطر هؤلاء **الذين يرطنون** على الحكم واستهدفوا ضمان فشل الحياة الحياة النيابية ليضمنوا عدم اشراك الشعب في الحكم . وكان سقوط الوزارات

وقيامها وحل البرلمانات والانتخابات كلها مناورات وتمثيليات غايتها الاولى اثبات الفشل . ولو دققنا في اسماء الوزراء والنواب لوجدنا نفس الاشخاص يروحون ويجيئون .

وتغير مفهوم النضال تبعاً لذلك وتحول من محاربة الاستعمار الى التفاهم معه والوصول الى كراسي الحكم . ويذكر أحد كبار العاملين سابقاً في الحقل الوطني في مصر كيف (اثرت تلك المحنة) في صحته . والمحنة في رأيه سقوطه في الانتخابات لا الاحتلال الاجنبي . ويقول هذا الوطني : « ما احق المجاهد بالالم اذا هو رأي من مواطنيه تنكراً له حيث ينتظر منهم التقدير .. وتذكرت مصير اخوان لي في الجهاد وبرح بهم الالم لسقوطهم في الانتخابات فأودى بحياتهم . » ودعاهم بشهداء الانتخابات .

وكانت المجالس النيابية طريفة في تشكيلها واعمالها . فاذا عرض قانون صعب ايجاد نصاب قانوني لدرسه وقد يفقد النصاب اثناء الدرس . ولا ضرب على سبيل المثال ماحدث في البرلمان المصري عام ١٩٤٦ لدى القاء خطاب العرش . فقد تثاءب النواب عندما ذكرت الانشاءات وان مصر ضحت وبذلت في سبيل الديمقراطية وان المعاهدة غير صالحة للبقاء ، وهتفوا هتافاً حاداً عندما اكد الخطيب ان المعاهدة الجديدة ستعرض على هذا المجلس لا على مجلس جديد وكذلك عندما نودي بعروبة فلسطين ، وضحكوا عندما نادى الخطيب بان مصوع وارتريه مصريتان .

واعود فاستشهد ثانية برأى شيخ بدوى عن الحياة النيابية اذ سأله رئيس الوزراء في بلد عربي :

ـ هل انت ديمقراطي .

ـ لا والله انني لست مقراطيا فما معنى هذه الكلمة

ـ انا شيخ الديمقراطية

ـ اذا كنت شيخ المقراطية فيجب ان اكون انا احدهم لاني في خدمتك على الدوام ولكن مامعناها .

ـ ان الديمقراطية تعني المساواة فلبس فيها كبير ولاصغير والجميع في سوية واحدة .

ـ اذا كان الامر كذلك فالله يشهد انك لست مقراطي .

وكان رئيس الوزراء اذ جاءه وفد صاح بهم باسم من تتكلمون ؟ ومن انتم لتتكلموا باسم البلاد ؟ عودوا الى بيوتكم واشغالكم انا صاحب البلاد .

وكان هدف كل حزب ووزارة عقد معاهدة مع الدولة الغربية . هذا كان هدف سعد زغلول ومصطفى النحاس في مصر . هدف رجال الكتلة الوطنية ومعارضيهم في سورية ، وهدف فيصل والساسة في العراق بل وهدف الوطنيين في تونس ومراكش . فقد كان الاستقلال الداخلي وعقد معاهدة تنظيمية مع فرنسا هو هدف ابو رقيبة والثعالبي في تونس ويكاد هذا الهدف يبقى بدون تغيير من تاريخ تشكيل الحزب الجديد عام ١٩٣٤ الى ان قدم ابو رقيبة مطالبه السبعة عام ١٩٥١ ولم تكن هذه الاهداف قد تغيرت تغيراً محسوساً عندما عقد اتفاقية مع فرنسا في الثالث من حزيران عام ٩٥٥ . وكذلك كان الامر في مراكش .

وفي مصر لم تتقدم الاماني المصرية قبل الثورة . فقد كان الهدف عام ١٩١٩ عقد معاهدة تحالف وصداقة . وكذلك كان هدف وزارة مصطفى النحاس عام ١٩٣٦ . وبعد عشر سنوات اعلن المتكلم باسم الوفد في مجلس الشيوخ ان اماني مصر هي عقد معاهدة مع بريطانيا متفقة مع الاحوال الدولية الجديدة .

واجمعت الهيئة السياسية المصرية على تبني هدف مماثل عام ١٩٤٦ . ولم يلغ الوفد عام ١٩٥٠ المعاهدة الا بعد ان فشل في عقد معاهدة جديدة .

وفي سورية كان الهدف من سن الدستور الاول واجراء انتخابات هو عقد معاهدة لتنظيم الانتداب الذي هو تبادل حقوق وواجبات . وكان هذا هو هدف الحكومة الدستورية عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٦ . واعلن كاترو في حزيران ١٩٤١ ان سوريا دولة مستقلة ذات سيادة على ان تحدد علاقاتها مع فرنسا بمعاهدة. ولكن الحكومة الوطنية عام ١٩٤٥ ادهشت العرب قبل الغرب حين رفضت ان تعقد معاهدة مع فرنسا وكانت اول حكومة عربية ترفض ذلك .

وما ان بويع فيصل ملكا على العراق حتى اعلن ان هدفه هو عقد معاهدة تمكن عرى التحالف الذي قدسه دم الانجليز والعرب في الحرب ، وعقدت اول معاهدة عام ١٩٢٤ وقبل اقرار الدستور العراقي . ولم تكن المعاهدة الا تكراراً لمواد صك الانتداب . فالمواد ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، و ١٥ هي نفس مواد صك الانتداب التي تحمل تلك الارقام وشابهت المادة الاولى من المعاهدة المادة الثالثة والثانية من صك الانتداب، والثالثة الخامسة والرابعة الثامنة والخامسة التاسعة والعاشرة الثانية عشر والتاسعة الخامسة عشر. واخيراً وقع نوري السعيد، وهو موضع ثقة فيصل والانجليز ، معاهدة عام ١٩٣٠ لم تكن غير صورة لمشروع معاهدة محمد محمود هندرسون عام ١٩٢٩ التي رفضتها مصر ذلك العام وقبلتها معدلة لصالح بريطانيا بعد ستة اعوام . وهي التي شكلت اساساً للمعاهدة الاردنية عام ١٩٤٦ ولمشروع المعاهدتين السوريتين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٦ . وبعد خمسة عشر عاماً من عقد هذه المعاهدة اعلن رئيس الوزراء العراقي ان العراق سيطالب بتعديل المعاهدة ليحقق ثلاثة مطاليب رئيسية :

اولاً — حق العراق بتعيين سفراء .

ثانياً – حرية العراق في اختيار الخبراء .

ثالثاً – ضمان مساعدة بريطانيا على رفع مستوى الجيش وفي ميادين التنمية الاقتصادية .

وفي الخامس من كانون الثاني عام ١٩٤٨ دافع فاضل الجمالي عن معاهدة ١٩٣٠ ولكنه لم يعارض بتعديل بعض احكامها . ووقعت معاهدة جديدة في بورتسموت بعد عام من تصريح الجمالي ظهرت فيها المواد ١ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ و ١١ من معاهدة ١٩٣٠ تحمل في معاهدة بورتسموت الارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ واسقطت المواد الاخرى من معاهدة ١٩٣٠ لانها استنفذت اغراضها . ورفض الشعب العراقي هذه المعاهدة . ولكن في تموز كانت العاصفة قد هدأت ووجهت نحو فلسطين وعاد صالح جبر واصدر نوري السعيد كتيباً للدفاع عن المعاهدة المرفوضة واعيد الوزراء الذين وقعوا المعاهدة الى الحكم . وبقيت معاهدة ١٩٣٠ سارية المفعول كامل مدتها . وحل محلها معاهدة جديدة وقعت في الرابع من العام نفسه . وانضمت الباكستان الى الحلف بعد سبعة اشهر .

ويلاحظ ان جميع المعاهدات المعقودة بين الدول العربية والدول الغربية كما هو ظاهر في الجدول المرفق تحوي الاسس التالية :

١ – انها معاهدات في السلم والحرب

وتقتصر مساعدة الحليف العربي على تسهيل المواصلات لحليفه الاوروبي .

٢ – منح الدولة الاوروبية قواعد عسكرية ومطارات .

٣ – تستعين الدولة العربية بالدولة الاوروبية على تدريب جيشها وتسليحه ولا تستخدم خبراء اجانب الا من رعايا تلك الدولة الاوروبية .

٤ ـ حماية الاقليات .

٥ ـ تساعد الدولة الاوروبية الدولة العربية على الانضمام الى عصبة الامم وكل خلاف بينهما فيما بعد يحال الى العصبة .

٦ ـ لممثل الدولة الاوروبية حق الاولوية على غيره مما يجعله السفير الوحيد في البلد العربي ولا تتبادل الدول العربية مع الدول الاخرى الا وزراء مفوضين .

٧ ـ مدة المعاهدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد والتعديل على اساس دوام الحلف والصداقة .

واتخذ النضال شكلاً اقليمياً في اكثر البلاد العربية . فلم يبد الساسة في اي من البلدان العربيـة اهتماماً بنضال اي بلد شقيق . وتحمل كل بلد عربي ثقل الاستعمار وحده . ولعل الاستثناء الوحيد لاقليمية النضال العربي قبل تأسيس الجامعة العربية هو الثورة العربية الفلسطينية عام ١٩٣٦ . فقد استطاع عرب فلسطين ان يجعلوا من قضية بلادهم قضية عربية فاشتركت اكثر البلاد العربية في تلك الثورة وحارب في فلسطين اذ ذاك العراقي والاردني والسوري والمصري والمغربي . وكانت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين اول مظهر عملي من مظاهر وحدة النضال العربي والتضامن العربي .

وتنادى العرب في كل مكان لنصرة عرب فلسطين . فشكلوا لجان دفاع عن فلسطين في البلاد العربية وعقدوا في بلودان مؤتمراً شعبياً لنصرة عربها . واضطرت بريطانيا الى اشراك الدول العربية في مؤتمر لندن الاول لدرس القضية الفلسطينية عام ١٩٣٩ .

مقارنة بين مواد مشاريع المعاهدات بين الدول العربية والدول الغربية

	محمد محمود هندرسون ١٩٢٩	النحاس هندرسون ١٩٣٠	نوري السعيد هندرسون ١٩٣٠	بورتسموث ١٩٤٨	معاهدة مصر ١٩٣٦	المعاهدة السورية ١٩٣٣	المعاهدة السورية ١٩٣٦
معاهدة صداقة وسلم دائمين	٦.٢	٤.٢	١	١	٤	١	١
تبادل التمثيل الدبلوماسي	١٢	١٠	٢	٠	٢	٢	٢
التعاون في حالة خطر الحروب	٤	٥	٣	٢	٦.٦	٤	٤
التعاون في حالة الحرب	٧	٧	٤	٣	٧	٤	٤
حق الدول الغربية بحماية مواصلاتها ومصالحها وقواعد عسكرية	٩	٨	٥	٠	٩،٨	٥	٥
اعفاء الدولة الغربية من مسؤولياتها الدولية السابقة	٦	٦	٨	٠	٠	١١،٣	٨،٣
الخلافات تحال الى العصبة او الى محكمة العدل	١٥	١٣	١٠	٦	١٥	١٢	٨
مدة المعاهدة ٢٥ سنة	١٤.١٦	١٢.١٤	١٣.١١	٧	١٦،٨	١٠،٩	٧،٦
السودان	١٣،١١،٩	١٣.١١	...	—	١١	—	—

بداية وحدة النضال العربي :

نشبت الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي ازداد فيه تضامن الشعوب والدول العربية دفاعاً عن حق عرب فلسطين . وكان لابد لهذا التضامن من ان تظهر آثاره في ميادين اخرى غير قضية فلسطين . فقد طالبت الحكومة العراقية الحكومة البريطانية بحل قضايا سورية ولبنان وفلسطين وتعهدت مقابل ذلك باشراك قوة عراقية في الحرب ضد المحور . ولما لجأ الانجليز الى القوة لخنق الحركة الوطنية في العراق عام ١٩٤١ تضامن العرب تضامناً رائعاً في العواطف على الاقل ، مع الشعب العربي في العراق .

وادركت بريطانيا ان التضامن العربي اصبح حقيقة واقعة وقوة يحسب حسابها ويصعب مقاومتها فسعى لاستغلال هذه القوة الجديدة . ورأى المستعمر ان من الحكمة مهادنة الحركة القومية العربية ، بل وتشجيعها ضمن حدود معينة أملا بالسيطرة عليها بواسطة العملاء لتوجيهها وجهة لاتتعارض ومصالح بريطانيا الاستعمارية . فاصدر وزير الخارجية البريطانية المستر ايدن تصريحاً في ١٩٤٣/٢/٢٥ اعلن فيه ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب يراد بها ايجاد وحدة اقتصادية او ثقافية او سياسية .

وبدأ رؤساء الوزارات العربية الحائزين على ثقة المستعمر مشاوراتهم لوضع مشاريع للوحدة . وانتهت هذه المشاورات بتوقيع بروتوكول الاسكندريه في ١٩٤٤/١٠/٧ الذي شوه ليصبح ميثاق الجامعة العربية في ١٩٤٥/٣/٢٢ . واعتقد الانكليز ان تأسيس الجامعة سيصرف العرب عن السعي لتحقيق الوحدة ويضمن بصورة عملية استمرار التجزئة باسم وحدة الصف العربي . واعترفت الدول العربية بالكيانات الاقليمية واعلنت حرصها على احترامها .

وبدأت قضية فلسطين تتحول الى مأساة عام ١٩٤٨ ، فاغتنم اعداء القومية العربية الفرصة لتقويض فكرة الوحدة وهدم الجامعة العربية التي غدت رغم ارادة مؤسسيها رمزاً للوحدة . وحملت الدعايات المغرضة الجامعة مسؤولية المأساة الفلسطينية . ولكن الشعوب العربية ادركت ان الفشل لم يسببه وجود الجامعة بل سببه عدم وجود رابطة بين العرب اقوى من الجامعة . واستنكرت الشعوب الموقف المتخاذل الذي وقفته الدول العربية حينما تركت الجيش المصري يتلقى وحده ضربات العدو .

وشعر المستعمر بالخطر الجديد الذي يهدد مصالحه بعد ان قربت المأساة بين العرب وزادتهم شعوراً بضرورة الوحدة ، فلجأ أول الامر الى اعوانه في العراق والاردن ومصر . ووافق على ارسال الجيش العراقي الى فلسطين لا لنصرة عربها بل لابعاد الجيش عن بغداد ليمكن انصار معاهدة بورتسموث واعوان نوري السعيد وصالح جبر من العودة الى الحكم . واتاحت له هذه المعركة فرصة نادرة المثال لتحطيم معنويات الجيش العراقي وتجريده من العناصر الوطنية . كذلك سمح الانجليز للملك عبد الله بارسال جيشه الى فلسطين لضمان تنفيذ التقسيم . وبينما كانت المأساة تمثل على أرض فلسطين ، والتصريحات الوطنية تطلق جزافا في العواصم العربية ، كان الملك عبد الله مجتمعا مع موشي ديان في الشونة وممثل له مجتمعاً مع ساسون في باريس ورئيس وزرائه مجتمعاً مع وزير خارجية مصر في بيروت والكل يضعون الخطط لتقسيم فلسطين .

ولكن الاستعمار لم يطمئن الى كفاية مايقوم به العملاء فدخل معركة سافرة ضد أماني العرب . فاحتجت انجلترا على محاولات مصر لتصنيع نفسها وادعت لنفسها الحق بالتدخل اذا ارادت مصر ان تصنع نفسها وتفرض ضرائب تسيء الي الصناعة البريطانية . واعترضت انجلترا على جعل اللغة العربية لغة

رسمية اجبارية في حسابات الشركات وطالبت بالسماح لعدد من الاجانب لا يقل عن ربع مليون بمزاولة نشاطهم في مصر بحماية سفاراتهم . ثم خطت الدول الاستعمارية مجتمعة خطوة اوسع واشد خطورة حينما ادعت لنفسها حق ضمان الكيانات الاقليمية لمنع قيام الوحدة اذ اصدرت دول فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة الاميركية في ١٩٥٠/٥/٢٥ مايعرف بالبيان الثلاثي . ورحب الساسة العملاء بهذا التصريح واعتبروه ضماناً لسبع دول من الاعتداء الاسرائيلي . وفاتهم انه ضمان لاسرائيل من اتحاد قوة الدول السبع او العشر .

ولكن بالرغم من جهود المستعمر واعوانه فقد حقق العرب مكاسب كبيرة خلال السنوات العشر التي تلت تأسيس الجامعة العربية بفضل ازدياد التعاون وتوحيد النضال . فقد تم جلاء القوات الاجنبية عن مصر وسورية ولبنان والاردن والسودان . كذلك انهيت المعاهدات التي كانت تقيد استقلال مصر والاردن والسودان . وبعد ان كانت السعودية واليمن هما الدولتان العربيتان المستقلتان استقلالا تاماً عام ١٩٤٥ اصبحت الجامعة تضم الآن عشر دول مستقلة كلها اعضاء في هيئة الامم المتحدة . تم تحقيق كل هذا خلال فترة قصيرة نسبياً بينما لم يستطع اي قطر عربي ان ينال استقلالا تاماً خلال مرحلة اقليمية النضال التي دامت اكثر من ربع قرن .

وبدأ كل شعب عربي يشعر انه ليس وحيداً في نضاله ضد الاستعمار ولم يعد هذا التأييد مجرد عواطف تعبر عنها هيئات شعبية بل غدا سياسة رسمية لكل دولة عربية بعد ان ادخلت اكثر هذه الدول في دساتيرها مادة تنص على ان شعبها جزء من الامة العربية . وظهرت وحدة النضال واضحة في تأييد العرب الرسمي والشعبي لاماني شعبي مراكش وتونس وفي يوم الجزائر التي تحييه الدول والشعوب لنصرة عرب الجزائر . وظهر هذا التعاون قوياً رائعاً في أزمة قناة السويس

وعندما تعرضت سورية لضغط ومؤامرات الدول الاستعمارية بادرت مصر الى ارسال قوة عسكرية لنجدتها .

وتبلورت وحدة النضال بين شعبي سورية ومصر بوحدة سياسية فنشأت الجمهورية العربية المتحدة كنتيجة منطقية لذلك . ولم تعد الوحدة السياسية بين قطرين عربيين او اكثر مجرد مشاريع واحلام بل اصبحت حقيقة واقعة وثبت انها فكرة عملية سهلة التحقيق اذا توفرت الارادة الشعبية الحرة . هذا ما اثبته شعبا سورية ومصر حينما دفعا حكومتيهما الى السير في طريق وحدة عربية ليست من صنع المستعمر ولا اعوانه . وكانت هذه الوحدة اولى نتائج مفهوم النضال الجديد ، المفهوم الذي نادى به رئيس مصر عام ١٩٥٥ وطبقه وتبنته عدد من الدول العربية والدول الشقيقة في آسيا وافريقيا .

ثالثاً - الدور العربي ومفهوم النضال الجديد

بقي العرب ثلث قرن رهن المحبسين : محبس التقاليد ومحبس الغرب . ولم يسيطر الغرب على البلاد والموارد فحسب بل سيطر على الفكر السياسي العربي وحدد له المفاهيم التي تخدم اغراضه وبدأ النضال العربي يدور ضمن حلقة رسمها الغرب له . اراده الغرب ان يكون اقليمياً فتم ذلك ، وخطط له نوع الحياة السياسية التي يريدها له فبدأ العرب يناضلون لتحقيق الاهداف التي رسمها لهم الاستعمار الغربي .

ولا ينكر ان دعوات عديدة صدرت هنا وهناك لالتزام الحياد في الصراع بين المعسكرات وعدم السير في فلك الدول المستعمرة . فقد درست مصر في شباط ١٩٣٩ امكانية الوقوف على الحياد في الحرب العالمية الثانية التي كان نشوبها متوقعاً ، ولكنها بادرت فور اعلان الحرب الى اعلان تمسكها بنصوص المعاهدة واخلاصها لحليفتها بريطانيا كما قطعت علاقاتها مع المانيا . وقرر مجلس النواب

المصري في ١٩٤٠/٦/١٢ الوقوف على الحياد والتعاون مع الحليفة ! وطالب نواب وشيوخ مصريون في حزيران ١٩٤١ اعلان صفة اللامحارب . ووقف الدكتور حسين هيكل في مجلس الشيوخ المصري في ١٩٤٣/١١/١٤ ليطالب بحياد كحياد سويسرا . كذلك رفض الجيش المصري التخلي عن اسلحته الثقيلة للجيش البريطاني رغم الضغط الشديد الذي وجه لضباطه . وزادت الحكومة المصرية على هذه المواقف موقفاً اشد جراة عام ١٩٥٠ حينما قررت حكومة مصر الوفدية الوقوف على الحياد ابان الازمه الكورية فاوعزت الى مندوبها في مجلس الامن بعدم تأييد الدول الغربية .

وفي تاريخ البلاد العربية في آسيا مواقف حيادية مشابهة لمواقف مصر . فقد حاول جيش العراق عام ١٩٤٠ التزام الحياد ومنع الحكومة من قطع العلاقات مع ايطاليا واصر قادته على مساومة بريطانيا مطالبين بتحقيق اماني شعبي سورية وفلسطين كثمن للتعاون . ورفضت سورية ولبنان كل ضغط لعقد معاهدة مع فرنسا عام ١٩٤٥ وتمكنتا من نيل استقلال تام غير مقيد بالمعاهدات ونادى احد الاحزاب السورية عام ١٩٤٦ بالوقوف على الحياد بين المعسكرين . كذلك دعا مجلس النواب الاردني الى مصادقة الدول الشرقية وقرر شكر مندوب الاتحاد السوفييتي في مجلس الامن على موقفه من قضايا العرب ولم يبال نواب الاردن بارهاب كلوب ولا بالتهديد بالحل .

ولكن جميع هذه الدعوات استهدفت مساومة الغرب لامجافاته واعتقد الغرب ان العرب غير جادين في تهديداتهم . ولكن الغرب ذهل عندما قرأ في شباط نشرات سرية في مصر تحمل على مؤامرات الاستعمار الانجلو امريكي للقضاء على الحركة الوطنية في مصر . وتطور موقف هذه النشرات فنادت في ٢٢ آذار بسقوط التحالف مع الاستعمار وبسقوط الدفاع المشترك والضمان الجماعي في ظل الاستعمار ودعت في ١١ تموز ١٩٥٢ الى الحياد الصريح والكفاح المسلح .

وقامت الثورة في مصر بعد اثني عشر يوماً لتفسر مفهوم الحياد الصحيح بانه الاستقلال في السياسة الخارجية .

واعلن قادة الثورة في مصر في بلاغ مصري سوري مشترك صدر في ١٩٥٢/١٢/١٤ عزمهم ، بالاشتراك مع سورية ، على ان يثبتوا للعالم بان العالم العربي هو ملك لاهله لايقبلون حماية ولا وصاية ولا ارتباطاً دائماً مع اية كتلة من الكتل الدولية .

ولكن هذه التصريحات والاقوال لم تترجم الى افعال الا عام ١٩٥٥ . ولاول مرة في تاريخ العرب الحديث تحرر العربي من القيود التي ربطته طويلا بالمستعمر وابقته في فلكه . فقد اعلن الرئيس عبد الناصر ذلك العام تحطيم القيود . ولم يكتف الرئيس بالخروج على تعليمات الدول الغربية بل ذهب الى الكتلة المعادية لها يفاوض ويحصل منها على ما امتنع الغرب من اعطائه اياه . وشعر الغرب لاول مرة ان ساسة العرب جادون وان العرب قد تحرروا لينطلقوا في فلك خاص بهم ، في فلك عربي . هذا هو مغزى صفقة الاسلحة التشيكية .

هكذا هدم جمال عبد الناصر ذلك السور الفولاذي الذي احاط زمناً طويلا بمفاهيم النضال العربية وحرر الفكر السياسي العربي من قيوده وغدا العربي يعمل لما فيه صالح العرب . وتوالت الضربات على السور . واحنى الساسة التقليديون رؤوسهم للعاصفة الجديدة امام ثورة العرب الجارفة تأييداً لسياسة جمال عبد الناصر التحررية . وما ان اعلن عبد الناصر تحطيم هذا السور حتى انطلق الشعب العربي في الاردن محطماً انصار حلف بغداد مجبراً الملك على تعريب جيشه واخراج كلوب وانهاء المعاهدة . وحتى نوري السعيد اضطر الى مقاطعة اجتماعات حلف بغداد التي تحضرها بريطانيا اثر الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

وعندما يذكر التاريخ جمال عبد الناصر فسيذكره وجلاعظيما . ولكن سر

عظمته لا يكمن في بناء السد العالي ولا في توحيد القطرين ولا في تأميم قناة السويس ولا في القضاء على الاقطاعية وكلها امور عظيمة تؤهله لمكان مرموق في تاريخ العرب والعالم . ولكن التاريخ سيذكره رجلا عظيما لانه حرر الفكر السياسي العربي من عبوديته للغرب وللتقاليد وهدم السور الذي كان يمنع العرب من الانطلاق في آفاق التحرر والعزة والكرامة .

وتحدد مفهوم النضال العربي في المستقبل . فالتحرر والوحدة آتيان في وقت قرب ام بعد ولن تستطيع قوة ان تحول دون تحرر العرب واتحادهم . ولكن رسالة العرب ستكون صعبة وشاقة بعد التحرر كما ابان الرئيس عبد الناصر في خطابه في لميد الجامعة المصرية حين قال :

« اننا لا نملك ان نتخلف اطلاقا عن العالم الجديد . ولقد بذلنا الكثير من التضحيات ودفعنا الكثير من الآلام لاننا تخلفنا .. لذا يجب ان نلائم ما بين انفسنا وبين العصر الذي دخلنا فيه .. ولم يعد يكفينا ان نتعلق بالماضي وانما علينا ان نتحول الى قوة خلاقة تأخذ وتعطي وتساهم في صنع المستقبل بطريقة ايجابية بناءة . »

وستحكم الاجيال المقبلة علينا وعلى نضالنا بمقدار ما قدم جيلنا من تراث علمي مجرد وبمقدرتنا على معرفة ما هو خير لامتنا وبمقدرتنا على توجيه نعم العلم والفن وضبط قوى الطبيعة وتسخيرها لخير امتنا .

١٩٥٩/١/٢١

[illegible] الاستقلال في السياسة الخارجية [illegible]

[illegible] هو ملك لأهله لا يقبلون حماية [illegible]

من الكتلتين [illegible]

ولكن هذه التصريحات والاقوال [illegible] عام ١٩٥٥ [illegible] مرحلة في التاريخ العربي الحديث تحرر العربي من القيود [illegible]

وأيقن [illegible] فعندما اعلن الرئيس عبد الناصر ذلك العام تحطيم القيود ، ولم يكتف [illegible]

[illegible]

هكذا هدم جمال عبد الناصر ذلك السور الفولاذي الذي أحاط زمناً على [illegible] الشعب العربي مع الثورة وغدا العربي [illegible] التقليديون رؤوسهم العاصفة الجديدة أمام [illegible] جمال عبد الناصر الثورية . وما ان انبرى عبد الناصر يحطم هذا السور حتى انطلق الشعب العربي في الاردن محطماً أسوار حلف بغداد مجبراً الملك على تعريب جيشه وإخراج كلوب وإلغاء المعاهدة . وحتى نوري السعيد اضطر الى مقاطعة اجتماعات حلف بغداد التي تحضرها بريطانيا اثر الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

وعندما يذكر التاريخ جمال عبد الناصر فسيذكره وملاحظاته ، ولكن من

٦

القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة

للاستاذ محمد مبارك

عميد كلية الشريعة

مناسبات عديدة تجعل هذا الموضوع من موضوعات الساعة ، على ان القرآن هو القديم الذي لا تبلى جدته ولا تزول على الايام نضارته . واولى هذه المناسبات أن شهر رمضان يعيد ذكرى تنزل الكتاب الكريم حين كانت تتنزل آياته غضة على قلب الرسول العظيم صلوات الله عليه وتنتقل الى نفوس اصحابه فتفعل فيها فعل السحر الى ان انتهت الى ثورة كبرى في العقائد والمفاهيم والقيم والنظم .

وثاني هذه المناسبات ان العرب في هذا العصر بعد أن مروا بمراحل اليقظة والوعي لارضهم ثم لقوميتهم وصلوا الى المرحلة التي يتحررون فيها كذلك من نفوذ المبادىء الاجنبية من ديمقراطية الرأسماليين المزعومة الى مادية الشيوعيين، وبذلك بلغوا مرحلة الوعي لمبادئهم واصبحوا بحاجة لملء الفراغ الحادث بطرد الافكار والفلسفات الاجنبية . وانهم اليوم على مفترق الطرق يخشى عليهم العثار اذا لم يستقوا من النبع الاصيل الذي التقت فيه فطرتهم الانسانية ووحي السماء او فيض القدرة الإلـٰهية التي تجلت في الكتاب العربي المعجز . ولكن بيننا وبين الكتاب العربي المبين حجباً كثيفة بنتها العصور والعادات والافهام الغريبة حتى اصبح الكتاب الذي اقام في العالم ثورة شاملة لجميع نواحي الحياة اورادا تتلى والفاظاً تلتمس نتائجها بمجرد التلاوة .

ولنستطيع فهم القرآن فهما عميقاً يتجاوب مع نفوسنا يجب ان نبعث الجو العربي الذي نزل فيه ونتقمص نفسية العربي القديم ونقف حيث وقف ونعيد التجربة حية في نفوسنا ،لا أقصد تجربة الوحي فقد انقطع الوحي بانتقال الرسول الكريم ﷺ ، ولكن تجربة التلقي والتجاوب النفسي لتكون تجربة حية . ان هذه التجربة يجب ان تبدأ منا ثم تنتقل الى غيرنا لان القرآن نزل بلغتنا .

ان تميز الامم بالارض او العرق لم يعد تميزاً يتناسب مع ارتقاء الامم وتقدمها وسيرها نحو الانسانية ولم يعد مقبولاً من الوجهة الاخلاقية وهو تميز اقرب الى الابتدائية .اما المميز الحقيقي فهو الروح المعنوية والصيغة الانسانية والمبدأ والعقيدة؛ ويقاس رقي الامم بمقدار ما تحقق في نهضتها من مبادىء انسانية وبمقدار اتساع مداها الحيوي في المجال الانساني وبمقدار تقدمها نحو الهدف الانساني . فاذا اردت ان تقارن بين الروس والامريكيين والانكليز والعرب فقارن بين الفهم المادي الجاف للروابط الانسانية في المادية الماركسية والسلوك النفعي العملي للديمقراطية الامريكية والاستعلاء العنصري المستخفي وراء الديمقراطية البريطانية والمثالية الانسانية المتجلية في الاسلام كما فهمه العرب ودانوا به .

ان العرب يرون في القرآن المنبع الاصيل والمنهل الصافي ومجمع القوى المختزنة الكامنة التي تفجر في انفسهم انسانيتهم وتبعث روح الجهاد في سبيل تحقيقها ولذلك كان دوماً هدف الشعوبيين اعداء العرب والمبادىء الانسانية ، وكانت خطتهم في العصور القديمة وفي عهود الاستعمار الحديث اقصاء العرب عن القرآن ومفاهيمه وتغطية ذلك بستار العلمانية او التقدمية او التحرر ، ولكنه التحرر من الذات والانسلاخ من الجلد وانتحار الانسان بيده . ذلك ان القرآن بالنسبة الى العرب معدن الاصالة ومصدر التجديد المتصل بالماضي والمستند الى الانسانية الصحيحة والمستمد من مصدر الوجود .

لقد كان للقرآن ولا يزال اثر عالمي ولذلك فان العودة الى فهمه فهماً صحيحاً واعادة تجربته النفسية سيكون لها من جديد تأثير عالمي وسيكون لذلك اثر حاسم في تاريخ الحضارة ونتيجة عامة في صراع المبادىء والمذاهب وهذا الدور الحاسم انما يقوم به العرب انفسهم وهم اقوى من غيرهم على القيام به كما كانوا بالامس . وان منعهم عن القيام بهذا الدور الحاسم وفصلهم عن تجربتهم القرآنية الحية ، ان كان من الداخل فهو خيانة قومية ، وان كان من الخارج فخيانة للانسانية وتقدمها .

ان دور العرب في فهم القرآن وتفهيمه ومسؤوليتهم في ذلك تأتي من كون القرآن عربي اللغة والخطاب . وأثر القرآن العالمي ودوره في توجيه الحضارة وربط الامم بعضها ببعض يأتي من كونه انساني المبادىء والتعاليم ، ولذلك كان من الضروري ليعود القرآن الى القيام بدوره في حياة العرب اولا وفي العالم ثانياً فهم هاتين المسألتين :

١ — القرآن عربي الخطاب

ونقصد بذلك انه عربي في لغته وطريقة خطابه ، لا انه توجه في خطابه الى العرب وحدهم . فقد وصف القرآن بكونه عربياً في عدد كثير من الآيات :

(وكذلك انزلناه قرآناً عربياً) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربيا) .

ومعنى ذلك ان القرآن من حيث الفاظه وتراكيبه ، ومن حيث اساليبه

البيانية وطرائقه في التعبير عن المعاني يسلك مسلك العرب . ولذلك كان الاعتماد في فهمه على لغة العرب وعلى طريقتهم في اداء المعاني في كناياتهم ومجازاتهم واشاراتهم وقصصهم وامثالهم والاعتماد في تفسيره انما يكون على الفهم العربي .

قال الامام الشاطبي في كتاب الموافقات : « ان القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه انما يكون من هذا الطريق خاصة لان الله تعالى يقول : (انا انزلناه قرآنا عربيا) وقال (بلسان عربي مبين) وقال (لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين) . فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل الى تطلب فهمه من غير هذه الجهة) . وقال ايضاً :«انه انزل على معهود العرب في الفاظها الخاصة واساليب معانيها » . وقال « انه لابد في فهم الشريعة من اتباع معهود الاميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فان كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة»[١] .

ويتضمن عنصر اللغة هذا الفاظ اللغة ومفرداتها، وللالفاظ في كل لغة مدلول ومفهوم يتصل بحياة أهلها، ويعجبني قول أحد علماء الهند في تحديد مفهوم (الحق) و (الصبر) عند العرب في تفسيره لسورة العصر حيث قال :

« واعلم ان الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء كما يصبر المضطهد العاجز بل هو أصل القوة والعزم وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى قال حاتم الطائي :

وغمرة موت ليس فيها هوادة يكون صدور المشرفي جسورها

صبرنا له في نهكها ومصابها باسيافنا حتى يبوخ سعيرها

---

(١) ج ٢ ص ٦٤ .

وقال الاصبغ :

يابن الجحاجحة المداره   والصابرين على المكاره

وهذا كثير وفي القرآن بيّن معنى الصبر حيث قال تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس» فذكر من مواطن الصبر الفقر والمرض والحرب وذلك أصول الشدائد وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس كما مر بك في قوله تعالى ولمن صبر وغفر »[١].

وتشمل اللغة التراكيب وأنواع التعابير والصور وهذه يجب أن تفهم كذلك فهما عربياً فلكل لغة تراكيبها الخاصة ولكل أمة تشابيهها وصورها ومجازاتها ومقاصدها في كلامها؛ وكثيراً ما أدى سوء فهم التعابير العربية والتشابيه والمجازات في عصور الفهم الاعجمي للقرآن الى مذاهب منحرفة وتأويلات باطلة أخرجت القرآن عن نهجه القويم وفهمه العربي الصحيح . ذلك ان اللغة تخفي وراءها عادات أهلها والصور التي الفوها والمفاهيم التي تصوروها ولذلك كان من وسائل فهم القرآن الضرورية كما قال الشاطبي « معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل » ويقول الشاطبي موضحاً ذلك ببعض الأمثلة : « قوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم وقوله أأمنتم من في السماء واشباه ذلك انما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الارض وان كانوا مقرين بإلهية الواحد الحق فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادعوه في الارض فلا يكون فيه دليل على اثبات جهة البتة.[٢] » ويستنتج من ذلك ان « كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم

---

(١) كتاب امعان في اقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي .

(٢) ج ٣ ص ٣٥١ .

القرآن في شيء »[١] وحينما يناقش التفسير بالرأي ينتهي الى القول بجوازه بشرط ان يكون جاريا على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة ويعقب الشاطبي ذلك بذكر أمثلة من التفسيرات الباطنية التي خرجت عن الفهم العربي للقرآن . ولذلك يجعل مصادر تفسير القرآن السنة وتفسير السلف الصالح ان لم توجد السنة « فانهم اعرف به من غيرهم والا فمطلق الفهم العربي لمن حصله يكفي فيما اعوز من ذلك »[٢] .

وليست اللغة العربية من حيث مفرداتها وتراكيبها وحدها هي مصدر تفسير القرآن بل ان معرفة عادات العرب وبيئتهم التي كانوا يعيشون فيها ضرورية لفهم الكثير من آيات القرآن ، فعاداتهم واحكامهم قبل الاسلام منها ماأقره القرآن ومنها ماأبطله ونهى عنه .

قال الشاطبي : « ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الاخلاق واتصاف بمحاسن شيم فصححت الشريعة منها ماهو صحيح وزادت عليه وابطلت ماهو باطل » « وكان للعرب أحكام عندهم في الجاهلية أقرها الاسلام »[٣] .

هذا وقد تضمن القرآن أمثلة توضح مبادئه العامة وشواهد تبين قواعده الكلية وبراهين تؤيد عقائده وقد روعي في هذه الامثلة والشواهد والبراهين ان تكون مما يألفه العربي ويفهمه .

قال الشاطبي « لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون

---

(١) ج ٣ ص ٣٩١ . (٢) ج ٣ ص ٣٦٩ .

(٣) ج ٢ ص ٧١ و ٧٨ .

من سماء وارض وجبال وسحاب ونبات وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك..

« واخبروا بما انعم الله عليهم مما هو لديهم وبين ايديهم واخبروا عن نعيم الجنة واصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا .. وبيّن من ماكولات الجنة ومشروباتها ماهو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والاعناب وسائر ماهو عندهم مالوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الارياف وبلاد العجم بل اجمل ذلك في لفظ الفاكهة .

« وقد كانوا عارفين بالحكمة وكان بينهم حكماء فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله ولم يجادلهم الا على طريقة مايعرفون من الجدل »[1] .

ويرى الشاطبي ان كون القرآن معجزاً لايخرجه عن كونه عربياً جاريا على اساليب كلام العرب ميسراً للفهم[2] .

ان كل ما ذكرناه من الامثال والشواهد والتشابيه والقصص واساليب الكلام ليست الا وسائل لمقاصد القرآن الاساسية واهدافه كالايمان بالله والحياة الآخرة ومسؤولية الانسان وحسابه ، وقد روعي في هذه الوسائل حال المخاطبين وكانوا عربا ، واما مقاصد القرآن واهدافه الكبرى فهي عامة غير خاصة تعم جميع الامم وتصلح لكل الناس .

ولكن هذه الاهداف لا بد من افهامها للمخاطبين لينقلوها الى غيرهم ولهذا كان البدء بهم قال الله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) وقال (لتنذر ام القرى ومن حولها) وقد من الله عليهم بان اختار منهم رسوله الى الناس كافة في قوله : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم

---

(١) ج ٢ ص ٧٨و٧٩

(٢) ج ٣ ص ٣٤٦ .

آياته » . (آل عمران) وقوله «هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم» . (الجمعة)

والاميون هم العرب كما عليه أكثر المفسرين في مقابل أهل الكتاب ولذلك جعل العرب حين خاطبهم القرآن الكريم مسؤولين عن حمل رسالته الى الناس فقد جاء في القرآن الكريم : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (الزخرف)

ولا يستقيم المعنى الا بان يكون الخطاب موجهاً لهم وقد ورد في آية اخرى في السورة نفسها قوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقد بين ابن كثير في تفسيره ان المراد بقومه في الآية هم العرب ومن مجموع الآيتين تبدو مسؤولية العرب في التبلغ والتبليغ والتذكير وهذا التخصيص لاينافي التعميم كما قال الشاطبي فان المبادىء والقواعد التي جاء بها القرآن عامة تصلح للبشر جميعاً ويستطيع كل من فهمها وتبلغها ان ينقلها الى غيره ويبلغها وينشرها وان كان العرب في ذلك اثقل حملا واكثر مسؤولية وكذلك هم في تقصيرهم اشد وزرا .

٢ — القرآن انساني الرسالة

واما ماتضمنته رسالة القرآن من اهداف وغايات فهي انسانية عامة فالعقائد التي يدعو اليها والمبادىء الاخلاقية التي ينادي بها والنظم التشريعية التي يعلنها كلها انسانية عامة ، فالاله ليس إله قوم اوقبيلة اوشعب وانما هو رب العالمين ، خالق السموات والارض ، والرسول هو رسول الله الى الناس جميعاً لا الى جماعة أو قوم (قل ياايها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا)

(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)؛ **والناس كلهم** عباد لله، خلقهم ذكرا وانثى وجعلهم شعوبا وقبائل؛ **والانسان** كما صوره القرآن ليس هو الانسان العربي او الاعجمي والقرشي أو اليماني وانما هو الانسان في خلقته الاولى، الذي خلقه الله من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، الذي يخرج طفلا ثم يكبر حتى يرد الى ارذل العمر هو الانسان الذي انشأ له السمع والابصار والافئدة والذي حببت له شهوات الدنيا « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومه والانعام والحرث » هو الانسان الذي الهاه التكاثر واحب المال حباً جماً؛ وحياته الواقعية هي التي وصفها القرآن بقوله : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد)؛ **والمجتمع الانساني** الذي وصفه القرآن في صورته الواقعية ليس هو المجتمع العربي في زمن معين وانما هو المجتمع الانساني بوجه عام واليك بعض هذه الصور الاجتماعية الواقعية :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » .

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » .

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين » .

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالو الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم

وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا » .

« فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرنا تدميرا . »

وكذلك صورة **المجتمع المثالي** الذي يرسمه القرآن انسانية عامة :

« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون » .

« الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » .

وان **النظام الاخلاقي والتشريعي** الذي اقامه على اساس عقيدته ونظرته العامة الى الله والوجود قد احتوى المبادىء العامة التي لاتختلف من شعب الى شعب كالشورى في الحكم (وامرهم شورى بينهم) واداء الامانة واقامة العدل (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ومبدأ التعايش والتعارف والتعاون :

« ياايها الناس اناخلقناكم من ذكروانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

« وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان » .

ومبدأ تعايش الاديان وعدم الاكراه في العقيدة :

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

« لاينها كم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وقد عرض القرآن المبادىء العامة للسلوك في شتى نواحي الحياة وهي كثيرة جدا كقوله :

« ولاتنازعوا فتفشلوا » .

« ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة »

« ولكم في القصاص حياة » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط » .

« ولا تمش في الارض مرحا »

« ولاتزر وازرة وزر اخرى » « وان ليس للانسان الا ماسعى »

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »

وان مبادىء إقامة العدل ومنع الظلم واتباع الحق وفعل الخير والتعاون والاحسان وغيرها منثورة في القرآن ، معروضة في صورتها العامة ومفهومها الانساني الشامل .

وتعرض القرآن لجميع قيم الحياة وحدد موقفه منها وهي القيم التي يواجهها الناس في كل العصور وجميع المجتمعات البشرية ، وتقيم عليها المذاهب الفلسفية والخلقية بناءها ؛ ومن امثلة ذلك ماورد في هذه الآية التي جمعت اهم القيم ذات التأثير في الحياة وهي القرابة والنسب والمال والتجارة والمسكن والارض مع بيان موقعها من المثل الاعلى المتجلي في حب الله والجهاد في سبيله « قل ان كان

آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره » .

لقد اثار القرآن اهم مشكلات الانسان بل قضاياه الكبرى وفي مقدمتها **المسؤولية ومصير الحياة** (ايحسب الانسان ان يترك سدى) (افلا يعلم اذا بعثر مافي القبور وحصل مافي الصدور) (ايحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه بل يريد الانسان ليفجر امامه يسأل ايان يوم القيامة » .

انها قضية الانسان الكبرى ، انه قلق المصير والتفكر في نهاية الحياة اللذين اثارهما القرآن في النفس ومن وراءهما المسؤولية العظمى ؛ لقد تجاوز القرآن حدود الامور المحلية والزمنية ، حدود البيئة التي نزل فيها والعصر الذي ظهر فيه وحلق فوقها حتى كشف آفاق حياة الانسان بل آفاق الوجود وقلما تجد في القرآن اسماء اعلام لاناس او لبلاد اللهم الا مايكون في القصص التاريخي حتى ان الصورة التي اعطاها عن **الكون والطبيعة** واجزائها وان كانت صورة ليست غريبة عن العرب ولكنها عامة غير خاصة فلا ترى في القرآن كما في الادب الجاهلي الصحراء والناقة حيثما توجهت بل قلما تجد فيه هاتين الصورتين بل انك لترى صورة البحر والفلك مواخر فيه اكثر منها :

« وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

« ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ثم استمع وتخيل هذه الصورة الكثيفة الجامعة :

« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ».

هذه هي الطبيعة العامة التي نجدها في كل مكان في شمسها وقمرها ، وليلها ونهارها ، وبرها وبحرها ، ونباتها وثمارها ، وانسانها وحيوانها .

ان غاية القرآن ، الذي يمثل آخر الرسالات ، ايقاظ ضمير الانسان وربطه بخالقه واشعاره بمسؤوليته وتحريره من الجزئيات ليسير في مبادىء واتجاهات ، واقامة نظام لحياته وسلوكه يستقيم عليه امره تستقر فيه العدالة وتتأمن الحرية ويتعاون البشر على اختلاف اجناسهم واقوامهم .

لقد اشعر القرآن العرب بانسانيتهم ، ليشعروا هم غيرهم بها وجعل الرابطة بينهم اولاً ثم بين الناس جميعاً هي الرابطة الانسانية لا رابطة النسب والعصبية والدم ولا رابطة المال .

ونقلهم من اطار الصحراء والقبيلة الى اطار الكون والانسانية ومن مظاهر حياتهم الى اغوار انسانيتهم والى آفاق الوجود الرحبة الواسعة وبذلك استطاعوا ان يطلوا على الانسانية جميعاً من هذه الذرى العالية .

وان هذا القرآن الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والوجود مبنية على الاتصال بخالق ابدى منه البداية واليه المرجع والمآل وعلى مسؤولية الانسان عن عمله

واشتمل على مبادىء اخلاقية ونظام تشريعي مبني على المساواة والعدالة ان هذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية لم يبدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيم تشريعاً على اساس التمييز العنصري وهو الذي دعا الى المساواة بين البشر قبائل وشعوبا ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم امانة ثقيلة واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر وليجعل منهم امة معلمة مرشدة تقود الناس الى الحق وتهديهم الى الخير وتدعوهم الى هذا الصعيد الانساني المشترك . لقد كان الشرف العظيم الذي اناله الله العرب ان يكون الرسول الانساني العظيم منهم وان يحملوا الرسالةالتي انتهت عندها الرسالات وان يجعل الله لغتهم العربية لغة هذه الرسالة الانسانية حتي اصبح بين القرآن والامة العربية ولغتها صلة لاتنفصم ورابطة لاتنحل هي الصلة بين رسالة انسانية وامة مبلغة ولغة معبرة وان اهمال ماللعرب من موضع خاص في بناء الاسلام، في فهم كتابه وتنفيذ مبادئه، وما للغتهم من منزلة في فهم القرآن، جهل بالاسلام وتاريخه واضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها كما ان فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه هو فصلهم عن تاريخهم وعن روحهم المتأصلة وينبوعهم الاصيل وتشويه وبتر لشخصيتهم ورجوع بهم عن مرحلة الرسالة الانسانية ، رجوع الى مراحل خلفوها وراءهم ولاتزال كثير من الامم الراقية واقفة عندها، ولا يفعل هذا الا جاهل معرق في الجهل او شعوبي حاقد .

وخلاصة القول ان القرآن في مبادئه ومثله يخاطب الناس جميعاً ويتوجه الى البشرية على مر العصور فهو كتاب الانسانية المعجز وهو في الوقت نفسه كتاب العرب الخالد الذي يصلهم من جهة بالانسانية ومبادئها ويصلهم من جهة اخرى بالله الخالق الحكيم الذي «انزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » فالقرآن الهي في مصدره انساني فى مبادئه ورسالته عربي في خطابه وتعبيره .

١٩٥٩/٣/٢٣

٧

إشتراكية الإسلام

للدكتور مصطفى السباعي

استاذ في كلية الشريعة

مما يتميز به عصرنا الذي نعيش فيه ، أنه عصر الاشتراكية ، فكثير من الدول تدعيها ، والاحزاب المنتمية اليها منتشرة في اكثر بلاد العالم ، وجماهير الشعوب تحلم بها وتتحمس لها ، واكثر مفكري العالم يرونها الطريق الوحيد للخلاص مما يعانيه الجنس البشري من اضطراب اقتصادي وشقاء اجتماعي ، ولكن ما هي الاشتراكية ؟

إنها – كما تعلمون – متعددة المذاهب من متطرفة الى أقصى اليسار كالشيوعية ، ومن معتدلة ، ومن قريبة الى اليمين ، وأجمل ما قيل في تصوير هذا التعدد ، أنها تشبه مخلوقاً له عشرون رأساً ، ولست الآن في صدد التحدث عن مذاهبها والفروق بينها ، فذلك ما لا يتسع له وقت كوقت حديثنا هذا ، ويكفينا أن نقول : إنها جميعاً تشترك في الايمان بوجوب اشراف الدولة على استثمار المال في المجتمع ، وتحقيق التكافل الاجتماعي لجميع أبنائه ، حتى يتسنى لهم الاشتراك في حياة تضمن فيها كرامة الانسان ، واطمئنانه الى حاضره ومستقبله .

ونحن كأمة لها تشريع عالمي انساني ، وحضارة أضاءت للعالم طريقه عشرة قرون أو تزيد ، وهي الآن تتأهب للقيام بدورها الحضاري من جديد ، من

حقنا أن نتساءل : ما هو موقف الاسلام من الاشتراكية الحديثة ؟ إن بعض الناس يزعمون أن الاسلام بعيد عن « التفكير » الاشتراكي ، لانه أقر « الملكية الشخصية » وسمح « بالارث والملكيات الزراعية الكبيرة » بل قد زعم بعض الناس أن الاسلام « رأسمالي » يسمح للغني أن يتصرف بماله كما يشاء ، وقد التقى على هذا الزعم أعداء الاسلام من دعاة الشيوعية ، مع بعض أتباع الاسلام تملقاً للاقطاعية والرأسمالية .

فما هو الحق في هذه المسألة ؟ إن الجواب عنه هو موضوع هذا البحث ، وسنرى أن ذينك الفريقين من أعداء الاسلام وأبنائه قد ظلماه ظلماً كبيراً ، وأن له « اشتراكية » واضحة المعالم ، ثابتة الدعائم ، تتميز عن كل المذاهب الاشتراكية الحديثة في جملة مبادئها ، وأكثر قوانينها وتشريعاتها .

إن « اشتراكية » الاسلام تتألف من :

١ – حقوق طبيعية لكل مواطن .

٢ – قوانين لضمان هذه الحقوق وتنظيم طرقها .

٣ – قوانين للتكافل الاجتماعي .

٤ – المؤيدات .

وسنبحث في عناصر هذه « الاشتراكية » بحثاً موجزاً نُلم فيه بخطوطها الكبرى ، تاركين تفصيلها وشرحها الى كتابنا الكبير الذي وضعناه لشرح هذه النظرية ، ونرجو أن يتم طبعه قريباً إن شاء الله .

١ – الحقوق الطبيعية

١ – حق الحياة

الحياة منحة الله للانسان ، لا يملك أحد انتزاعها إلا بحق ، وهو حق المجتمع « انا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون [١] » ولذلك فالعدوان على حياة انسان هو عدوان على المجتمع كله « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً [٢] » وعدوان الانسان على نفسه بالانتحار جريمة اجتماعية ، وفيها من تحدى الله في قضائه وسلطانه ما يستوجب العذاب الأليم في الحياة الأخرى « ولا تقتلوا أنفسكم . . ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً [٣] » .

ويتفرع على تقرير حق الحياة أحكام كثيرة منها :

١ – كل ما يتصل بالحياة ويؤدي الى بقائها ففعله واجب ، فصيانة الصحة العامة ودفع الأمراض ومكافحة الأوبئة واجب لصيانة الحياة .

٢ – كل ما يتلف الجسم ويفوّت الحياة أو يضعفها فهو محرم ، كالسكر وتناول ما يضر الجسم ، حتى العبادة لا يجوز الاغراق فيها بحيث يضعف الجسم عن القيام بواجباته « ان لنفسك عليك حقاً وإن لجسمك عليك حقا [٤] » « نفسك

---

(١) الحجر : ٢٣

(٢) المائدة : ٣٢

(٣) النساء : ٢٩ ، ٣٠

(٤) رواه البخاري وغيره

مطيتك فارفق بها[١] » .

٣ – كل مايحفظ الحياة فتناوله واجب كالطعام والشراب واللباس « كلوا واشربوا ولا تسرفوا[٢] » .

٤ – كل ما يدفع الموت عن الانسان ففعله مباح ، بل هو واجب اذا توقف دفع الموت على فعله ، فمن ُغص ّ حتى خشي على نفسه الموت ولم يجد ماء ً، جاز له أن يشرب الخمر ، بل يجب عليه ذلك . ومن وجد الطعام في نافذة وليس له مايوصله إليه إلا كتب العلم أو الحديث أو المصاحف كان له أن يصعد عليها ليتناول الطعام اذا خشي على نفسه الموت[٣] .

٢ – حق الحرية

يقرر الاسلام حق الحرية لكل انسان منذ ولادته ، وكل انسان تلازمه الحرية بفطرته ، ومن هنا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » ولا تنتزع من الانسان حريته إلا في ظروف طارئة تقتضيها حالة الدفاع المشروع عن حرية الأمه وكيانها ، حين يكون الاعداء ينتزعون من الامة حريتها عند انتصارهم عليها ، وبهذا كان الرق في الاسلام « جائزاً » لا واجباً في حال انتصار الامة على الاعداء في العصور القديمة معاملة لها بالمثل ، وحين يفرض الرق على الاعداء المغلوبين يكون ذلك انتزاعاً « حكمياً » مؤقتاً للحرية ، ومن هنا يعرف الفقهاء الرق بأنه عجز « حكمي » أي لا حقيقي

---

(١) ذكره السرخسي في شرح كتاب الكسب للامام محمد بلفظ « نفس المؤمن بطنته » وهو خطأ مطبعي وصوابه « مطيته » انظر المبسوط : ٢٠٥/٣٠

(٢) الاعراف : ٣١

(٣) ابن عابدين : ٢١٥/٥

وحرية الانسان تعني نفي عبوديته لأحد أو لشيء في الدنيا إلا لله وحده، وبذلك كان شعار الاسلام « لا إله إلا الله » وكان شعار المسلم « إياك نعبد وإياك نستعين » يقولها في اليوم ثلاثين مرة في صلاته ، وبذلك يتحرر الانسان من كل طغيان ومن كل قيم الحياة وأهواء النفس الباطلة ، وعبودية الانسان لأهوائه شر أنواع العبودية ، وفي ذلك ينكر القرآن على مثل هؤلاء عبوديتهم فيقول : « أرأيت من اتخذ الهه هواه ؟[١] »

وأساس الحرية حرية الفكر ، وعنوانها حرية العقيدة « لا اكراه في في الدين[٢] » وحرية الانسان في وطنه « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين[٣] » ولا قيمة لوطن يستعبد فيه أهله ويستذلون . « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟[٤] » وحرية المواطن في النقد الاجتماعي « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر[٥] » وحريته في نقد الآراء واختيار أحسنها « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه[٦] » .

وهذه الحرية مقيدة بمصلحة الجماعة كشأن كل حق طبيعي ، يخضعه الاسلام لمصلحة الجماعة .

---

(١) الفرقان : ٤٣

(٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) القصص : ٥

(٤) النحل : ٢٨

(٥) الحج : ٤١

(٦) الزمر : ١٨

٣ ـ حق العلم

يوجب الاسلام على الناس ان يطلبوا العلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم[١] » وعلى الجاهل أن يسأل العالم عن كل مالا يعلمه « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون[٢] » وليس في المجتمع ـ الذي يريده الاسلام ـ الا عالم أو متعلم ، أما الجاهل فلا مكان له في ذلك المجتمع « الناس اثنان عالم أو متعلم ولا خير فيمن عداهما[٣] » بل القرآن ينفي عن الجاهل العقل « تلك الآيات نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون[٤] » ولا يقر الاسلام وجود الجاهلين بجانب العلماء ، بل عليهم ان يتعلموا منهم ، وعلى العلماء ان يعلموهم . خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال اقوام لايتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن أقوام جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون او لأعاجلنهم العقوبة ، ثم نزل ، فعلم صحابته انه انما أراد بذلك الاشعريين وهم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والاعراب ، فبلغ ذلك الاشعريين فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا يارسول الله ، ذكرت أقواماً بخير وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ فقال عليه السلام : ليعلمن قوم جيرانهم . . وليتعلمن قوم من جيرانهم . . أو لأعاجلنهم العقوبة ! أعاد نفس الكلام السابق ، ثم سألوه ليعلموا اهل هم المرادون من هذا الانذار ؟ فأعاد عليهم نفس الانذار السابق على عمومه ، اشعاراً منه بأنه يضع مبدءً لا يتقيد بجماعة معينة

---

(١) رواه البيهقي والطبراني
(٢) النحل : ٤٣
(٣) رواه الطبراني
(٤) العنكبوت : ٤٣

ولا زمن معين ، بل هو عام لكل جماعة في كل زمن ، فلما أيقنوا ذلك قالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم ثم قرأ عليه السلام : « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه[١] » وهذا صريح في أن الاسلام يعتبر الجهل منكراً لايحق للدولة ان تقره ، وان على الدولة أن تحمل العلماء على التعليم والجهال على التعلم ، فاذا تخلف العلماء عن واجبهم في التعليم ، والجهال عن واجبهم في التعلم ، تفرض الدولة من العقوبات عليهم ماتزيل به آثار الجهل من المجتمع ، وهذا فيما نعلم أول حرب في التاريخ تعلن لمكافحة الامية ويحمل لواءها نبي أمي ، ان ذلك لعجيب !..

وبهذا تعلن اشتراكية الاسلام حق كل انسان في التعلم ، ووجوب ذلك عليه ، ويجمع الفقهاء على ان من العلم ماهو فرض عين على كل انسان، وهو كل علم يحتاج اليه في شؤون دينه ودنياه ، ومنه ماهو فرض كفاية ، والقاعدة فيه أن كل مايحتاج اليه المجتمع من علوم نظرية أو عملية ، يجب أن يكون في المجتمع من يعلمها حتى تندفع حاجة المجتمع اليها .

وقد تفرع على اعتبار العلم حقاً من الحقوق الطبيعية ، أن قرر الفقهاء أن نفقة طالب العلم الفقير واجبة على ابيه أو قريبه الموسر كنفقة الطعام واللباس والسكنى[٢] . وقرروا أيضاً أن كتب العلم من الحوائج الاصلية للانسان فلا زكاة عليها مهما بلغت قيمتها — مالم تكن للتجارة — قال ابن عابدين رحمه الله

---

(١) الآية في سورة المائدة : ٧٨ والحديث رواه الطبراني وانظره مطولاً في مجمع الزوائد : ١ / ١٦٤

(٢) انظر ذلك في بحث النفقات من شرح قانون الاحوال الشخصية للمؤلف : ١ / ٢٢٧

في تعليل ذلك: لان الجهل عندهم — عند العلماء — كالهلاك [١] .

ونحب ان نلفت الانظار الى ان الاسلام لايعتبر العلم الا ما كان يقينياً عن طريق من الطرق الثلاثة: طريق الخبر الصادق، وطريق التجربة المشاهدة، وطريق العقل والمنطق، وبهذا صرحت الآية: «ولاتقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا [٢]».

وهذا فيما نعلم أول تحرير لحقائق العلم من الاوهام والظنون، وأول بناء للعلم على قواعد التجربة والعقل واليقين.

٤ — مبدأ الكرامة

يقول الله تعالى: «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً [٣]» وهذا نص صريح في ان الانسان من اكرم المخلوقات، وان كرامته ثابتة له بوصفه انساناً «بني آدم» أي بقطع النظر عن دينه او أصله أو لغته أو بيئته، قال الآلوسي في تفسيرهذه الآية: «أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن [٤]» ونرى ان لفظ «كرمنا» من الكرامة لامن الكرم.

وهذه الكرامة لبني آدم تستلزم تساويهم في كل مظاهر الكرامة الانسانية.

---

(١) رد المحتار: ٦/٢
(٢) الاسراء: ٣٦
(٣) الاسراء: ٧٠
(٤) روح المعاني: ١١٧/١٥

من صيانة العرض ، وحفظ المكانة ، وتيسير العيش ، وحق الاحترام ، فلايزري انسان بانسان ولايسخر قوم من قوم : «ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب [١] » فالناس جميعاً من أب واحد وأم واحدة « يا أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب [٢] » فاذا تعددت لغاتهم وتباينت أصولهم بعد ذلك، فسبيل هذا التباين هو التعاون لا النزاع ، وهم أمام الحق والقانون سواء « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم [٣] » وليست التقوى هنا صلاة وصياماً فحسب ، وانما هي فعل الخير للنفس وللناس جميعاً ، فمن كان أكثر خيراً لنفسه ولمجتمعه كان أكثر — عند الله — فضلاً « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله [٤] ».

والناس قد يتميز بعضهم عن بعض بالذكاء أو العمل أو النفع العام ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم [٥] » ولكن هذا سبيل للتفاضل عند الله وفي تقدير المجتمع تقديراً أدبياً كريماً ، وفي مطالبة أصحاب المواهب بأن يستعملوها في خدمة أمتهم ومصلحتها ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية السابقة « ليبلوكم فيما آتاكم »

---

(١) الحجرات : ١١

(٢) من خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع ، رواه البزار

(٣) الحجرات : ١٣

(٤) رواه البزار وأبو يعلى .

(٥) الانعام : ١٦٥

أما بالنسبة الى القانون فهم سواء، فالعالم اذا قتل جاهلاً يقتل به ولا عبرة بامتيازه عليه بالعلم، والجاهل اذا قتل عالماً يقتل به وحده ولا يؤخذ معه غيره «النفس بالنفس [١]» فلا نظر هنا حين تنفيذ القانون الا الى نفس قتلت نفساً، وان كانت النفسان متفاوتتين في نفع المجتمع وافادة الناس.

وهذا التفاوت في المواهب والكفاءات والطباع والامكانيات هو سنة من سنن الحياة في عمران الكون، به يخدم الناس بعضهم بعضاً، كلٌ فيما يستطيعه ويحسنه، فابن المدينة مسخر لابن القرية في جلب مايحتاج اليه من سلع وحاجيات، وابن القرية مسخر لابن المدينة في انتاج مايحتاج اليه من مواد غذائية، والأب مسخر لأولاده يطعمهم ويربيهم، والآباء مسخرون لآبائهم يعينونهم ويخدمونهم، وهكذا شأن الناس بعضهم مع بعض، وبذلك نطقت الآية الكريمة «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً [٢]» اي ليستخدم بعضهم بعضاً.

وبهذا يضمن تعاون المجتمع مع تعدد فئاته، وتفاوت أحوال ابنائه، ويتساوون جميعاً في الواجبات الاجتماعية والكرامة الانسانية من غير استثناء، فليس في الاسلام رجال دين لايخضعون للقانون، وليس فيه أشراف لايؤدون عملاً، وليس فيه أمراء لاتطولهم سلطة الدولة، وليس فيه أغنياء، لايدفعون ضريبة ولا يبذلون جهداً، بل الكل شعب واحد وقانون واحد، رئيس يخدم الشعب، وشعب يؤازر رئيسه ويطيعه، وشعار الحكم فيه ما أعلنه أبو بكر يوم ولي الخلافة «وليت عليكم ولست بخيركم.. القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق».

---

(١) المائدة: ٤٥

(٢) الزخرف: ٣٢

٥ ــ حق التملك

حين يقرر الاسلام لكل انسان حق الحياة وحق الحرية وحق العلم وحق الكرامة ، وحين يقرر مع هذا أن مافي الكون مسخر للناس جميعاً « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه »[١] حين يقرر الاسلام هذا كله انما يقرر حقاً خامساً لكل انسان وهو حق التملك ، ففي جو **الحياة الحرة العالمة الكريمة** يندفع الناس الى العمل ليكسبوا مابه قوام حياتهم ومعيشتهم ، لايوصد باب العمل دون واحد منهم ، ولا تستأثر بخيرات الدنيا فئة منهم ، لكل انسان منها بحسب طاقته وجهده وكفاءته « وان ليس للانسان الا ما سعى »[٢] فاذا حاز شيئاً منها كانت هذه الحيازة حقاً لاينازع فيه ولا يُغلب عليه .

القوانين المنظمة لهذه الحقوق

وحين تقرر اشتراكية الاسلام هذه الحقوق الطبيعية الخمسة لكل انسان ، تشرع له القوانين التي تنظم كل حق من هذه الحقوق وتضمن تأمينها لكل انسان على أكمل وجه وأتمه ، ومن هنا جاء في الاسلام القانون الجنائي والقانون الصحي لتنظيم حق الحياة ، وقوانين الحكم والتوجيه الاجتماعي والقانون الدولي لتنظيم حق الحرية ، وقوانين التعليم والتربية لتنظيم حق العلم ، وقوانين متعددة لتنظيم حق الكرامة ، وقوانين المعاملات من بيع ورهن واجار وغير ذلك لتنظيم حق التملك ، كما شرعت العقوبات المتنوعة لكل من يعتدي على حق من هذه الحقوق ، والمراد بالقانون مجموعة الأحكام المتعلقة بموضوع واحد[٣] .

---

(١) الجاثية : ١٢ ، ١٣ (٢) النجم : ٣٩

(٣) وقد استعمله فقهاؤنا الاقدمون بهذا المعنى . فابن جزّي ألف كتاباً في الاحكام الفقهية على مذهب مالك باسم « القوانين الفقهية » وكذلك استعمله القاضي أبو يعلى في كتابه « الاحكام السلطانية » انظر ص : ٢٢٠٢١

وسأكتفي الآن بالاشارة الى المبادىء التي تقوم عليها قوانين التملك في اشتراكية الاسلام لأن ذلك أمس بالموضوع الذي نتحدث عنه .

٢ – مبادىء التملك

١ – الكون كله لله

قال تعالى : « لله ملك السموات والأرض [١] » « لله ما في السموات والأرض [٢] » . وهكذا تتوارد نصوص القرآن على أن كل مافي الكون من أموال ومنافع وأرض وبحار وشموس وأقمار ، ملك لله لاينازعه فيه أحد ، وليست لهذه الملكية نتائج حقوقية ، وانما هي لتحقيق غرضين ضروريين في هذا الصدد :

أولهما : نفي الغرور عن قلوب الناس حين يحوزون الأموال ، ويسعون وراء الثروة ، والغرور مبدأ شرور الحياة في المجتمع ، فاذا تذكر المؤمن دائماً أن مالك الملك هو الله وحده ، تطامنت نفسه وقلّ غروره .

ثانيهما : أن يلزم الناس بالتقيد بقوانين الشريعة في التملك طبقاً لما يريده صاحب الملك وهو الله عز وجل .

٢ – الكون مسخر للانسان

قال تعالى : « وسخر لكم الفلك ليجري البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار

---

(١) الشورى : ٤٩

(٢) البقرة : ٢٨٤

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »[١] « سخر لكم مافي الأرض »[٢] « سخر لكم مافي السموات »[٣] قال علماء اللغة : « السخرة ماسخرت من خادم أو دابة بلا أجر ولا ثمن، وسخرته في العمل استعملته مجاناً، وسخر الله الأبل ذللها وسهلها » هذا المبدأ ــ مبدأ تسخير الكون للناس ــ يؤدي غرضين مهمين أيضاً :

أولهما : أنه ليس في الكون شيء لايصعب على الانسان تناوله ، اذا أعمل عقله وعلمه ، ووجه لذلك همه وارادته ، فما على الانسان بعد أن ذلل الله له الكون إلا أن يجتهد في الانتفاع منه واستثمار خيراته .

ثانيهما : أن الناس متساوون جميعاً في الاستفادة من خيرات الأرض والسماء، مادام الخطاب للناس جميعاً ، والله قد بذلها لهم من غير ثمن ، وذللها لهم من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة .

٣ ــ المال وسيلة للخير

ليس المال غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيراً له وللمجتمع ، ومن استعمله على أنه غاية ولذة ، انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك ، وتفتح على الناس ابواباً من الفساد . وللاشارة الى هذا المبدأ الخطير من مبادىء التملك ، عبر القرآن عن المال بالخير في مثل قوله تعالى : « كتب عليكم ــ اذا حضر أحدكم الموت ــ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف »[٤] قال المفسرون :

---

(١) ابراهيم : ٣٢ . ٣٣

(٢) الحج : ٦٥

(٣) الجاثية : ١٣

(٤) البقرة : ١٨٠

المراد بالخير هنا المال ، وهذا بلاشك تنبيه الى وجوب الحصول على المال من طريق الخير ، واستعماله في طريق الخير ، وبوصفه خيراً رغب الاسلام في تملكه « نعم المال الصالح للرجل الصالح »[١] والمال الصالح هو الذي لم يجمع من طريق فيه ظلم ولا خداع ، والرجل الصالح هو الذي ينفق ماله في سبيل الخير والصلاح. ويشير القرآن الى أن الناس – في الأكثر الأغلب – ينظرون الى المال على أنه شهوة « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة[٢] » وبهذا الوصف يكرهه الاسلام . وهو بهذا سبب شقاء الأمم والشعوب.

٤ – الفقر مرض اجتماعي

اذا كانت خيرات الارض في متناول الناس جميعاً ، وكان كل انسان قد قدر الله له من خيرات الكون رزقاً ونصيباً « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها[٣] » وكان المال وسيلة الى الخير وتيسير المنافع الناس ، كان من واجب الانسان أن يسعى ليكتسب ويحصل على المال ، ولاعذر لاحد في ترك العمل بحجة ان الله قد كتب عليه الفقر ، أو أنه غير محظوظ ، أو أن ظروف الحياة القاسية تقف عقبة كأداء في وجهه دون السعي والعمل ، فالفقر مرض اجتماعي وليس قدراً مقدوراً لا حيلة في دفعه بسعي أو كسب ، لقد أمر القرآن بالسعي في الارض « وهو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه[٤] » فلا يكون الفقر بعد ذلك إلا لاحد أمرين : إما كسل وخمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما لعجز عن العمل أو فقدان وسائل العمل ، وهذا

---

(١) رواه البخاري في الادب المفرد : ٨٤

(٢) آل عمران : ١٤

(٣) هود : ٦

(٤) الملك : ١٥

قد وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعي مايدفع بؤسه ويحفظ له كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله عليه الصلاة والسلام : « كادالفقر ان يكون كفراً [١] » وكان من دعائه عليه السلام : « اللهم اني اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل ، واعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق ، واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسيء الاسقام [٢] » وفي دعاء آخر للرسول عليه السلام : « اللهم اني اسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى [٣] » وهذا انتقال من موقف السلبية تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الغنى . وان في طلب الرسول للغنى وهو قدوة الزهاد في الدنيا ، لدلالة بعيدة الاثر في هذا المقام .

٥ ــ العمل أهم وسائل التملك

لتملك المال وسائل من أهمها في نظر الاسلام العمل « إن أفضل الكسب كسب الرجل من يده [٤] » ولا يجوز لاحد أن يسأل الناس وهو قادر على الكسب ، وبذلك كان العمل في الاسلام شرفاً وواجباً .

٦ ــ تأميم المواد الضرورية

ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار [٥] » وفي حديث آخر « والملح » ويلاحظ أن هذه الاشياء مواد

---

(١) رواه ابو نعيم في الحلية

(٢) رواه الحاكم والبيهقي

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه

(٤) رواه البخاري

(٥) رواه احمد وابو داوود

ضرورية لحياة الناس وخاصة سكان الصحراء في تلك العهود ، وليس النص على هذه الاشياء للحصر ، بل قواعد الشريعة تقضي بأن كل ما كان مثل هذه المواد ضرورياً للمجتمع لايصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه اذا كان ينشأ عن احتكارهم له استغلال حاجة الجمهور اليه ، بل يجب ان تشرف الدولة على استثماره وتوزيعه على الجمهور .

٧ — طرائق التملك

يسمح الاسلام بكل طريق يسلكه الانسان للتملك إلا ما كان عن الطرق التالية :

١ — **الظلم** ، ولذلك حرم الاسلام الربا والقمار والاحتكار والغصب والسرقة وماأشبه ذلك .

٢ — **الغش** ، ولذلك حرم الاسلام التغرير عند البيع كما حرم اخفاء العيب في السلعة والكذب في رأس المال وغير ذلك من البيوع والعقود المحرمة التي التي يقع فيها الغش والخداع

٣ — **الاضرار** ، سواء كان اضراراً بالفرد ، أو اضراراً بالمجتمع ، او اضراراً بكيان الدولة العام ، ولذلك حرم الاسلام أجر البغي ، والاتجار بالخمر ، والاتجار مع العدو ، وهكذا . .

٨ — التملك وظيفة اجتماعية

كما يفرض الاسلام رعاية مصلحة المجتمع عند تملك المال ، يفرض رعاية مصلحة المجتمع أيضاً بعد التملك ، لان المال لله ، والانسان مؤتمن عليه « وأنفقوا مما

جعلكم مستخلفين فيه[١] » فيد المالك يد استخلاف ، والله جعل المال وسيلة للخير ، فلا يصح أن يستعمل الا في الخير أي مصلحة المجتمع ، وبذلك تكون الملكية الشخصية – في نظر الاسلام – وظيفة اجتماعية .

٩ – الحجر على السفهاء

يحتم الاسلام أن ينفق الانسان من ماله على نفسه في حدود الاعتدال لا سرف ولا تقتير « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا[٢] » فان بذر وأخذ في في تبديد ثروته على أهوائه وملذاته وجب الحجر عليه لانه سفيه ، والحجر هو منع الدولة لهذا السفيه أن يتصرف في ماله كالعقلاء الراشدين ، واقامة قيم عليه يمنعه من التصرف حتى يفيء الى رشده ، وأصل هذا قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً[٣] » ويلاحظ في هذه الآية اضافة أموال السفهاء الى المجتمع (أموالكم) ثم وصفها بأن المجتمع قيم عليها (التي جعل الله لكم قياماً) وهذا دليل واضح على ماقلناه في المبدأ السابق من ان التملك وظيفة اجتماعية .

١٠ – كراهية تكدس الثروات

يكره الاسلام تكدس الثروات في أيد قليلة في المجتمع لما يؤدي اليه ذلك من ترف وافساد واستغلال ، يقول الله تعالى في وجوب اعطاء الفقراء نصيباً من الغنائم « كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم[٤] » ولما جرى الخلاف بين

---

(١) الحديد : ٧
(٢) الأعراف : ٣١
(٣) النساء : ٥
(٤) الحشر : ٧

الصحابة في تقسيم أراضي العراق والشام على الفاتحين في عهد عمر، كان رأيه عدم تقسيمها وابقاءها في أيدي المغلوبين على أن يكون عليهم خراجها، ووافقه على ذلك بعض الصحابة ومنهم معاذ بن جبل الذي قال لعمر «انك ان قسمتها صار الريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك الى الرجل الواحد أو المرأة[١]» أي وبذلك يقع ما كرهه الاسلام من تكدس الثروات في أيد قليلة كما تدل عليه الآية المذكورة.

١١ ــ الملكية المشروعة مصونة

فإذا جمع المال من الطريق المشروع، وأنفق منه صاحبه بالاعتدال، كان مابقي منه في يد صاحبه مصوناً تحميه الدولة وقوانينها، وعلى المجتمع أن يحترم ملكيته لذلك المال «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل[٢]» ولا تمسه الدولة إلا لحق الشعب وضرورات المجتمع كما سيأتي.

١٢ ــ وجائب التكافل الاجتماعي

ومع احترام الاسلام للملكية الشخصية، فقد جعل في الثروات الخاصة حقوقاً للشعب تأخذها الدولة من تلك الثروات، لتحقيق التكافل الاجتماعي وغيره مما تحتاجه الدولة، ولذلك جاءت فريضة الزكاة وغيرها مما سنعلمه بعد عند بحث قوانين التكافل الاجتماعي.

١٣ ــ مشروعية الارث

اذا بقي لدى صاحب المال شيء فائض عن حاجة صاحبه وحاجة المجتمع، ثم

---

(١) الاحوال لابي عبيد: ص ٥٩

(٢) البقرة: ١٨٨

أدركه الموت فقد انتقلت ملكية ذلك المال الى ورثته ، وهنا يجيء قانون الارث مبيناً كيفية تقسيم هذا المال بين الورثة ، ويلاحظ على قانون الارث في الاسلام أنه يشرك عدداً كبيراً من أقرباء الميت في التركة ، ولا يحصره في طبقة معينة منها كما هو شأن أنظمة الارث في اكثر شرائع العالم ، وهذا مما يؤدي حتما الى تفتيت الثروات مهما كانت كبيرة وتقسيمها الى ملكيات صغيرة .

١٤ — حق الخزانة العامة

اذا مات المالك عن غير وارث انتقلت ملكية المال الى الدولة وكان من موارد بيت المال التي تنفق لتحقيق التكافل الاجتماعي .

يتضح مما ذكرناه من تقرير الحقوق الطبيعية ، ومن مبادىء التملك أن الاسلام قرر من الحقوق ما تتحقق به تكافؤ الفرص لدى كل انسان ، كما جعل من اشراف الدولة على تملك المال ووجوه انفاقه ما يجعل هذا التكافؤ حقيقة واقعة في المجتمع ، وقد قلنا ان هذا هو هدف الاشتراكية في جميع مذاهبها ، وبهذا يثبت أن في الاسلام « اشتراكية » ولكنها من نوع متميز عن جميع المذاهب الاشتراكية المعروفة ، فلنتابع التعرف على ملامح هذه « الاشتراكية » واضحة جلية في قوانين التكافل الاجتماعي .

٢ — التكافل الاجتماعي

يعتبر الاسلام المجتمع وحدة متماسكة ، ما يصيب بعضه يصيبه كله ، ولا تكون قوته بقوة أفراده ، وقد جاء في ذلك قوله تعالى : « انما المؤمنون إخوة » [1]

---

(١) الحجرات : ١٠

وقوله عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالحمى والسهر [١] » وشعار المجتمع الذي يريده الاسلام « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » [٢] ولتحقيق هذا التعاون والتكافل تقصى الاسلام كل الفئات التي تحتاج الى عون المجتمع وعنايته فشرع لها من القوانين مايحقق لها حياة كريمة لا ينقصها حق من الحقوق الخمسة التي تقوم عليها اشتراكية الاسلام . وهنا يأتي الحديث عن قوانين التكافل الاجتماعي في الاشتراكية الاسلامية .

تنقسم هذه القوانين الى نوعين :

أ ـ قوانين التكافل الاجتماعي

وهي التي تنص على الرعاية الواجبة وتحقيق التكافل الاجتماعي لكل فئة من الفئات التالية :

١ ـ الفقراء ، ٢ ـ المرضى ، ٣ ـ العميان ، ٤ ـ المقعدين ، ٥ ـ العجزة ٦ ـ المشردين ، ٧ ـ اللقطاء ، ٨ ـ اليتامى ، ٩ ـ الاسرى

وقد وضع الاسلام لكل فئة من هذه الفئات قانوناً يصون كرامتها، ويضمن حقها في التكافل الاجتماعي . وسنشرح هذه القوانين واحكامها في كتابنا الشامل عن هذه النظرية ان شاء الله ، ومن هذا النوع قوانين لاعانة فئات قد لاتتصف بالفقر ، ولكنها تحتاج الى بعض المساعدات الاجتماعية ، من ذلك :

---

(١) رواه مسلم واحمد

(٢) المائدة : ٢

۱۰ – قانون التكافل الفردي

وهو يشمل :

۱ – **المدين** اذا لزمته الديون بسبب التجارة ، أو بسبب بعض الاعمال الاجتماعية ، كما اذا تحمل زعيم في منطقة ما ، ديات القتلى من المتخاصمين لصيانة الدماء وإحلال الوئام محل النزاع ، أو تحمل الاموال لعمل المبرات والخيرات الاجتماعية ، فإن ديونه تسدد من حق بيت المال وهو داخل في قوله تعالى « والغارمين »

۲ – **القاتل** اذا قتل خطأ ، فان دية القتيل لا يتحملها وحده ، بل تتحملها عاقلته وهم عصبته من أقربائه او أهل ديوانه أو أهل نقابته ، على تفصيل يعرف في موضعه من كتب الفقه .

۳ – **المنقطع** في بلد غير بلده ، ويسمى « ابن السبيل » فيعان حتى يصل الى بلده ولو كان فيها غنياً .

۱۱ – قانون الضيافة

وحكم الضيافة في الاسلام أنها واجبة – عند بعض العلماء – أو سنة عند أكثرهم ، لليلة واحدة بإكرام زائد ، ثم لثلاثة أيام بالحالة المعتادة ، وما زاد على ذلك فهي متوقفة على ارادة من ينزل عليه الضيف ، وأصل ذلك قوله عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة ايام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوي عنده (يقيم) حتى يحرجه »[۱] قال مالك في قوله عليه السلام : « جائزته يوم وليلة » يتحفه ويكرمه ويخصه يوماً وليلة ، وثلاثة أيام ضيافة .

---

(۱) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

وقال ابن حزم : الضيافة فرض على البدوي والحضري يوم وليلة مبرة وإتحاف ثم ثلاثة أيام ضيافة[١] .

وقد كانت الضيافة في العصور الماضية ضرورة من الضرورات الاجتماعية وخاصة في القرى والصحارى تأميناً لهذا الحق الاجتماعي وهو الأكل والمبيت للمسافرين ، وقد كانت تفرض في معاهدات الصلح ولهذا دلالته الكبيرة .

ولا تزال كذلك في عصرنا الحاضر في بعض الحالات كالقرى النائية او الصغيرة التي ليس فيها فنادق أو مطاعم ينام فيها المسافرون ويأكلون .

١٢ — قانون المشاركة

وذلك حين يحين وقت المواسم الزراعية وخاصة الثمار والفواكه . فان من حق المواطنين الذين لا يجدون ما يشترون به الثمار إبان قطفها لغلاء ثمنها أن يأكلوا منها من غير ثمن . وأصل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » وقد نقل القرطبي عن بعض الصحابة والتابعين القول بذلك ، ورواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، وقال مجاهد : اذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل واذا جذذت فألق لهم من الشماريخ ، واذا درسته وذريته فاطرح لهم منه[٢] وكان الصحابة في عهد الرسول ﷺ يأتي كل واحد من اصحاب النخيل ، بقنو (العذق كالعنقود من العنب) عند جذاذه ثم يعلقه على باب المسجد يأكل منه من يشاء[٣] .

---

(١) المحلى : ١٧٤/٩

(٢) انظر تفسير القرطبي : ٩٩/٧ ، ١٠٠ وانظر الخراج ليحيي بن آدم القرشي : ١٢٤ والآية في الانعام : ١٤١

(٣) معالم السنن : ٧٥/٢

وكذلك حين تقسم التركة بين الوارثين ويحضرها من لايرث ولو كان غير قريب اذا كان فقيراً، فيجب على الوارثين ان يعطواهؤلاء منها شيئاً عملاً بقوله تعالى « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » قال القرطبي : بين الله تعالى ـ في هذه الآية ـ أن من لم يستحق ارثاً وحضر القسمة ، وكان من الاقارب أو اليتامى والفقراء الذين لايرثون أن يكرموا ولايحرموا ان كان المال كثيراً ، والاعتذار اليهم إن كان عقاراً أو قليلاً لايقبل الرضخ (العطاء) وان كان عطاء من القليل ففيه أجر عظيم ، وقد نقل عن عدد من الصحابة والتابعين والفقهاء القول بهذا ، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية ، فان لم تكن وصية وصل لهم من الميراث . ثم ذكر الخلاف في أن ذلك واجب أو مندوب[١] .

١٣ ـ قانون الماعون

يقول الله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون[٢] » الماعون كل ماينتفع به من شؤون البيت وغيره ويستعيره الناس فيمابينهم كالفأس والقدر والدلو وأمثالها[٣] . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : اي لاأحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا الى خلقه حتى ولا باعارة ماينتفع ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه اليهم . وعن مجاهد قال : على الماعون الزكاة وكذا روي عن علي وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين، وبعد أن ذكر ماجاء من اقوال كثيرة في تفسير الماعون قال : وقال عكرمة

---

(١) انظر تفسير القرطبي : ٥/٨ ، ٩ ؛ والآية في سورة النساء ٨

(٢) سورة الماعون : ٥ ـ ٧

(٣) تفسير ابن كثير : ٤/٥٥٥

رأس الماعون زكاة المال وادناه المنخل والدلو والابرة وهذا الذي قاله عكرمة حسن فانه يشمل الاقوال كلها وترجع كلها الى شيء واحد وهو اي - منع الماعون - ترك المعاونة بمال او منفعة [١].

وقال الخطابي : يقال في تفسير الماعون انه الشيء الذي لا يجوز منعه من الارفاق (المنافع) التي للناس فيها متاع . ثم ذكر حديثاً عن النبي ﷺ « وما من صاحب إبل ولا غنم لا يؤدى حقها الخ » فسئل رسول الله ﷺ : فما حق الابل ؟ قال : تعطى الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتطرق الفحل ، وتسقى اللبن [٢].

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب والحسن وقتادة وغيرهم من فقهاء التابعين أن زكاة الحلي اعارته (الاموال : ٤٣٣)

١٤ - قانون الاعفاف

يقول تعالى : « وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم » [٣] وقد قرر الفقهاء أن الزواج واجب على من كان في حاجة اليه ويخاف على نفسه الوقوع في الحرام ، ثم ان كان فقيراً لا يجد نفقات الزواج وجب على قريبه الموسر تزويجه كما تجب عليه نفقة طعامه ولباسه وسكناه - وهذا هو رأي جمهور العلماء - حتى لو كان له رقيق وجب عليه تزويجهم رجالاً كانوا أم نساءً ، اذا طلبوا ذلك لحاجتهم الى الزواج ، أما الاب فعلى الابن تزويجه اذا احتاج الى ذلك ،

---

(١) المرجع السابق : ٤/٥٠٦

(٢) معالم السنن شرح ابي داود ٢/٧٥ والغزيرة الكثيرة اللبن والمنيحة الشاة اللبون أو الناقة ذات الدر تعار لدرها فاذا حلبت ردت الى ربها ، وافقار الظهر اعارته للركوب حتى يبلغ الراكب حاجته ، واطراق الفحل إعارته للضراب لا يمنعه اذا طلبه ولا يأخذ عليه عسبا

(٣) النور : ٣٢

وعلى الابن نفقة زوجته ايضاً ، وأما الابن فعلى الاب تزويجه في رأي جمهور الفقهاء (انظر احكام ذلك في نظام النفقات من كتابنا شرح قانون الاحوال الشخصية : ١/٢١٩–٢٥١) وسيأتي معنا في فصل الواقع التاريخي بيان ما كان يوقف خاصة لتزويج الفتيان والفتيات الفقراء .

وهناك قوانين للتكافل الاجتماعي في الحالات النادرة والطارئة ، ولنتكلم عنها بكلمة موجزة .

١٥ – قانون الاسعاف

اذا جاع انسان أو عطش أو مرض بحيث أشرف على الهلاك ، وجب على من يعلم بحاله أن يبادر الى انقاذه ، فان كان عنده فضل من طعام أو شراب أو دواء أو مال يشترى به مايدفع الهلاك عن ذلك الانسان وجب ان يدفعه اليه ، فأن امتنع كان لذلك المضطر أن يأخذه منه عنوة ويقاتله عليه ، فان قتل كان على المانع القصاص ، وان قتل المانع لم يكن على قاتله المضطر شيء .. وعلى هذا اتفاق العلماء ، قال ابن حزم : « من عطش فخاف الموت ففرض عليه ان يأخذ الماء حيث وجده وأن يقاتل عليه ، ولا يحل لمسلم اضطر ان يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه ، لأن فرضاً على صاحب الطعام اطعام الجائع ، فاذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فان قتل (الجائع) فعلى قاتله القود (القصاص) وان قتل المانع فالى لعنة الله ، لأنه منع حقاً وهو طائفة باغية ، قال تعالى « فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله [١] » ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق [٢] »

---

(١) الحجرات : ٩

(٢) المحلى : ٦/١٥٦

وهذا انما يتصور في مكان كالصحراء أو حيث لايجد طعاماً ، أو حيث لايقوم بيت المال بواجبه في التكافل الاجتماعي ، أو يتخلى المجتمع عن القيام بهذا الواجب .. وهذا حق لامراء فيه .

ومما يؤيده — عدا عن النصوص والقواعد العامة في الشريعة — ماحدث في عهد عمر بن الخطاب إذ ورد جماعة على ماء ، وكانوا في حالة من العطش أشرفوا فيها على الهلاك هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه ، فلما وفدوا على عمر أخبروه بالامر ، فقال لهم : «هلا وضعتم فيهم السلاح ؟» [١] .

« ومن اشتد جوعه حتى عجز عن طلب القوت ففرض على كل من علم به أن يطعمه أو يدل عليه من يطعمه ، فان امتنعوا من ذلك حتى مات اشتركوا في الاثم قال عليه الصلاة والسلام « ما آمن بي من بات شبعان وجاره الى جانبه طاو (جائع) وقال : اي رجل مات ضياعاً بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله » وكذا اذا رأى لقيطاً أشرف على الهلاك أو أعمى كاد أن يتردى في البئر ، وصار هذا كانجاء الغريق » (الاختيار شرح المختار : ٣/١٢٩)

١٦ — قانون الطوارئ

إذا أصبح العدو يهدد سلامة البلاد ، ولم يكن في خزينة الدولة مايكفي للانفاق على الجيش وتجهيز المقاتلين وشراء السلاح ، وجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر مايندفع به الخطر ، وتأمن الامة على أرواحها وأموالها واستقلالها ، لان الجهاد — في تلك الحالة — واجب بالمال والنفس على كل مستطيع ، وحق الانسان في استبقاء ماله ، بيده ، دون حق المجتمع في الحفاظ على حريته

---

(١) الخراج لابي يوسف ص : ٩٧

واستقلاله ، وفي دفع المواطن قسماً من ماله للجهاد استبقاء لماله كله من أن يأخذه الاعداء اذا تغلبوا ، ومن قواعد الشريعة « يجب دفع الضرر الاعلى بتحمل الادنى » .

وهذا حكم متفق عليه ، قال الغزالي :

« اذا خلت الايدي (أيدي الجنود) من الأموال ، ولم يكن من مال المصالح (أي خزينة الدولة) مايفي بخراجات العسكر (أي نفقات الجيش) وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر (أي حدوث الفتن الداخلية) جاز للامام أن يوظف على الاغنياء (أي يفرض) مقدار كفاية الجند ، لأنا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم (الأغنياء) قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام (أي البلاد) من ذي شوكة (أي الجيش) يحفظ نظام الامور ويقطع مادة الشرور ، ومما يشهد لهذا أن لولي الطفل عمارة القنوات (قنوات الارض الخاصة بالطفل) واخراج أجرة الطبيب وثمن الادوية (أي العائدة للطفل) وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه [١] » .

وقال الشاطبي :

« انا اذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقراً الى تكثير الجنود لسد حاجة الثغور وحماية الملك المتسع الاقطار ، وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند (اى نفقات الجيش) الى ما لا يكفيهم ، فللامام اذا كان عدلاً أن يوظف على الاغنياء

---

(١) المستصفى : ٣٠٣/١ ، ٣٠٤ .

مايراه كافياً لهم (الجيش) في الحال، الى أن يظهر (يوجد) مال بيت المال، ثم اليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك، وانما لم ينقل مثل هذا عن الاولين (في العصور الاسلامية الاولى) لاتساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا فان القضية فيه أحرى، ووجه المصلحة هنا ظاهر، فانه لو لم يفعل الامام ذلك بطلت شوكة الامام، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار، وانما نظام ذلك كله شوكة الامام، فالذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشوكة (اى لو يضعف الجيش عن الدفاع) يستحقرون بالاضافة اليها أموالهم كلها، فضلاً عن اليسير منها، فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم بأخذ البعض من أموالهم فلا يتمارى في ترجيح الثاني عن الاول، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد الخ »[١].

وقد وقع في التاريخ الاسلامي تنفيذ هذا القانون أكثر من مرة، ففي غزو التتار لبلاد الشام، تأهب الظاهر بيبرس لقتالهم، ولكنه كان محتاجاً الى الاموال لتجهيز الجيش والانفاق على المقاتلين، ولم يكن في بيت المال مايقوم بذلك، فاستفتى علماء الشام في جواز أخذ شيء من اموال الشعب لتسديد نفقات الجيش فأفتوه جميعاً بذلك، وكان الامام النووي غائباً فارسلت اليه الفتوى ليوقعها فوافق على فتوى العلماء بشرط أن يرد السلطان بيبرس كل ما عند جواريه وأعوانه من حلي وأموال الى بيت المال[٢].

وكذلك أراد ملك مصر (قطز) التجهز لقتال التتار استجابة لطلب الملك الناصر صلاح الدين الايوبي صاحب حلب والشام يومئذ « فجمع القضاة

---

(١) الاعتصام : ٢/١٠٤

(٢) من اخلاق العلماء : ١٧٩

والفقهاء والاعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضروا وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي قضاة الديار المصرية وغيرهما من العلماء ، وتناقشوا في الامر فكان الاعتماد على مايقوله ابن عبد السلام ،وخلاصة ما قاله: انه اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم (أى جميع أبناء الشعب) قتالهم ، وجاز لكم (الخطاب للملك قطز) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء ،وتبيعوا مالكم من الحوائص [١] المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة [٢] »:

وكذلك الحكم في الكوارث العامة كالفيضانات والزلازل والمجاعة وأمثالها، فان من واجب الدولة أن تسعف المنكوبين « لا بالخيام والدقيق فحسب » بل بتمكينهم من الحياة الكريمة التي يحياها سائر الناس ، ولما كانت خزينة الدولة تعجز في الغالب عن القيام بهذا الواجب الاجتماعي نحو المنكوبين ،فانها تستطيع أن تفرض ضرائب خاصة لهذه النكبات تستوفيها من الاغنياء كلٌ على حسب ثروته ، وهذا واجب التعاون على البر والتقوى الذى أمر به القرآن ، وهو من مستلزمات الاخوة والتماسك الذى يفرضه الاسلام شعاراً للمجتمع ، وتؤيده قواعد الشريعة ونصوصها التشريعية التي سنذكر بعضها فيما يلي :

صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه مدح الاشعريين بقوله :« إن الأشعريين اذا أرملوا في الغزو وفني زادهم ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا

---

(١) جمع حياصة وهي كساء موشى بالذهب يخلعه السلطان على أمرائه وأعوانه في مناسبات خاصة (انظر صبح الاعشى : ٤/٥٥)

(٢) النجوم الزاهرة : ٧/٧٢

ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية فهم مني وانامنهم [١]» والاشعريون قبيلة من العرب ينسب اليهم أبو موسى الاشعري.

وفي الحديث الصحيح : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس او سادس» [٢].

وقد حدث في عهد الرسول ﷺ أن كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب الرسول ﷺ ففني زادهم فأمرهم ان يجمعوا أزوادهم في مزودين وجعل يقوتهم اياها على السواء [٣].

ولما كان عام المجاعة في عهد عمر أرسل الى ولاة الامصار ليمدوه بالطعام والاموال ، فأرسل له كل وال ما استطاع إرساله ، وكان يوزع الطعام على الناس بالسواء ، ومما أثر عنه في تلك المحنة قوله : لو امتدت المجاعة لوزعت كل جائع على بيت من بيوت المسلمين فان الناس لايهلكون على انصاف بطونهم ، ولكن الله كشف المحنة وعاد الرخاء بعد ذلك الى البلاد .

هذا وأمثاله هو السند التشريعي لقانون الطوارىء وأحكامه .

ومن قوانين التكافل الاجتماعي القانون التالي :

١٧ ـــ قانون التعويض العائلي

كان رسول الله ﷺ اذا أتاه فيء قسمه من يومه ، فأعطى الآهل حظين ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه البخاري

(٣) ابن حزم : ١٥٨/٦

وأعطى العزب حظاً واحداً [١]. فهذا هو مبدأ التعويض للزوجة .

وكان الرجل اذا أراد أن يتزوج وليس عنده ما يدفعه مهراً جاء الى الرسول ﷺ يطلب منه المهر الذي يدفعه لزوجته : « جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله اني تزوجت امرأة من الانصار ، فقال عليه الصلاة والسلام : على كم تزوجتها ؟ قال على أربع اواق ! فقال النبي عليه السلام : على أربع أواق ؟ ! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ! ماعندنا مانعطيك ولكن عسى أن نبعثك بعثاً تصيب منه [٢] » .

وروى ابو عبيد أن عمر زوج ابنه عاصماً وأنفق عليه شهراً من مال الله [٣] .

وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزاد الى عطاء أبيه (مائة درهم) وكلما نما الولد زاد العطاء ، وقد جرى عليه من بعد ، عثمان وعلي والخلفاء من بعدهم [٣] .

فهذا هو التعويض للأولاد .

هذا عدا عما هو مقرر في الفقه الاسلامي من أن نصيب الفارس المجاهد في غنائم الحرب أكثر من نصيب الراجل (الماشي) فبعض المذاهب تعطي للراجل سهماً وللفارس سهمين ، وبعضها تعطيه ثلاثة أسهم ، وما ذلك إلا لما يتحمله الفارس من نفقات الفرس ، ولما دون عمر الدواوين كان يعطي الرجل على قدر حاجته كما كان يعطيه على قدر بلائه وخدمته للاسلام .

ومن ذلك يتقرر مبدأ التعويض العائلي على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات .

---

(١) الاموال لأبي عبيد : ٢٣٢

(٢) رواه مسلم

(٣) الاموال لابي عبيد : ٢٣٧

ب — تمويل قوانين التكافل الاجتماعي

تلك القوانين التي وضعها الاسلام لتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين جميعاً ، لابد لها من موارد مالية لضمان تنفيذها وإلا ظلت نظرية بحتة ، وهذا ما عني به الاسلام اتم عناية ، ولذلك جاءت القوانين المالية التالية جزءاً من قوانين التكافل الاجتماعي .

١ — قانون الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث للاسلام . وقد جاء الامر بها مقرونة بالصلاة في نحو من ثلاثين موضعاً ، وتجب في الاموال النقدية وفي عروض التجارة بنسبة ٢,٥ ٪ وفي المواشي بنسبة كتلك النسبة تقريباً ، وفي الزروع والثمار بنسبة العشر في الاراضي المروية من غير كلفة كالتي تروى بمياه الامطار والينابيع ، ونصف العشر في الاراضي التي تروى بآلة ونحوها ، وهي تؤخذ من كل مال بلغ النصاب الشرعي لوجوبها وهو ٢٠ مثقالاً من الذهب (مايعادل ١٢,٥ ليرة ذهبية عثمانية) أو ٢٠٠ درهماً من الفضة (مايعادل ٧٠ ليرة سورية) على أن يكون ذلك قد حال عليه الحول وهو زائد عن حاجات الانسان الاصلية التي يحتاج اليها لمعيشته ، فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن ، والثياب الخاصة للاستعمال ، والقوت المدخر لطعام العائلة ، والسلاح الخاص ، ودابة الركوب ، وكتب العلم — غير المتخذة للتجارة — وآلة العمل اليدوية التي يحتاج اليها المتكسب بيده كالمنشار والقدوم ومقياس الذراع والمتر وأمثال ذلك.

ويلاحظ في الزكاة مايلي :

١ – ان الزكاة يجب أن تصرف لفئات معينة نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل[١] » .

ولا يجوز صرفها لغير هذه الفئات اجماعاً .

٢ – أنها ليست احساناً ولا منة ، بل هي حق اجتماعي تشرف الدولة على استيفائها وتوزيعها كشأن الضرائب التي تأخذها الدولة من المواطنين ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ، « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم[٢] » ونص الشافعي على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفي هذا اخراج للزكاة عن أن تكون مظنة للذلة والمهانة للفقير كما يتوهم بعض الناس .

٣ – ان نصاب الزكاة هو من القلة بحيث يشترك جمهور الشعب في الاسهام بنفقات التكافل الاجتماعي ، ولم تحصر بالاغنياء ذوي الثروات الكبيرة ، وفي ذلك فوائد عظيمة ، أهمها أن تكثير حصيلة الزكاة عن هذا الطريق يؤدي الى توسيع نطاق التكافل الاجتماعي ، ومنها أن اشتراك جمهرة الشعب في تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي يبعث في كل من اشترك بذلك اعتزازاً باسهامه في هذا العمل الاجتماعي ، وشعوراً بالمسؤولية وبأنه عضو عامل في المجتمع يقوم بواجبه نحو اخوانه العجزة والفقراء .

٤ – ان نسبة الزكاة من المال – وهي اثنان ونصف بالمائة – نسبة مقبولة

---

(١) التوبة : ٦٠

(٢) الذاريات : ١٩

تسخو بها النفس طواعية واختياراً ، وهي مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جداً لانها نسبة من رأس المال والربح الناشىء عنه خلال السنة كلها .

٥ ـ ان الزكاة عامل من أهم عوامل توزيع الثروة وانتقالها بين أيدي الشعب خلال سنوات محدودات ، بحيث يكون مايملكه الانسان بعدها ثروة جديدة أنشأها بجهده وعمله .

٦ ـ ان الزكاة عامل كبير من عوامل نشر الالفة والمحبة بين الناس وهو مايحرص عليه الاسلام الذي يقيم وزناً للقيم الاخلاقية الانسانية .

٧ ـ ان زكاة كل بلد توزع فيها نفسها ،فاذا فاضت عن حاجة أهلهاأرسل الفائض الى بيت المال المركزي لينفق على من يستحقونها في البلاد الاخرى ، وهذا عامل من عوامل رفع مستوى الشعب وتحقيق التكافل الاجتماعي في جميع مناطق الدولة في وقت واحد .

٨ ـ ان للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال بحيث لاتطغى على التكافل الاجتماعي النفقات الاخرى للدولة كما يقع الآن في ميزانية الدولة في عصرنا الحاضر .

٢ ـ قانون النفقات

وأكثره يتعلق بنفقات الاقرباء المعسرين من أبوين وأبناء وأخوة وأعمام وغيرهم ـ على تفصيل في المذاهب الاجتهادية ـ اذ تجب نفقتهم على اقربائهم الموسرين كما يتعلق بنفقة الزوجة ، والنفقة تشمل : ١ ـ الطعام ، ٢ ـ اللباس ، ٣ ـ السكن ، ٤ ـ الاخدام للعاجز والمريض ، ٥ ـ التعليم ، ٦ ـ التزويج ، ٧ ـ نفقات زوجة الفقير وأولاده إن كانوا .

وقانون النفقات يشمل مايملكه الانسان من رقيق وحيوان وزرع ونبات[١]

٣ ــ قانون الوقف

الوقف نوعان : ذري (أهلي) وخيري ، أما الذري فالمقصود منه تأمين التكافل الاجتماعي لأقرباء الواقف وذريته ، ويجب أن يكون آخره الى جهة خير لا تنقطع كالفقراء والمؤسسات الاجتماعية ، وأما الخيري فهو لتمويل التكافل الاجتماعي لجميع الجهات التي ذكرناها في بحث التكافل . وقد كان للوقف ــ خلال العصور الماضية ــ دور رئيسي في قيام المؤسسات الاجتماعية في الوطن الاسلامي كما ستطلع عليه عند الكلام على الواقع التاريخي لاشتراكية الاسلام . ومن الواجب أن يستفاد من الوقف الآن في تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعي على وجه يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية في بلادنا لمختلف الفئات .

٤ ــ قانون الوصية

أجاز الاسلام أن يوصي الانسان بثلث ماله لجهات البر والخير ، ويجوز أن يوصي بأكثر من ذلك اذا أجازت الورثة ، وفي بعض المذاهب الاجتهادية أن الوصية للأقرباء غير الوارثين واجبة بمقدار الثلث ، ومنه استمد قانون الاحوال الشخصية المعمول به في الاقليم الشمالي ، وقانون الوصية المعمول به في الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة ، مبدأ الوصية الواجبة للحفدة المحرومين من الارث ، وهم الذين مات أبوهم في حياة جدهم[٢] .

---

(١) انظر تفاصيل احكام النفقات في كتابنا « شرح قانون الاحوال الشخصية » الطبعة الثانية ١ / ٢١٩ - ٢٥١ وايضا : ١ / ١٤٠ - ١٥١ .

(٢) تنظر احكام الوصية ومنها الواجبة في كتابنا (شرح قانون الاحوال الشخصية) .

٥ ــ قانون الغنائم

قال تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[١] وقال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين»[٢] وللعلماء آراء في التفريق بين الغنيمة والفيء ، وفي المراد من « لله وللرسول » وأياً ما كان فان الاسلام قد جعل من الغنائم الحربية التي يغنمها الجيش في معاركه مع الاعداء نصيباً معيناً للتكافل الاجتماعي ، وهذا لا نعلم له مثيلاً عند الامم الاخرى في القديم والحديث .

٦ ــ قانون الركاز

ما يوجد في بطن الارض من معادن ونقود قد جعل الاسلام فيه نصيباً معيناً ينفق منه على التكافل الاجتماعي ، وللعلماء آراء واجتهادات حول التفريق بين الكنز والركاز وحكم ما يستخرج من باطن الارض أو من أعماق البحار من معادن وغيرها تعرف من المراجع الفقهية[٣] .

٧ ــ قانون النذور

قال تعالى : « وليوفوا نذورهم »[٤] فاذا نذر الانسان نذراً أن يتبرع

---

(١) سورة الانفال : ٤١ .

(٢) الحشر : ٧

(٣) انظر مثلاً : البدائع : ٢/٦٥ .

(٤) الحج : ١٩ .

لله بمبلغ معين وجب عليه الوفاء بنذره وكان سبيله الفئات المحتاجة للتكافل الاجتماعي . وأحكام النذور تعرف في كتب الفقه .

٨ ــ قانون الكفارات

قال تعالى : « لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة [١] » .

وقال تعالى : « يا أيهاالذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين » [٢] .

ويقول تعالى في الصيام : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » [٣] .

وقال تعالى في الاحرام بالحج : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو بـه أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » [٤] .

وقال تعالى في كفارة الظهار : « فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً » [٥] .

وفي الحديث الصحيح في إفطار رمضان عمداً بالجماع في النهار ، التكفير عن ذلك بصيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، وكذلك الحكم عند فقهاء الحنفية فيمن أفطر بالاكل من غير عذر .

وهكذا جعل الاسلام كفارة كثير من الذنوب اطعام الفقراء والمساكين أو كسوتهم .. وهذا مورد كبير لتمويل مشاريع التكافل الاجتماعي .

---

(١) المائدة ; ٨٩   (٢) المائدة : ٩٥   (٣) البقرة : ١٨٤   (٤) البقرة : ١٩٦
(٥) المجادلة : ٤

٩ ـــ قانون الاضاحي

قال تعالى : « فصلِّ لربك وانحر »[١] نزلت في صلاة عيد الاضحى ونحر الاضاحي في العيد .
وفي الحديث : « يا أيها الناس على كل أهل بيت في كل عام أضحية »[٢] .
وللعلماء آراء في كونها واجبة أو سنة مؤكدة .

١٠ ـــ قانون صدقة الفطر

في الحديث الصحيح : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحر والذكر والانثى والصغير والكبير من المسلمين »[٣] .
والاجماع على وجوبها ، والجمهور على وجوبها على الرجل وكل من تلزمه نفقته من زوجة وولد وخادم . كما ان الجمهور على جواز اخراج قيمة الصاع من التمر أو الشعير نقداً وهذا هو الراجح في البلاد التي لاتنتج تلك المزروعات ، وهو الانفع للفقراء ، ولزكاة الفطر أحكام مفصلة في كتب الفقه .

١١ ـــ قانون الخزينة العامة

كانت واردات بيت المال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصرة على اموال الزكاة والعشور (زكاة الزروع) والغنائم ، وكانت تنفق كلها على المستحقين

---

(١) الكوثر ٢ .
(٢) رواه احمد وأبو داود والنسائي .
(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

في قوانين التكافل الاجتماعي ، فلما اتسعت الدولة واتسع دخلها المالي في عهد عمر ،دوّن الدواوين فقيدت كل واردات الدولة كما سجل كل ذوي الاعمال وأصحاب الاعطيات والمستحقين،وقال عمر قولته المشهورة : « ما من أحد من المسلمين إلاّ وله حق في هذا المال » ثم نظم الديوان بعد ذلك تنظيماً أدق ، ورتبت أبواب ميزانية الدولة بحسب وارداتها ، وقسم بيت المال الى أقسام ، لكل نوع من الواردات بيت مال خاص به ينفق منه على فئات معينة ، ونذكر لك هذه الاقسام كما ذكرها الكاساني من علماء القرن السادس الهجري .

ما يوضع في بيت المال من الاموال أربعة أنواع :

الاول : الزكاة بمختلف أنواعها وتصرف في الوجوه التي نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء الخ .. » .

الثاني : خمس الغنائم والمعادن والركاز ويصرف الي الفقراء والمساكين واليتامى ومن كان في معناهم .

الثالث : خراج الاراضي وجزية الرؤوس وما كان بمعناها ، وهذه تصرف الى عمارة الدين والمصالح العامة ومنها رواتب الولاة والقضاة وأهل الفتوى من العلماء والجيش واصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات (للجهاد) والقناطر والجسور وسد الثغور واصلاح الانهار العامة .

الرابع : ما أخذ من تركة الميت الذي مات ولم يترك وارثاً أصلاً أوترك زوجاً او زوجة فقط . (ويلحق به الضوائع التي لم يعرف أصحابها) . وتصرف هذه الاموال الى دواء الفقراء المرضى وعلاجهم وأكفان الموتى الذين لا مال لهم والى اللقيط وعقل جنايته والى نفقة من هو عاجز عن الكسب وليس له من تجب عليه نفقته ونحو ذلك[1] .

ومن ذلك يتبين أن تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي ليست قاصرة على

---

(١) البدائع : ٦٨/٢ و ١٢٤/٧ مع تلخيص وترتيب

القوانين العشرة السابقة ، بل ان مهمة بيت المال الاساسية هي تحقيق التكافل الاجتماعي ، ولكن تلك القوانين لا تعطي حقاً في المال المجموع بحسب أحكامها لغير المحتاجين للتكافل الاجتماعي ، بينما موارد بيت المال الاخرى تتسع لرواتب الموظفين ونفقات الدفاع والمشاريع العمرانية والمواصلات وغيرها ، ويؤكد هذا ما ذكرناه من قول عمر رضي الله عنه « ما من أحد من المسلمين الا وله حق في هذا المال » .

١٢ ـ قانون الكفاية

يقول الله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[١] فهذه الآية دلت على وجوب الاحسان الى هذه الفئات .

وقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة الخ الآية »[٢] وهذه الآية دلت على أن لهذه الفئات حقاً في المال سوى الزكاة بدليل أن الزكاة عطفت عليها ، والعطف يقتضي المغايرة .

وروى عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس »[٣] وهذا يقتضي وجوب اطعام الفقير على من كان يستطيع إطعامه ، ولا يجوز تركه عرضة للجوع .

---

(١) الاسراء : ٢٣ (٢) البقرة : ١٧٧ (٣) رواه البخاري .

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من اصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لاحقّ لأحدٍ منا في فضل [١] » .

وعن عمر بن الخطاب : «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول اموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين [٢] » .

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم (أي ما يحتاج اليه الفقراء) ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنياؤهم ،ألا وان الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً [٣] » .

من هذا كله يتبين لنا انه اذا لم تكف الزكاة والقوانين المالية الاخرى لسد حاجات التكافل الاجتماعي ، ولم يكن في بيت المال ما يقوم بتلك الحاجات فقد انتقل واجب القيام بها الى أموال الناس بحيث يؤخذ منها ما يسد تلك الحاجة مهما استنفدت من تلك الثروات .

قال ابن حزم : وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، ولافيء سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يُكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه ابن حزم وقال : هذا إسناد في غاية الصحة والجلالة

(٣) رواه الطبراني ورواه ابن حزم موقوفاً على علي رضي الله عنه .

المارة . ثم استدل لذلك بما ذكرناه من الآيات والآثار وغيرها عن الصحابة والتابعين ، وادعى اجماع الصحابة على ذلك بما ذكرناه في قانون الاسعاف من صنيع ابي عبيدة حين نفد زاد اكثر ما معه من الصحابة وكانوا ثلاثمائة ، فخلط أزوادهم بعضها ببعض وقاتهم اياها على السواء[١] .

وهذا الذي ذكره ابن حزم هو ما تؤيده قواعد المذاهب الاجتهادية ، وقواعد الشريعة العامة ، ومبادىء الحقوق الخمسة التي ذكرناها .

وبعد فهذه هي تسعة وعشرون قانوناً لتحقيق التكافل الاجتماعي ، لم تترك إنساناً في المجتمع دون أن يتمتع بحق التكافل الاجتماعي ، ودون أن ينال من عناية المجتمع ما يطمئن به الى حاضره ومستقبله ومستقبل عائلته وأولاده ، وقد رأينا أنه وضع من هذه القوانين اثنا عشر قانوناً لتمويل التكافل الاجتماعي بحيث تضمن تنفيذ قوانينه تنفيذاً دقيقاً شاملاً لا نعهد له مثيلاً في الشرائع والقوانين لدى أمة من أمم الارض قاطبة .

ولم يكتف الاسلام بكل هذا ، بل شرع من القوانين ، ووضع من المبادىء ما هي كفيلة بصيانة هذا النظام ، وحمل الناس على تطبيقه ، حملاً أدبياً ومادياً ، ومنعهم من مخالفته والتلاعب بأحكامه ، وهنا يأتي بحث « المؤيدات » في هذه النظرية .

٤ — المؤيدات

تنقسم المؤيدات الى أربعة أنواع : إعتقادية ، أي هي جزء من عقيدة المسلم لا يتم اسلام المسلم الا بها ، وأخلاقية ، أي هي جزء من النظام الأخلاقي في

---

(١) انظر المحلى : ١٥٦/٦

الاسلام فلا يكمل خلق المسلم إلا بها ، ومادية ، أي منع الناس من مخالفة تلك الاحكام والقوانين إما بالعقوبة الزاجرة ، واما بالسلاح والحرب، وتشريعية ، اي وضع مبادىء عامة لسن القوانين التي يحتاج اليها المجتمع في مختلف العصور تحقيقاً للتكافل الاجتماعي بحسب تطور الاوضاع والظروف الاجتماعية،ولنتحدث عن كل نوع من هذه الانواع حديثاً موجزاً تبييناً للفكرة وضرباً للامثال .

أ — المؤيدات الاعتقادية:

١ — يقرر الاسلام أن الله خالق الكون ومدبر الأمر ، وهو الرقيب على أعمال الانسان ، العليم بسلوكه ونيته ، وسيرجع اليه ليحاسبه على مافعل من خير أو شر « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا اكثر الا هو معهم اينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة [١] » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره [٢] » ، ومن الخير تطبيق هذا النظام ، ومن الشر اهماله او الاعراض عنه ، فأين يذهب المؤمن اذا أراد أن يفر منه او يتلاعب بأحكامه ؟

٢ — ويقرر ان الله عادل لا يظلم المحسن ولا يثيب المسيء « ولا يظلم ربك أحداً [٣] » ، « ان الله لا يضيع أجر المحسنين [٤] » ، « ان الله لا يصلح عمل

---

(١) المجادلة : ٧
(٢) الزلزلة : ٧، ٨
(٣) الكهف : ٤٩
(٤) التوبة : ١٢٠

المفسدين[١] » ، ومن عدالته أن الأمم التي تتمسك بشرعه فتتراحم فيما بينها ويعطف بعضها على بعض ، يحييها حياة طيبة ، والامم التي تنحرف فيظلم بعضها بعضاً ويأكل بعضها حق بعض ، يبتليها بالخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون[٢] » « واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً[٣] » .

٣ ـ ان الرزق بيد الله قد قسمه بين عباده منذ الازل وكتب لكل انسان نصيبه منه ، وهو لا ينال الا بسعي وعمل ، فلا يقعد الانسان عن طلبه ، ولا يسلك السبل الظالمة للاستكثار منه « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا[٤] » « ان نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب[٥] » وهذا من ابلغ ما يحمل المؤمن المتدين على تنفيذ نظام الشريعة في التملك والانفاق وتأدية ما أمر الله أن يؤدى من المال لحق المجتمع والدولة .

٤ ـ ان الله يمحق المال المجموع من الظلم والغش والمال الذي يمنع منه حق الفقراء والمساكين ، ويبارك في المال الذي يجمع من الحلال وينفق في وجوه الخير « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون بها وجه الله فاولئك هم المضعفون[٦] » « يمحق الله الربا ويربي

---

(١) يونس : ٨١

(٢) هود : ١١٧

(٣) الاسراء : ١٦

(٤) الزخرف : ٣٢

(٥) رواه الحاكم والطبراني

(٦) الروم : ٣٩

الصدقات (١) » فما أروع هذه المقارنة في آية واحدة !

٥ – ليس للانسان من ماله الا ما استفاد منه لنفسه في حياته الدنيا ، او انفق منعه فى الخير فثوابه له في الآخرة، وما عدا ذلك فليس في الحقيقة مالكا له، انما هو حارس يحرسه لورثته ، يحاسب عليه ويجني غيره فائدته « يقول العبد مالي مالي، وانما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى او أعطى فاقتنى وماسوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس (٢) » .

ب – المؤيدات الاخلاقية

١ – رغب في العدل والاحسان وحذر من الظلم والبغي والفحشاء «ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون (٣) » .

٢ – حث على الانفاق والسخاء ومدح الكرم والكرماء ، ونفر من الشح وذم البخلاء « السخي قريب من الله قريب من الناس والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس » (٤) « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٥) .

واليك هذا النموذج الرائع من الترغيب في الانفاق يسلك فيه القرآن كل سبيل الى النفس الانسانية ليحملها على الانفاق ويبعدها عن البخل ، ويحلل البخل

---

(١) البقرة : ٢٧٦

(٢) رواه مسلم

(٣) النحل : ٩٠

(٤) رواه الترمذي

(٥) الحشر : ٥

والكرم وعواملها في النفس الانسانية وآثارهما تحليلاً رائعاً في آيات قليلة متتاليات ، تملك على المؤمن لبه وقلبه فلا ينتهي من قراءتها حتى تتفتح نفسه للجود بكل ما يملك ابتغاء مرضات الله وطمعاً في جنته وثوابه :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ، يا أيها الذين آمنو لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فأن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ، أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد ، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ، يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب . وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من أنصار . ان تبدوا الصدقات فنعمّا هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم سيآتكم والله بما تعملون خبير . ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء

وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون. للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به علـيم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهـم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[١] .

هذا عدا عن القصص التي وردت في القرآن كقصة أصحاب الجنة [٢] وقصة موسى والخضر في بناء جدار اليتيم [٣] .

٣ ـ رغب في التعاون وحذر من التخاذل « وتعاونوا على البر والتقوى »[٤] وأوجب أن يهتم الانسان بشؤون اخوانه « من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم [٥] » ورغب في تفريج كربة البائسين ومد يد العون للمحتاجـين « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » [٦] .

٤ ـ اعتبر كل انسان مسؤولاً عمن تحت يده ، ومسؤولاً عن شؤون المجتمع واستقامة امره « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـــه ، الامام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن

---

(١) سورة البقرة : ٢٦١ - ٢٧٤

(٢) سورة القلم : ١٧ - ٣٣

(٣) سورة الكهف : ٨٢

(٤) سورة المائدة : ٢

(٥) رواه الطبراني

(٦) رواه البخاري ومسلم

رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[١] .

٥ – أوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف هو كل ما جاءت به الشريعة واستحسنته المروءات ، والمنكر هو كل ما انكرته الشريعة من ظلم وبغي وتخل عن الواجب ومنع للحقوق ، وهو ما تنكره المروءات من قسوة وبخل وظلم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون »[٢] « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان »[٣] وأعظم أنواع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ما كان تجاه الطغاة والحكام الذين لا ينفذون شرائع الله ، فيأكلون أموال الشعب ، ولا يعدلون بين الرعية « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[٤] واعتبر عدم القيام بهذا الواجب نذيرا بانحدار المجتمع وسوء العاقبة وغضب الله وشمول العذاب لمن كان منحرفاً ولمن كان ساكتاً عن الانحراف « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »[٥] « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »[٦] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) رواه مسلم واحمد

(٤) رواه ابوداود والترمذي

(٥) الانفال : ٢٥

(٦) المائدة : ٧٨

جـ ــ المؤيدات المادية

من سنن الحياة ان لا تؤثر المواعظ والمرغبات في كثير من النفوس الشريرة بل لا يردعها عن الشر الا خوفها من العقوبة، وجزعها من الألم، ولذلك لم يكتف الاسلام بما سبق من مؤيدات اعتقادية وأخلاقية، بل شرع مؤيدات مادية ترهب المعتدين، وتكف من غلوائهم، وهذه المؤيدات أربعة أقسام:

١ ـ **الحسبة** وهي «أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله»[١] وقد كان يقوم بها رجال أمناء موثوقون أشداء في الحق لا يخافون في الله لومة لائم، ويعينون من قبل الحكومة في غالب الاحيان، وقد قسم القاضي ابو يعلى في كتابه «الاحكام السلطانية» عمل المحتسب في الامر بالمعروف الى أقسام ثلاثة: ما تعلق بحقوق الله تعالى، وما تعلق بحقوق الآدميين، وما كان مشتركا بينهما، وقال فيما يتعلق بحقوق الآدميين انه ضربان: عام وخاص، أما العام فكالبلد اذا تعطل شربه أو استهدم سوره، فان كان في بيت المال مال لم يلزم أهل البلد اصلاح شربهم وبناء سورهم، لانها حقوق تلزم بيت المال وكذلك لو استهدمت جوامعهم، وان لم يكن في بيت المال مال، كان الامر ببناء السور واصلاح الشرب وعمارة المساجد ومراعاة بني السبيل (المسافرين) متوجهاً إلى كافة ذوي المكنة (اليسار) منهم. فان شرعوا في اقامة ذلك سقط عن المحتسب حق الامر به، والا أعلم المحتسب السلطان ورغب أهل المكنة في عمله اذا كان يضرهم تركه. وأما الخاص كالحقوق اذا مطلت والديون اذا أخذت فللمحتسب أن يأمر بدفعها اذا استعداه أصحاب الحقوق، وكذلك له أن يأمر بنفقات الاقارب اذا حكم بها حاكم، وكذلك كفالة من تجب كفالته

---

(١) الاحكام السلطانية للقاضي ابي يعلى: ٢٦٨

من الصغار ، وأما ما كان مشتركاً بين حقوق الله والعباد فمن ذلك أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وأن لا يكلفوهم من الاعمال مالا يطيقون ، وكذلك أرباب البهائم يأخذهم بعلوفتها اذا قصروا وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق ، ومن أخذ لقيطاً وقصر في كفالته أمره أن يقوم بحقوق التقاطه من التزام الكفالة او تسليمه الى من يلتزمها ويقوم بها .

ثم قسم المنكر أيضاً الى ثلاثة أقسام : ما كان في حقوق الله ، وما كان في حقوق الآدميين ، وما كان مشتركا بين الحقين . فما يتعلق بالمنكر في حق من حقوق الله ، الامتناع عن اخراج الزكاة ، فان كان من الاموال الظاهرة أخذها العامل (الموظف لقبض الزكاة) منه قهراً ، وان كان من الاموال الباطنة احتمل ان يكون المحتسب أولى بالانكار عليه من عامل الصدقة ، وان رأى رجلا يتعرض لسؤال الناس وهو ذو جلد وقوة على العمل أمره أن يتعرض للاحتراف بعمل ، فان أصر على السؤال عزره حتى يقلع ، وان وجد من يتصدى للعلم وليس من أهله أنكر عليه ومنعه وأظهر للناس أمره كيلا يغتروا به ، وكل مامنع الشرع من العقود الفاسدة فعلى والى الحسبة انكاره والمنع منه ، ومن ذلك غش المبيعات وتدليس الاثمان (تزييف النقود) فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه. ومما يتأكد على المحتسب فعله ، المنع من التطفيف والبخس في المكاييل والموازين ، واذا استراب بموازين السوقة ومكاييلهم اختبرها وعايرها وختمها بطابع خاص بحيث لايزنون أو يكيلون الا بها ، فان فعلوا انكر عليهم وأدبهم ، ومما يتعلق بالمنكر في حقوق الادميين ، منع الرجل من التعدي على جاره أو حريم داره ، ومن ذلك منع المستأجرين من التعدي على حقوق الاجراء (العمال) فاذا تعدى مستأجر على اجير في نقصان أجر او استزادة عمل كفه عن تعديه وانكر عليه بحسب حالة العدوان ، ولو قصر الاجير في حق المستأجر فنقصه من العمل او استزاده في الاجر منعه منه ، واذا

قصر الطبيب فأدى تقصيره الى تلف أو سقم منعه من ذلك ، ويراعى حال الصاغة والحاكة (النساجين) والقصارين والصباغين وأمثالهم في الامانة والخيانة لانهم ربما هربوا باموال الناس ، ويراعى المحتسب على العموم فساد العمل ورداءته وان لم يتقدم أحد بالشكوى ، ومما يتعلق بما ينكر من الحقوق المشتركة بين الله والناس منع التعدي على أهل الذمة ، ومنع السادة من اساءة معاملة عبيدهم أو تكليفهم مالا يطيقون ، وقد نص أحمد علي أن حق المملوك هو أن يشبع ويكتسي ولا يكلف مالا يطيق ولا يسهر ولا يشق عليه العمل وأن يزوجه حين البلوغ ، ويمنع أرباب المواشي من استعمالها فيما لا تطيق [١].

وذكر الشيزري في « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » أموراً أخرى كلها ترجع الى منع الاضرار بالناس في اسواقهم وصنائعهم ، كمنع التجار من الاحتكار والزامهم ببيع البضائع المحتكرة باسعارها المعتدلة جبراً عنهم ، ومنع التغرير بالمنتجين من أهل الارياف كيلا يبيعوا باسعار أرخص مما هي في الاسواق ، ومنع أحمال الحطب والتبن والشوك وكل ذي رائحة كريهة من الدخول الى الاسواق كيلا يضر بلباس الناس ، وبمراقبة الخبازين والطباعين وأرباب الصناعات كالصيادلة والعطارين والنساجين من غش الناس في أطعمتهم وحوائجهم [٢].

وقد نص ابن الاخوة في « معالم القربة » على ما يجب على المحتسب عمله من مراقبة الصناعات والتجارات مما يعتبر غاية في الطرافة والدفاع عن حقوق المواطنين وضمان أموالهم .

هذا هو نظام الحسبة ، وهو كما ترى ضمان مادي لنظم التكافل الاجتماعي

---

(١) من كتاب الاحكام السلطانية لابي يعلى مع اختصار وتلخيص : ٢٦٨ - ٢٩٢

(٢) نهاية الرتبة : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٦٥ ، ٧٤

التي اقرها الاسلام ، وهو نظام فريد لم يسبق المسلمين اليه أمة من الامم ، وقد كان مما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء حكمهم في فلسطين كما ثبت ذلك من كتاب « النظم القضائية ببيت المقدس » وهو مطبوع بالفرنسية في باريس في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية [١] ثم نقلوا هذا النظام الى بلادهم في الغرب ، فلما تطورت الحياة السياسية والاجتماعية منذ عصر النهضة وزعت مهام الحسبة على وزارات الصحة والاسعاف والمعارف والعدل والشؤون الاجتماعية ودوائر البلدية ، وقد أخذناها عن الغربيين في نهضتنا الحديثة وهي بضاعتنا رُدت الينا .

٢ ـ **الحدود والقصاص** ، فمن حَرَم انساناً حق الحياة حُرِم الحياة ، ومن حرم انسانا حق الكرامة بأن اعتدى على عرض غيره عوقب عقوبة الزنى ، ومن اتهم انساناً في شرفه وعرضه عوقب عقوبة القذف ، ومن اعتدى على حق انسان في التملك عوقب عقوبة السرقة ، ومن اعتدى على عقله وهو وسيلة العلم عوقب عقوبة السكر ، ومن اعتدى على حق الناس في حريتهم في أوطانهم وطمأنينتهم وكرامتهم أموالهم فقطع الطرقات وأخاف السابلة عوقب عقوبة المحاربين الخارجين على النظام « انما جزاء الذي يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض [٢] .

٣ ـ **التعزير** ، وهو العقوبة على ارتكاب كل منكر أو ايذاء للغير بفعل أو قول أو اشارة ، وقد ترك الاسلام تقدير هذه العقوبات للدولة تشرع من الاحكام القضائية بشأنها مايكون أصلح للزجر وأبلغ في ردع الناس عن العدوان

---

(١) انظر الملحق الثالث لكتاب نهاية الرتبة ص ١٢٧

(٢) سورة المائدة : ٣٣

والتعزير أحكام مفصلة في كتب الفقه (١).

٤ — **الجهاد**، وهو في الاسلام مشروع لغرضين : دفع العدوان على حرية الامة في وطنها ودينها « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله (٢) » « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين (٣) ». واستنقاذ الضعفاء المضطهدين من سلطة الظالمين « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (٤) » « ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان (٥) ».

والجهاد لهذين الغرضين جهاد في سبيل الله ، لأن سبيل الله أي طريقه هو الحق أذ هو لايأمر الا بالحق والخير ، وهو جهاد لاعلاء كلمة الله ، لان كلمة الله هي شريعته وهي أحكامه التي أمر بها أو نهى عنها ، ومما أمر به ايتاء الحقوق الى أصحابها ، ومما نهى عنه ظلم الناس بعضهم لبعض ، ذلك اذاً هو سبيل الله وتلك هي كلمته ، وهذا هو الجهاد في الاسلام : اعلان لكلمة الحق ورفع منار العدل « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت (٦) » أي في سبيل الاستعلاء والطغيان والظلم . وقد نص القرآن على

---

(١) من اجمع ما ألف في هذا البحث كتاب « التعزير في الشريعة الاسلامية » للدكتور عبد العزيز عامر القاضي بالمحاكم الوطنية .

(٢) البقرة : ١٩٣

(٣) البقرة : ١٩٠

(٤) الحج : ٣٩ . ٤٠

(٥) النساء : ٧٥

(٦) النساء : ٧٦

ثمرة الجهاد في الاسلام بقوله «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة (وهذا رمز لنشر السمو الروحي في العالم) وآتوا الزكاة (وهذا إقامة للتكافل الاجتماعي في المجتمع) وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر[١] » . (وهذا دعم للحقوق الطبيعية الخمسة التي قررها الاسلام لكل انسان[٢]) .

د – المؤيدات التشريعية

وهي نوعان : ١ – مصادر تشريعية ٢ – قواعد تشريعية

١ – المصادر التشريعية

وأهمها في هذا الباب ثلاثة .

أ – **الاستحسان** ، وهو ترك العمل بالقياس الظاهر لدليل آخر أقوى منه وهذا الدليل الاخر اما القياس ، أي أن يترك القياس الظاهر لقياس آخر أدق مسلكا وأقوى شبهاً ، وإما الضرورة أي ان يترك القياس لضرورة عامة يترتب على ترك اعتبارها مفسدة ، وهـذا القسم الثاني هو الذي يفيدنا في هـذا البحث ، فان ابا حنيفة وهو اشهر القائلين بالاستحسان ، ترك العمل بمقتضى القياس في كثير من الحالات لما يترتب على القياس من ضرر ومفسدة ، ومن هنا عرف ابن رشد الاستحسان بقوله : «انه الالتفات الى المصلحة والعدل»[٣] ومادامت الشريعة تقوم على رعاية المصلحة وتحقيق العدالة ، فان الاستحسان باب

---

(١) الحج : ٤١

(٢) انظر : نظام السلم والحرب في الاسلام للمؤلف .

(٣) انظر بحث الاستحسان في المدخل الفقهي العام للاستاذ مصطفى الزرقا ٨ : ٥٠ – ١٠٥ (الطبعة الخامسة) .

عظيم من الابواب التي تسمح بوضع النظم الكفيلة بتحقيق « التكافل الاجتماعي » وفق المبادىء التي ذكرناها وتحقيقاً للحقوق الطبيعية الخمسة التي هي أساس نظرية « الاشتراكية الاسلامية ».

ب ـ **الاستصلاح** ، وهو العمل بالمصالح المرسلة ، وذلك أن مصالح الناس تنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ ـ مصالح اعتبرتها الشريعة واقرتها ، واصدرت التشريع اللازم لصيانتها ، كمصلحة الناس في حفظ عقائدهم ودمائهم وعقولهم وأموالهم واعراضهم ، ومصلحتهم في ضمان حقوقهم الطبيعية الخمسة التي ذكرناها .

٢ ـ مصالح لم تعترف بها الشريعة ، كمصلحة بائع الخمر في الربح ، ومصلحة المتجسس للعدو في قبض المال لذلك ، ومصلحة المرابي في التعامل بالربا أو غير ذلك من المصالح التي يلزم من اعتبارها مفسدة عامة واضرار بالمجتمع ، وعدوان على حقوق الآخرين .

٣ ـ مصالح جديدة لم تكن في عهد النبوة ، فلم ينص عليها بذاتها كتاب ولا سنة ، ولكن الشريعة راعتها واعتبرتها ضمن المبادىء العامة التي وضعتها في التشريع .

فاما القسم الاول من المصالح فيجب العمل بها باجماع العلماء ، وأما القسم الثاني فلا يجوز العمل بها قولا واحداً ، واما القسم الثالث فقد ذهب جمهور العلماء الى اعتبارها ووجوب العمل بها ، ومن اشهر من قال بها علماء المالكية ، وغيرهم من الفقهاء يدخلون العمل بها تحت اصل تشريعي من الاصول المتفق عليها ، وهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وأياً ما كان فالكل متفقون على اعتبارها في التشريع ، وعمل بها الصحابة والتابعون ، وضرب الشاطبي [١] لذلك كثيراً من الامثلة . كجمع القرآن في مصحف واحد ، وتدوين

---

(١) انظر « الاعتصام » للامام الشاطبي : ٢/٩٩ ـ ١٠٧

الدواوين وتنظيم دوائر الدولة في عهد عمر وما بعده ، وبذلك منع عمر كبار الصحابة من مغادرة المدينة في عهد خلافته لحاجته اليهم في التشريع واستشارتهم في قضايا الدولة ، وما فعله من مقاسمة الولاة نصف اموالهم كما هو معروف .

يقول الغزالي : « ان مقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم وما لهم ، فكل مايتضمن حفظ هذه الاصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل مايفوت هذه الاصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة »[١].

ويقول الشاطبي : « انا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد ، والاحكام العادية (أي التشريع المدني والجنائي والدولي وغيره) تدور معه حيثما دار ، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فاذا كان فيه مصلحة جاز »[٢].

ويقول ابن القيم : « ان الله ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والارض ، فاذا ظهرت امارات الحق وأدلته بأي طريق فذلك من شرع الله ودينه ورضاه وأمره[٣] » .

ويقول الآمدي : إن الاحكام انما شرعت لمقاصد العباد (أي مصالحهم) لأن الاجماع قائم على أن أحكام الله لاتخلو عن حكمة ومقصود ، وليس ذلك لمنفعة عائدة الى الله تعالى ، بل لمنفعة الناس ، وقد قال الله تعالى « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين[٤] » وقال : « ورحمتي وسعت كل شيء[٥] » فلو خلت الاحكام عن حكمة عائدة الى الناس لكانت نقمة لا رحمة ، وقال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) المستصفى : ١/٢٨٧

(٢) الموافقات : ٢/٣٠٦

(٣) اعلام الموقعين : ٣/٥٤٣

(٤) الانبياء : ١٠٧

(٥) الاعراف : ١٥٦

« لاضرر ولاضرار (١) » فلو لم يكن التكليف قائماً على مصالح تعود الى العباد لكان ضرراً محضاً »(٢) .

وهكذا يكون العمل بالمصالح المرسلة (الاستصلاح) مصدراً تشريعياً عظيما لوضع النظم والقوانين الكفيلة بتحقيق مقاصد الشريعة في تحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي .

ج ــ العرف وهو ايضاً ثلاثة أنواع : ١ ــ ماأقره الشارع فهذا يجب العمل به قولاً واحداً . ٢ ــ ما الغاه الشارع كالاعراف السيئة التي كانت في الجاهلية والغاها الاسلام ، فهذه باطلة لايجوز اعتبارها قولاً واحداً ، ٣ ــ ماجدّ للناس بعد عصر النبوة وكانت لهم فيه مصلحة ولايتنافى مع نص من نصوص الشريعة أو مقصد من مقاصدها، فهذا معتبر وخاصة في المعاملات ، وقد بنيت عليه احكام كثيرة في الفقه الاسلامي ، واعتبر مصدراً من مصادر التشريع ، وقد نصوا على أن « المعروف كالمشروط » وأن « تعامل الناس حجة يجب العمل بها » وغير ذلك من القواعد التي تعتبر العرف مصدراً للتشريع (٣) .

ولاشك أن الناس لايتفقون على عرف يتراضون العمل به إلا لما فيه من رفق بهم وتيسير لمعاملاتهم وضمان لحقوقهم ومصالحهم المشروعة . وبذلك يكون مصدراً عظيما لسن القوانين المحققة للتكافل الاجتماعي .

٢ ــ القواعد التشريعية

وهنالك قواعد تشريعية عامة يمكن أن يستند اليها في وضع التشريعات

---

(١) رواه احمد وابن ماجه

(٢) الاحكام : ٣/ ٥ باختصار وتلخيص

(٣) جاء في مقدمة مجلة الاحكام العدلية كثير من المواد المتعلقة بالعرف ، وانظر بحث العرف في المدخل الفقهي العام للاستاذ الزرقا : ٨٠٣-٩٣٠ (الطبعة الخامسة) .

اللازمة لتحقيق التكافل الاجتماعي وضمان الحقوق الطبيعية الخمسة ، وهي اما مأخوذة من القرآن أو السنة أو مستنبطة من مجموع الاحكام الشرعية نذكر منها على سبيل المثال القواعد التالية :

١ ــ لقد كرمنا بني آدم (آية)

٢ ــ ليس للانسان إلا ماسعى (آية)

٣ ــ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى (آية)

٤ ــ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي (آية)

٥ ــ لايكلف الله نفساً إلا وسعها (آية)

٦ ــ لاتبخسوا الناس أشياءهم (آية)

٧ ــ لاضرر ولاضرار (حديث)

٨ ــ إن لجسمك عليك حقاً (حديث)

٩ ــ إن لزوجك عليك حقاً (حديث)

١٠ ــ ليس لعرق ظالم حق (حديث)

١١ ــ مالايتم الواجب إلا به فهو واجب (قاعدة)

١٢ ــ مايؤدي الى الحرام فهو حرام (قاعدة)

١٣ ــ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح (قاعدة)

١٤ ــ الضرورات تبيح المحظورات (قاعدة)

١٥ ــ يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام (قاعدة)[١]

١٦ ــ يتحمل الضرر الادنى لدفع الاعلى (قاعدة)

---

(١) ومنها قال أبو حنيفة : يجب الحجر على المفتي الماجن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس لان الاول يفسد على الناس اديانهم والثاني يفسد عليهم ابدانهم والثالث يفسد عليهم اموالهم (انظر : المبسوط للسرخسي : ٢٤/١٧٥)

١٧ ــ المشقة تجلب التيسير (قاعدة)
١٨ ــ التصرف على الرعية منوط بالمصلحة (قاعدة)
١٩ ــ لاينكر تغير الاحكام بتغير الازمان [١] (قاعدة)
٢٠ ــ الامور بمقاصدها (قاعدة)
٢١ ــ الغرم بالغنم او الخراج بالضمان (قاعدة)
٢٢ ــ الضرورة تقدر بقدرها [٢] .

أبحاث حول هذه النظرية

سنحاول الآن أن نتحدث عن بعض المبادىء التي تنادي بها الاشتراكية الحديثة وبيان موقف الاسلام منها ، ونقتصر على أهمها وهي : التأميم ، تحديد الملكية الزراعية ، حقوق العمال .

١ ــ التأميم

ما هو موقف الاسلام من التأميم ؟ تأميم الصناعات ، تأميم المرافق العامة ، تأميم الارض وما أشبهها ؟

سنستعرض بعض النصوص والمبادىء المقررة في الشريعة ليتضح موقف الاسلام من هذا الموضوع .

١ ــ لقد ذكرنا في مبادىء التملك قول الرسول ﷺ : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار » وهذا يفيد ان كل انسان له حق الاستفادة من هذه

---

(١) هي الاحكام التي شرعت في الاصل لتحقيق مصلحة او بناء على عرف مشروع ، ثم زالت المصلحة أو تغير العرف .

(٢) انظر شرح هذه القواعد وغيرها في المدخل الفقهي العام للاستاذ الزرقا ٩٣٢ ــ ١٠٧٥ (الطبعة الخامسة) .

المواد الطبيعية لحاجة الناس جميعاً اليها ، وقد قرر الفقهاء أنه لايجوز أن يستأثر بها انسان دون بقية الناس الا بعد احرازها في الآنية أو ماأشبهها ، فاذا أدت الملكية الشخصية لهذه الاشياء الى أن تحبس عن الناس أو يتحكم مالكها في ثمنها أو توزيعها بحيث يتضررون من ذلك وهم في حاجة اليها ، كان للدولة أن تحول دون هذا الاحتكار ، وجاز لها أن تتخذ الوسائل الكفيلة لاشراك الناس جميعاً في الاستفادة منها تحقيقاً لمعنى « الشركة » الواردة في الحديث ، وذلك يعني « التأميم » أو تدخل الدولة في « تحديد » الاسعار . ولا شك في أن النص على تلك المواد الثلاث ليس للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها في حاجة الناس جميعاً اليها . بدليل اضافة « الملح » اليها في بعض الروايات ، وهذا يعني أن كل ما كان ضرورياً للناس من طعام أو غيره يأخذ ذلك الحكم : وهو « جواز التأميم » من الناحية التشريعية .

٢ - ومن المعلوم أن الوقف جائز في الاسلام ، بل هو مرغوب فيه للحاجات الاجتماعية التي تحدثنا عنها في قوانين التكافل الاجتماعي ، والوقف كما عرفه الفقهاء هو « إخراج العين الموقوفة من ملك صاحبها الى أن تكون غير مملوكة لاحد بل تكون منفعتها مخصصة للموقوف عليهم » وهذا هو « التأميم » .

٣ - ومن المتفق عليه أن رسول الله ﷺ حمى أرضاً بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيل المسلمين [١] ، وحمى عمر أيضاً أرضاً بالزيدة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها يقولون : ياأمير المؤمنين ! انها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية واسلمنا عليها في الاسلام ، على م تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله ،

---

(١) رواه احمد واخرجه ابو عبيد في « الاموال » ص ٢٩٨ وانظر بحث الحمى في الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٦٤ وللقاضي ابي يعلي ص ٢٠٦

والعباد عباد الله ، والله لولا ما احمل عليه في سبيل الله ما حميت من الارض شبراً في شبر[١] .

وظاهر ان « الحمى » هو اقتطاع جزء من الارض لتكون مرعى عاماً لا يملكه احد ، بل ينتفع به سواد الشعب ، وقد اوضح ذلك عمر حين قال لهُني لما استعمله على حمى الربذة : ياهُني ! اضمم جناحك عن الناس ، واتق دعوة المظلوم فانها مجابة ، وأدخل رب الصُريمة والغُنيمة ـ اي مكن صاحب الابل القليلة والغنم القليلة من رعيها في تلك الارض ـ ودعني من نَعم ابن عفان ونعم ابن عوف ـ أي من أصحاب الاموال الكثيرة ـ فانهما إن هلكت ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وإن هذا المسكين ـ أي صاحب الابل أو الغنم القليلة ـ إن هلكت ماشيته جاءني ببنيه يصرخ : ياأمير المؤمنين ! ـ أي يطلب معونة الدولة لان له حقاً في بيت المال حين يفتقر ـ أفتاركهم أنا لا أبا لك ؟! فالكلأ أيسر عليّ من الذهب والورق ـ الفضة ـ وانها لارضهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الاسلام ، وانهم ليرون أني ظلمتهم ، ولولا النعم التي يحمل عليها في سبيل الله ما حميت على الناس شيئاً من بلادهم[٢] .

وهذا صريح في « تأميم » الارض لضرورة الدولة والمجتمع ، وفيه من المبادىء أن أصحاب الحاجات والثروات القليلة أولى بالانتفاع بالمصالح المؤممة من أصحاب الثروات الكبيرة ، وأنه لو لم يفعل ذلك لهلكت رؤوس الاموال الصغيرة ، ولزم الدولة أن تكفيهم وعوائلهم ، وأن المصلحة التي تصيب هؤلاء وهم سواد الشعب ، تتحقق بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق في المال

---

(٢) الاموال : ٢٩٩

(١) رواه البخاري وذكره ابوعبيد في الاموال : ٢٩٩

« المؤمم » وهو أفضل من تحمل ضرر أكبر بالزام خزانة الدولة واعالة تلك العائلات ! . . وهذا تطبيق لقاعدة « يتحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى » .

٤ – ومن المقرر في الفقه الاسلامي أيضاً أن الاحتكار غير جائز ، وأن المحتكر الذي يمتنع عن بيع الناس ما احتكره ، يجبره القاضي على بيع ما زاد عن قوته وقوت عياله ، وكذلك اذا أبى أن يبيعه للناس الا بسعر فاحش يشق عليهم ، يأمره القاضي ببيعه بسعر معتدل الربح وفق تقدير الخبراء ، فاذا أبى في الحالين انتزع منه ماله ، وباعه عليه بسعر معتدل [١] . فاذا اقتضت مصلحة المجتمع اليوم انتزاع ملكية الارض من أصحابها جاز ذلك كما جاز في الاحتكار .

٥ – كان لسمرة بن جندب نخل في حائط (بستان) رجل من الانصار ، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصاري الى رسول الله ﷺ مايلقاه من سمرة ، فقال الرسول لسمرة : بعه ، فأبى ، قال : فاقلعه ، فأبى ، قال : هبه ولك مثلها في الجنة ، فأبى ، – وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصح لا على سبيل القضاء والالزام – فقال له رسول الله : أنت مُضار ، وقال للانصاري : اذهب فاقلع نخله [٢] .

فهذا « انتزاع » الملك جبراً عن صاحبه ، حين أدت ملكيته الى ضرر جاره ، فكيف اذا أدت الى ضرر المجتمع ؟

٦ – وقد قاسم عمر ولاته نصف أموالهم وهم من كبار الصحابة كأبي هريرة وعمرو بن العاص وابن عباس وسعد بن ابي وقاص ، وهذا « انتزاع » للمال حين اقتضته المصلحة .

---

(١) انظر : الاختيار شرح المختار : ٣/١١٥ والحسبة لابن تيمية . وابن عابدين : ٥/٢٥٥

(٢) رواه ابوداود وذكره القاضي ابو يعلي في الاحكام السلطانية : ٢٨٥

٧ ــ وقد تقدم لنا في قوانين التكافل الاجتماعي : في قانون الاسعاف ، وقانون الطوارىء ، وقانون الكفاية ، انتزاع جزء من أموال الاغنياء لمصلحة المجتمع ، وفي هـذا مايرشد الى « انتزاع » الملكية بطريق « التأميم » لمصلحة المجتمع أيضاً .

٨ ــ وتقدم لنا أن الشريعة تحارب الظلم وتسعى للعدل ، وأنها تراعي مصلحة المجتمع ، فاذا كانت ملكية الافراد تؤدي الى ظلم الشعب أو فئة منه ، كان من المصلحة انتزاع هذه الملكية أو تحديدها ، وكان الاخذ بذلك « استصلاحاً » تفعله الدولة من قبيل « السياسة الشرعية » وهي حق الدولة في فعل كل ما فيه مصلحة للناس .

وخلاصة القول أن « التأميم » وقع في الاسلام « تشريعاً » كما في « الوقف » ووقع في تاريخ الاسلام « عملاً » كما في « الحمى » وأن انتزاع الملكية وقع من الرسول « قضاءً » كما في قصة سمرة بن جندب ، فاذا كانت المصلحة العامة تحتم « التأميم » وفيه دفع الظلم والضرر عن الناس أو عن فئة كبيرة منهم ، كان التأميم « واجباً » في تلك الحالات .

ولما كان مبدأ « التأميم » كنظرية اقتصادية محل نقاش بين علماء الاقتصاد وخاصة غير الاشتراكيين منهم ، فنحن نرى أن لا تلجأ الدولة الى تأميم صناعة أو مرفق من المرافق العامة الا بعد أخذ رأي الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين عملاً بقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر »[١]

إلا أننا نرى أن تأميم « الكهرباء » و « المياه » و « بعض المواد الغذائية » مما

---

(١) الانبياء . ٧

بحتمه الحديث « الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار» و « الملح »، والماء هو مصلحة المياه اليوم ، والنار هو مؤسسة الكهرباء في عصرنا الحاضر ،والكلأ والملح أمثلة للمواد الضرورية التي لا يستغني عنها انسان ما .

بقي ان يقال : ان نصوص الشريعة قاضية باحترام الملكية الشخصية ،وانه لا يجوز أخذ المال إلا برضى من صاحبه، والتأميم انتزاع للملكية بغير رضا صاحبها، وجوابنا على ذلك أن تلك النصوص ليست على اطلاقها باجماع الفقهاء ، فما فعله الرسول ﷺ ثم عمر والخلفاء من بعده من «حمى» بعض الاراضي هو انتزاع للحق من اصحابه بغير رضاهم ، وجواز أخذ الطعام عند الحاجة ممن ليس محتاجاً اليه، هو اخذ للمال من غير رضا صاحبه ، واجبار الحاكم للمحتكر على بيع ما احتكره وبيعه عليه اذا أبى ، هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، وبيع القاضي مال المدين سداداً لديون الغرماء — على رأي جمهور الفقهاء — هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، واخذ الشريك ما باعه شريكه من عقار مشترك بينهما بحق الشفعة هو انتزاع للمال من غير رضا صاحبه ، والاستملاك للمنفعة العامة كما تفعل «البلديات» اليوم وهو جائز في الشريعة ، انتزاع للمال من غير رضا صاحبه، وامثال هذا كثير في الفقه الاسلامي .

نعم اذا لجأت الدولة الى « التأميم » لضرورة اجتماعية ، وجب عليها أن تعوض على من انتزعت منهم ملكيتهم تعويضاً عادلا ، اذا كانت ملكيتهم لذلك المال عن طريق مشروع ، وخاصة إذا كان ما أممته ستبيعه للناس أو تأخذ على انتفاعهم منه نصيباً مقدراً ، وذلك قياساً على الاحتكار ، وعملا بالقاعدة « الضرورة تقدر بقدرها» .

٢ ـ تحديد الملكية الزراعية

لما فتحت العراق والشام والجزيرة على المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ، اختلف الصحابة في الاراضي الزراعية في تلك البلاد : أيقسمونها على الفاتحين ، أم يتركونها بأيدي اصحابها ؟ واستقر الامر على الرأي الثاني ،فبقيت الاراضي في ايدي الفلاحين ، ومسحت من جديد ،وقدرت عليها ضريبة الخراج ، وكان أساس التقدير أن تقدر غلتها المعتادة ثم يترك للفلاحين مايحتاجون اليه من نفقة لهم ولعيالهم ولمن تلزمهم نفقتهم للسنة كلها ، مع زيادة يدخرونها للنوائب ، ثم تأخذ الدولة منهم مابقي .

أخرج أبو يوسف وابو عبيد أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان على ماوراء دجلة وبعث عثمان بن حنيف على مادونه ، فأتياه فسألهما : كيف وضعتما على الارض؟لعلكما كلفتما أهل عملكما (اي الفلاحين) مالا يطيقون ؟فقال حذيفة : لقد تركت فضلا ، وقال عثمان: لقد تركت الضعف ولو شئت لاخذته ، فقال عمر : أما والله لئن بقيت لارامل أهل العراق لادعنهم لا يفتقرون لامير بعدي [١] .

وبذلك يكون عمر والصحابة قد اعتبروا أراضي العراق والشام والجزيرة (وكذلك أراضي مصر) رقبتها للدولة ، وفلاحوها أجراء عليها، يأخذون من غلتها مايحتاجون اليه من نفقة للعام كله مع فضل في التقدير ،وما بقي فهو للدولة، وقد قال بعض علماء القانون المشهورين في بلادنا ان عمر قد سبق بهذا العمل «ستوارت ميل» العالم الاجتماعي الانجليزي وغيره من القائلين بعدم جواز تملك الارض من قبل الافراد ، بل الاحتفاظ برقبتها للدولة ، واستغلالها بأسلوب

---

(١) الخراج لابي يوسف ٣٧ . والاموال لابي عبيد : ٥٠

الضرائب أو أبدال الايجار أو خراج المقاسمة المفروض على حاصلاتها ضمن حدود الربع ، وهو مازاد عن غلة الارض على أجرة العامل عليها [١]

وسار المسلمون في فتح الاندلس على سنة تختلف عن سنة عمر، وهي تقسيم الاراضي الزراعية بين فلاحيها الذين كانوا محرومين من تملك الارض في عهد (الفيزيغوت) قال « دوزى » المستشرق المعروف في كتابه «تاريخ الاندلس» « لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد وأقنان الارض من العبودية والظلم ، وحررهم من سلطة الاقطاعيين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لاعبيداً لهم فحسب بل عبيداً للأرض أيضاً ،لقد كان الفتح العربي حسنة بالنسبة لاسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة، وأزال قسماً كبيراً من الآلام التي كانت ترزح تحتها البلاد منذ قرون ،فان سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم العبيد وأقنان الارض ، ووزعت الاراضي المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدراً للسعادة وسبباً لازدهار الزراعة في اسبانيا العربية » ثم يقول «لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خففت الضرائب تخفيفاً عظيماً بالنسبة لما كانت عليه ايام الحكام السابقين ، وصودرت الاراضي من اصحابها الاغنياء حيث كانت تشكل اقطاعات عظيمة جداً تزرع من قبل العبيد والاقنان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد (العبيد) يعملون بحماس ويجنون افضل المحصول »

ويقول ليفي بروفانسال : « إن الازدهار الزراعي الذي أصاب اسبانيا بعد

---

(١) علم المالية للاستاذ فارس الخوري : ١٠٤٧ - ١٠٤٩

الفتح الاسلامي يعود ايضاً الى التقسيم الكبير لملكية الارض [١]

نستنتج من ذلك ان الدولة الاسلامية في أوائل قيامها كانت سياستها بالنسبة الى تملك الارض المفتوحة تتخذ أحد طريقين :

١ - اما نقل ملكيتها الى الدولة على ان يكون عمالها الزراعيون اجراء عليها

٢ - واما تقسيمها الى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يصبحوا جميعاً مالكين لها ، وتزول معالم الملكيات الكبيرة وآثارها المفجعة .

ولو استمر الاسلام في سيره الطبيعي ولم ينحرف ولاة السوء عن هدفه الاشتراكي العظيم ، لظلت أراضي الشام ومصر والعراق كما كانت ملكاً للدولة يشتغل الناس عليها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون بلادنا اول بلاد في العالم طبقت مبدأ ملكية الدولة لرقبة الارض ، هذا المبدأ الذي نادى به كثير من العلماء الاجتماعيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وطبقته روسيا في الربع الاول من هذا القرن .

واستمر الامر الى عهد عبد الملك بن مروان لا يجري في اراضي هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان في الشراء على أن يدفعوا ثمنها الى بيت المال ، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يرد الامر الى نصابه فينتزع الاراضي من أيدي أصحابها الجدد ، ولكنه وجد من الصعوبة مالم يجد معه حيلة ، فلقد تقسمت الاراضي في المواريث ومهور النساء والديون والمعاملات وغيرها ، فأقر ما كان قبل عهده ، ونهى عن شراء الاراضي وبيعها بعد ذلك وكذلك حاول المنصور في العصر العباسي فلم يستطع ، وهكذا طغت الاهواء على استقامة هذا التشريع العظيم .

---

(١) اسبانيا المسلمة في القرن العاشر ص: ١٦٠ من ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكواكبي .

قال الاوزاعي : أجمع رأي عمر وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر على الشام (والعراق ...) على إقرار أهل القرى في قراهم على ما كان بايديهم يعمرونها ويؤدون خراجها ، ويرون أنه لايصح لأحد من المسلمين شراء هذه الاراضي طوعاً ولا كرها ، لما كان من اتفاقهم على أنها لاتباع ولا تورث[١] .

من هذا نعلم حكم أراضي مصر والشام والعراق في العهود الاسلامية الاولى ، واذا أضفنا الى ذلك ، ماقدمناه من الادلة على جواز التأميم ، تأكد لنا جواز « تحديد الملكية الزراعية » خاصة بعد أن رأينا باعيننا الآثار الاجتماعية السيئة للملكيات الزراعية الكبيرة : من اهمالها وعدم استفادة الدولة من انتاجها كما ينبغي بالنسبة الى مساحاتها الواسعة ، ومن انحطاط المستوى المعاشي للفلاحين الذين يعمرونها بجهودهم ، ومن استبداد المالكين الكبار بشؤون معيشتهم واهمالهم لصحتهم وازدرائهم بكرامتهم . كل ذلك يجعل تحديد الملكية الزراعية بحيث يملك الفلاحون مايزرعونه من الارض منذ مئات السنين عملاً اصلاحياً كبيراً ، وضرورة اجتماعية ملحة .

ومما يؤيد جواز التحديد اتفاق الفقهاء على مبدأ « سد الذرائع » وقولهم بوجوب تحديد ربح المحتكرين عندما يتأكد تحكمهم في فرض الاسعار كما يريدون مع اضرار ذلك بالشعب ، وتحديد ملك الانسان للمال كتحديد ربحه في المال ، فاذا جاز هذا جاز ذاك ، ويؤيده أن ملك الانسان لقدر معين من الارض مباح ، فاذا رأى الامام أنه لايصح تملك أكثر من ذلك كان من الواجب اطاعته ، لأن ذلك حق من حقوقه في السياسة الشرعية ، وقد نص فقهاء المالكية على أن للامام أن يمنع أو يحد من زراعة العنب في قرية اعتاد أهلها أن يزرعوا العنب ليتخذ منه عصير للخمر ، وذلك من قبيل الاستصلاح . وقد حد عمر من حرية كبار الصحابة في الانتقال

---

(١) انظر هذا البحث في المغني لابن قدامة : ٢/٥٨٤ - ٥٨٨

من المدينة الى غيرها من الامصار ، مع أن الانتقال حق من حقوق المواطنين لأنه ثمرة الحرية التي هي حق طبيعي للانسان ، فما الفرق بين « الحد » من حرية الانتقال و «الحد» من الربح و « الحد » من حرية الزراعة ، وبين « الحد» من التملك ؟

المهم عندنا أن « التحديد » اذا اقتضته مصلحة الامة كان جائزاً بل واجباً وله شواهد في الفقه الاسلامي ، وسوابق تشبه في تاريخ الحكم الاسلامي ، ومن اعترض على ذلك بظواهر نصوص الشريعة القاضية بأن للانسان أن يملك مايشاء من الارض ، فجوابنا عليه ماقدمناه في بحث التأميم ، من أن هذا الحق ليس مطلقاً ، بل هو مقيد بمصلحة الجماعة ، وليس في الاسلام « حق » لايخضع لمصلحة الجماعة ، ومن أنكر هذا فقد أساء الفهم للاسلام ، وصدّ عنه من حيث لايريد ...

ولهذا كله فنحن نرى أن تحديد الملكية الزراعية بقانون كقانون الاصلاح الزراعي الذي صدر في مصر أولا ، ثم في اقليمنا (الشمالي) ثانياً ، أمر تجيزه مبادىء التشريع في الاسلام ، والواقع التاريخي للحكم الاسلامي ، بل ان واقعنا الحاضر ، ووجوب رفع الظلم ورد الكرامة الى الفلاحين في اراضي الملكيات الكبيرة ، يجعل هذا التحديد واجباً من أهم واجبات الدولة ، اننا نقر المبدأ الذي قام عليه قانون الاصلاح الزراعي ونعتبره فاتحة خير في نهضتنا العتيدة ، بقطع النظر عن تفاصيله وبعض أحكامه .

ولسنا نقول هذا القول (تحديد الملكية الزراعية) الآن في عام ١٩٥٩ فحسب ، بل قلناه من قبل ، منذ عام ١٩٤٩ حين كنا في الجمعية التأسيسية (في سوريا) أثناء وضع الدستور ، لقد كان الصراع عنيفاً بيننا وبين المالكين الكبار ، اذ كنا ننادي بوجوب النص في الدستور على مبدأ تحديد الملكية

الزراعية ، على ان يكون هـذا التحديد فور صدور الدستور لكل الملكيات الزراعية الموجودة ، وكانوا يعارضون في ذلك معارضة شديدة ، وأخيراً تغلبنا عليهم في اقرار الدستور الذي صدر عام ١٩٥٠ لمبدأ التحديد ، وتغلبوا علينا في جعل التحديد يسري على الملكيات الزراعية التي ستنشأ في المستقبل ، دون أن يكون لذلك مفعول رجعي ، بحيث لايمس الملكيات القائمة ... وهكذا كنا نحن الذين ننادي بتحديد الملكية الزراعية « رجعيين » وكان الاقطاعيون الكبار « تقدميين » ! .

ثم استمرونا بعد ذلك على المناداة بمبدأ تحديد الملكية الزراعية في محاضراتنا العامة في مدن لبنان ـ أثناء هجرتنا اليه بعد خروجنا من السجن في عهد الشيشكلي ـ ثم في مدن الاقليم الشمالي وقراه الى ان صدر قانون الاصلاح الزراعي .

٢ — حقوق العمال

كان من الثورة الاجتماعية الكبرى التي أحدثها الاسلام في التاريخ رفعه من شأن العمل ، واحترامه للعامل وضمانه لحياته حياة كريمة ولمستقبله عند الشيخوخة والعجز والمرض وضمان أُسرته بعد وفاته ، فقد كان العمل في العالم كله قبل الاسلام وحتى عهد قريب يعتبر أمراً مهيناً ، ويُعتبر العمال طبقة دنيئة ليست لها أية حقوق . ولما اخترعت الآلة في العصر الحديث بدأت مشاكل العمال مع أرباب العمل ، وبدأ العمال يطالبون بحقوقهم ويتكتلون ضد أرباب العمل ، وتنبهت الدول أخيراً الى وجوب رفع مستواهم ، وضمان حقوقهم ، لا بدافع من العاطفة الانسانية ، بل خوفاً من تفاقم مشكلاتهم وانتشار الثورة في صفوفهم ، ومن هنا جاءت تشريعات العمال في الدول الحديثة . فما هو موقف الاسلام من هذه التشريعات والحقوق التي لم تكن معطاة لهم من قبل ؟

الواقع أن كل ما قدمناه من مبادىء اشتراكية الاسلام وهي الاعتراف بالحقوق الطبيعية الخمسة لكل مواطن ، ووجوب تحقيق التكافل الاجتماعي ، بحسب قوانينه التي أسلفنا الحديث عنها ، تشمل العامل وتضمن له حقه في التكافل الاجتماعي ، ومع ذلك فقد جاء في النصوص التشريعية ما هو خاص بالعمال ، وما هو شامل لهم مما يمكن أن يستخرج منه مبادىء لسن تشريعات لحقوق العمال ترتفع عن مستوى التشريعات الحالية المعمول بها لدى الدول الحديثة وخاصة الاشتراكية الشيوعية منها .

وسترى فيما نذكره من المبادىء ما يكفل للعمال حياة كريمة مستقرة بحيث تستطيع الدولة أن تسن التشريعات اللازمة – على ضوئها – وفق ما يقتضيه التطور الصناعي والحضاري للأمة .

ونحب أن نشير إلى أن القرآن قد وردت فيه ٣٦٠ آية تتحدث عن العمل و ١٠٩ آيات عن « الفعل » وهي تتضمن أحكاماً شاملة للعمل وتقديره ومسؤولية العامل وعقوبته ومثوبته . ونكتفي بسرد بعض المبادىء التي ضمن بها الاسلام حقوق العمل ، ونترك تفصيل القول في العمل عموماً الى البحث الشامل الذي نضعه لهذه النظرية .

المبادىء العامة لصيانة حقوق العمال

١ – العمل شرف

يقول الله تعالى : « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً »[١]
والعمل هنا وفي آيات كثيرة جاء شاملاً للعمل الديني أي تنفيذ أحكام الشريعة ،

---

(١) فصلت : ٣٣

وهو في عمومه يشمل العمل الصناعي كما يعرف ذلك من قواعد الاجتهاد في الشريعة ، فان العبرة لشمول اللفظ وعمومه . وكذلك ما نذكره من الجزاء الطيب للعمل الحسن ، يشمل الجزاء المادي في الحياة ، وان كان وارداً في الجزاء الاخروي ، بل ربما كان دلالته على الجزاء المادي في الدنيا أقوى ، وكان وروده في الجزاء الاخروي مقصوداً منه الاشارة الى الجزاء المادي في الحياة الدنيا .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده »[١] .

٢ — العمل نعمة

يقول تعالى : « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون[٢] » ، والشكر على النعمة يقتضي حفظها والمداومة عليها .

٣ — العامل مسؤول

يقول تعالى : « ولتسئلن عما كنتم تعملون[٣] » ويقول عليه السلام : « والخادم (العامل) راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته[٤] » وعليه ان يتقن عمله « ان الله يحب من العامل اذا عمل أن يحسن[٥] » .

٤ — رب العمل مسؤول

يقول عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته[٦] » ويقول عليه

(١) رواه الامام احمد

(٢) يس : ٣٥

(٣) النحل : ٩٣

(٤) رواه البخاري ومسلم

(٥) رواه البيهقي وفي حديث آخر ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه (رواه البيهقي)

(٦) رواه البخاري ومسلم

السلام : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم[١] » .

٥ — لا عمل من غير اجر

يقول تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون[٢] » .

٦ — الاجر على قدر العمل

يقول تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ولا يظلم ربك أحداً[٣] » ويقول : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم[٤] » فاذا رضي العامل مضطراً باجر دون ما يستحقه وجب أن يدفع له رب العمل ما يستحقه ولا عبرة برضاه في الاجر المخفض .

٧ — الاجر حق لا منة فيه

يقول تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون[٥] » .

٨ — الاجر في حماية الدولة

يقول تعالى : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى[٦] » ويقول

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) هود : ١٥

(٣) الاحقاف : ١٦

(٤) الاعراف : ٨٥

(٥) فصلت : ٨

(٦) يونس : ٨

عليه السلام : « أعطوا الاجير أجره قبـل أن يجف عرقه [١] » ويقول « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. منهم .. ورجل استأجر أجيراً فلم يوفه أجره [١] » ، وفي قصة الخضر في القرآن الكريم « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً [٢] » وهذا صريح في حماية العامل من العدوان عليه في ماله ، وأجره المستحق أصبح مالاً له فتجب حمايته .

٩ ـــ العمل على قدر الطاقة

يقول عليه السلام « ولا تكلفوهم ما لا يطيقون » [٣] ويقول تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها [٤] » فاذا قررت الدولة ـــ بناءً على ما ثبت علمياً ـ من ان العمل يجب أن يكون ثماني ساعات في اليوم ، وجب التقيد بذلك ، فاذا أراد رب العمل تشغيل العامل اكثر من ذلك وجب اعطاؤه الاجر الاضافي على ذلك . ويكون داخلاً تحت قوله عليه السلام في تتمة الحديث السابق : « فاذا كلفتموهم فأعينوهم » واعطاء الاجر على العمل الاضافي اعانة بلا ريب .

١٠ ـــ حق العامل في تأمين نفقاته

للعامل حق في تأمين نفقاته العائلية لان ذلك من كرامته « ولقد كرمنا بني آدم [٥] » وكان رسول الله ﷺ يعطي الآهـل حظين ويعطي العزب حظاً واحداً [٦] ، وهذا تقدير لحق الانسان في كفايته المعاشية ، ويقول عليه الصلاة

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) الكهف : ٧٩

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) البقرة : ٢٨٦

(٥) الاسراء : ٧٠

(٦) رواه البخاري وغيره وذكره ابو عبيد في الاموال ٢٤٢

والسلام « من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، او ليس له دابة فليتخذ دابة [١] » وهذا وان كان وارداً في حق موظفي الدولة ، الا ان العلة التي اقتضت حصول الموظف على ذلك، وهي تحقيق كفايته للقيام بعمله بأمان واستقرار ، تقتضي شمول هذا الحكم للعامل ، وليس معنى ذلك أن رب العمل ملزم بإعطائه ما يحتاج اليه من نفقات ولو كان اكثر مما يستحقه من اجر عادل ، بل معنى ذلك ان على الدولة ان تضمن للعامل هذا الحق اذا كان اجره العادل لا يكفيه .

١١ — حق العامل في الراحة

يقول عليه السلام : « ان لنفسك عليك حقاً ، وان لجسدك عليك حقاً ، وان لزوجك عليك حقاً ، وان لعينك عليك حقاً [٢] » وهذا يعطي العامل حقاً في الراحة واداء العبادة والقيام بحق الزوجية والابوة .

١٢ — للعامل حماية المجتمع

لقد ضمنت قوانين التكافل الاجتماعي حق المواطن في تأمين معيشته وكرامته عند العجز والمرض والشيخوخة ، كما ضمنت له حق حماية أسرته بعد وفاته ان مات من غير ثروة : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضَياعاً (أي ورثة) او كَلاً (اي ذرية ضعفاء) فليأتني فانا مولاه [٣] » وفي رواية فالى الله ورسوله: قال أبو عبيد « الكَلّ كل عيّل والذرية منهم ، فجعل صلى الله عليه وسلم للذرية في المال (مال الدولة) حقاً ضمنه لهم [٤] » .

---

(١) رواه الامام احمد

(٢) رواه البخاري وغيره

(٣) رواه البخاري

(٤) الاموال : ٢٣٧

هذه جملة من المباديء التي ضمن بها الاسلام حقوق العمال وتوفير الحياة الكريمة لهم ولأسرهم في حياتهم وبعدها ، وبذلك نعلم أن أكثر ماتضمنته قوانين العمل في بلادنا مما يرفع الظلم عن العمال ويضمن لهم حقوقهم ، هي أحكام شرعية يجب التقيد بها وتنفيذها بحكم الشريعة عدا عن حكم القانون .

٦ - الملاحظات

نكتفي بابداء الملاحظات التالية على نظرية « الاشتراكية الاسلامية » وقوانينها ، نظراً لضيق المجال الآن .

١ - إن اشتراكية الاسلام ليست اشتراكية الدراويش والزهاد كالصوفية وفقراء الهنود الذين ينفرون من المال والتملك جبناً منهم عن تحمل اعباء الحياة ومسؤولياتها ، وانما هي اشتراكية حضارية ايجابية بناءة تقيم أكمل مجتمع حضاري متمدن .

٢ - ان اشتراكية الاسلام في تقريرها للحقوق الطبيعية الخمسة وما وضعته من قوانين التكافل الاجتماعي تحارب الفقر والمرض والجهل والخوف والمهانة

٣ - ان مستوى المعيشة في اشتراكية الاسلام مرتفع ، فقد رأينا أن من الحاجات الأصلية التي لايعتبر من يملكها غنياً تجب عليه الزكاة : دور السكنى ونفقات العائلة لسنة كاملة ، وأدوات الركوب والانتقال ، والسلاح ، وكتب العلم ، وآلات المهنة .

---

٤ - إن اشتراكية الاسلام تطبق على جميع المواطنين في الدولة مسلمين أو غير مسلمين ، لان مباديء‌ها وحقوقها عامة لم تستثن أحداً ، وسنرى كيف تمتع أهل الذمة منذ عهد عمر بحقوق التكافل الاجتماعي كالمسلمين سواء بسواء.

٥ ـ ان اشتراكية الاسلام تشرك الشعب مع الدولة في تحقيق التكافل الاجتماعي كما في نظام نفقات الاقارب ، ولذلك فوائده الكثيرة ، منها تخفيف العبء عن ميزانية الدولة ، وابقاء عواطف المحبة والود وصلة القربى بين الناس

٦ ـ إن مبادىء اشتراكية الاسلام مرنة يمكن تطبيقها في كل عصر بما يتفق مع تطور المجتمع وتقدم الحضارة .

٧ ـ انها لم تكن نظرية فحسب ، كما كانت الديانات السابقة ، ولا عاطفية تعتمد على استدرار « شفقة » الاغنياء كما كانت المذاهب الاشتراكية في عصر النهضة الاوروبية قبل الماركسية ، بل هي عملية مقرونة بالتشريع الذي يطبق على الناس جميعاً كبقية قوانين الدولة .

٨ ـ ولم تكن كذلك فحسب ، بل كانت جزءً أساسياً من أعمال الدولة الاسلامية منذ قيامها في القرن السابع .

ولكي نتبين مدى خطورة هذه الناحية وأثرها في التاريخ ينبغي أن نلاحظ الحقائق التاريخية التالية :

أ ـ ولد الرسول عليه السلام عام ٥٧١ م

ب ـ بدأت الرسالة ونزول القرآن عام ٦١٠ م

ج ـ في آخر العهد المكي فرضت الزكاة واعلن القرآن الكريم أنها حق للفقراء وذلك حوالي عام ٦٢٠ م

د ـ وقعت الهجرة عام ٦٢٢ واستقر الرسول في المدينة وتأسست الدولة الاسلامية الاولى بقيادة الرسول في تلك السنة .

هـ ـ وفي (٦٢٢) بدأ تنفيذ نظام الزكاة والتكافل الاجتماعي .

و – توفي الرسول عليه السلام ٦٣٢ بعد أن أصبحت الجزيرة العربية كلها تخضع للاسلام وأحكامه .

ز – بعد وفاة الرسول قامت حروب الردة داخل الجزيرة ، وخاضت الدولة الاسلامية المعارك ضد مانعي الزكاة وأصرت على تنفيذها لتحقيق نظم التكافل الاجتماعي .

حقائق عن التكافل الاجتماعي عند الغربيين

١ – كان العالم كله وخاصة في الغرب يعتبر اسعاف الفقير يقتصر على الاحسان الاختياري الذي يترك لأريحية الاغنياء ، وكانت مهمة رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين أن يثيروا شفقة الاغنياء ليرحموا الفقراء ، واستمر هذا حتى القرن السابع عشر .

٢ – في القرن السابع عشر – أي بعد نزول القرآن بعشرة قرون – بدأ الغرب يفكر في أن للفقراء « حقاً » على المجتمع .

٣ – كانوا يرون أن هذا الحق من وظائف الجمعيات والهيئات المحلية التي كانت تقوم باطعام الفقراء ، واستمر هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر .

٤ – ثم تنبهوا الى أن عمل الجمعيات والهيئات لا يكفي بالحاجة ولا يتسع لكل الفقراء ، ولا يسعف الفقراء بكل ما يحتاجون ، فبدؤا يفكرون في أنه يجب أن يكون من وظائف الدولة ، وكانت أول دولة في الغرب بدأت تعنى بتنظيم الضمان الاجتماعي هي المانيا إذ أصدرت أول قانون لذلك عام 1883 أي بعد قيام الدولة الاسلامية الأولى بهذا الواجب بألف ومائتي سنة وإحدى وستين سنة !

٥ - ومع ذلك فالذي حصل أن الدولة الالمانية لم تنظم إعانة جميع الفئات المحرومة من الضمان الاجتماعي مرة واحدة ، بل تم ذلك على مراحل ، فأول قانون أصدرته عام ١٨٨٣ كان ضد الاضرار التي تطرأ للعمال الصناعيين أثناء العمل ، ثم أصدرت عام ١٨٨٩ قانونين للتأمين ضد المرض والشيخوخة لعمال الصناعة والتجارة والزراعة ، وفي عام ١٩١١ أصدرت قانوناً لتأمين المستخدمين ضد العجز والشيخوخة والوفاة ، وفي عام ١٩٢٣ أصدرت قانوناً لتأمين عمال المناجم ضد العجز والشيخوخة .

واقتصرت هنا على تأريخ تطور التأمين الاجتماعي في المانيا وحدها ، لانها كانت أسبق دول الغرب للقيام بهذا العمل ، ثم تبعتها بعض الدول السكندنافية بينما عارضت الدول اللاتينية وبريطانيا في باديء الامر معارضة شديدة فكرة الضمان الاجباري ، ثم اقتنعت به منذ عام ١٩٠٨ كثير من دول أوروبا وأمريكا .

٦ - لم يصبح مبدأ التكافل الاجتماعي حقاً لجميع فئات الشعب الا في هذا القرن حيث بلغ في عام ١٩٣٣ عدد الدول التي اعتنقت هذا المبدأ اثنين وستين دولة ، أي أن هذا المبدأ اصبح مسلماً به لدى اكثر دول العالم بعد وفاة مؤسس الدولة الاسلامية رسول الله ﷺ بألف وثلاثمائة سنة ، وسنة ! [١]

٧ - ونحب أن نشير أيضاً الى ان اكثر الدول التي تعتنق مبدأ التكافل الاجتماعي تشترط اشتراك الذين تشملهم قوانين التكافل بجزء معين من دخلهم الشهري او الاسبوعي قبل ان يستحقوا فوائد التكافل الاجتماعي . بينما الامر

---

(١) رجعنا في هذا البحث الى نشرة جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢ عن وسائل تنظيم التكافل الاجتماعي في الدورة الثالثة لحلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية والى بحث للسيد دانيل س. جيرج من منظمة العمل الدولية الذي القاه في تلك الدورة والى مراجع أخرى .

في الاسلام وكما طبقته الدول الاسلامية في مختلف العصور لايطلب من الفقير أو العاجز دفع مبلغ ما ، بل الدولة تقوم بهذا العمل دون مقابل ، وهذا أمر له دلالته في هذا المقام.

٨ – ونختم هذه الملاحظات بأن تفكير الدول الغربية بالتكافل الاجتماعي ثم تفكير الشيوعية بعد ذلك بحل المشكلة من أساسها إنما كان تحت ضغط التطور الصناعي وانتشار موجات السخط في أوساط العمال وافراد الشعب ، ان اوروبا لم تفكر في تأمين العمال ضد البطالة الا بعد الازمة الاقتصادية التي عانتها اوروبا منذ عام ١٩٢٩ .

بينما اعلن الاسلام هذا النظام الكامل للتكافل الاجتماعي قبل ثلاثة عشر قرناً دون ان تكون هنالك في البيئة العربية – التي ظهر فيها الاسلام – عوامل اقتصادية اضطرت الاسلام لاعلان هذا النظام ، ودون ان يصدر ذلك عن حقد من فئة نحو فئة أو رغبة في انتزاع المال والسيطرة عليه انتقاماً من الاغنياء والاثرياء ، بل هي نزعة انسانية عميقة قبل ان ينتبه لها ضمير العالم ، وتنظيم دقيق شامل قبل أن يهتدي الى قريب منه عباقرة العالم بثلاثة عشر قرناً ، ولعل في هذا مايقنع الذين لايريدون ان يعترفوا بان محمداً رسول الله وان الاسلام دين الله !

٧ – المقارنات

أ – مع الرأسمالية

لاأريد ان اقارن الان بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية ، اذ لالقاء بينهما – كمذهب اقتصادي – الا في اعطاء الفرد حق التملك ، وفسح المجال للتنافس في ميدان الانتاج .

ولكن حق التملك في اشتراكية الاسلام يخضع لمصلحة الجماعة ، وحق التملك

في النظام الرأسمالي يُخضع الجماعة لمصلحة رأس المال . والتنافس الذي تفسح الاشتراكية الاسلامية مجاله للافراد ، من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهناء في المجتمع ، بينما التنافس الذي تفسح الرأسمالية مجاله للافراد من شأنه أن يشيع العداء والخلاف والاضطراب في المجتمع .

ولا لقاء بين اشتراكية الاسلام وبين الرأسمالية ـ كواقع سياسي ـ لان الرأسمالية الغربية ملوثة بدماء الشعوب ، وهي الباعث الاول للاستعمار ، تفوح من اردانها روائح الاستعباد واللصوصية والاستغلال .

فلا لقاء بين الاشتراكية الاسلامية وبين الرأسمالية في مجال ما ، لا في مذهبها الاقتصادي ولا في واقعها السياسي !

ب ـــ مع الشيوعية

ولا أريد أيضاً ان اتوسع الان فيما تتميز به اشتراكية الاسلام عن المذاهب الاشتراكية عامة ، والشيوعية خاصة ، ولكنني اكتفي بذكر بعض هذه المميزات التي اعطت اشتراكية الاسلام طابعها الخاص ، وجنبتها أسواء الشيوعية وغيرها من المذاهب الاشتراكية ، وبها كانت أقدر على اسعاد الناس ، وتقوية عوامل الخير والحب والتعاون فيما بينهم .

١ ـ ان اشتراكية الاسلام تنسجم مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحتها للملكية الشخصية ، وهذا ما أنكرته الشيوعية ـ النظرية ـ كما وضعها ماركس وانجلز ، زاعمة ان التملك ليس أصيلا في النفس الانسانية ، وعدا عما تشعر به النفوس والعقول بداهة من بطلان هذا الزعم ، فان في اعتراف الشيوعية ـ التطبيقية ـ أخيراً بالملكية الشخصية ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها النظري .

جاء في الدستور السوفياتي [١] مايلي :

المادة ٧ – لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالاضافة الى دخلها الاساسي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك قطعة من الارض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الارض اقتصاد اضافي ومنزل للسكنى وماشية منتجة وطيور وادوات زراعية بسيطة كملكية خاصة ..

المادة ٩ – الى جانب النظام الاشتراكي الذي هو الشكل السائد في اقتصاد الاتحاد السوفياتي، يسمح القانون بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة الخاصة بالفلاحين الفرديين والحرفيين ، على ان تقوم على عملهم الشخصي ،ويشترط ان لايستثمروا فيها جهود الآخرين .

المادة ١٠ – ان حق الملكية الشخصية للمواطنين في دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم وفي مساكنهم واقتصاديات بيتهم الاضافية وفي الحاجيات والادوات المنزلية وفي الاشياء ذات الاستعمال الشخصي والراحة ، وكذلك حقهم في « إرث » الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون .

هذا ماجاء في آخر تعديل للدستور السوفياتي – على مانعلم – وهو مخالف مخالفة صريحة لمبادىء الشيوعية الماركسية . ورجوع الى الفطرة الانسانية « فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » [٢]

٢ – ان اشتراكية الاسلام في اباحتها للملكية الشخصية ، انما تسمح للمواهب الانسانية أن تنطلق في ميدان التنافس البناء الذي هو بلا ريب أكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ونمو الانتاج ، والشيوعية تزعم أن هذا التنافس هو

---

(١) نقلا عن النسخة العربية المطبوعة في موسكو عام ١٩٤٣ المترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة في موسكو عام ١٩٤١ ،

(٢) الروم : ٣٠

الذي يجر البلاء على المجتمع ، اذ يؤدي الى استغلال ارباب الاموال للجماهير أسوأ استغلال ، وهذا انما يصدق على التنافس الرأسمالي الذي رأته الشيوعية النظرية قائماً في اوروبا ، ولكنه لايصدق ابداً على التنافس الاشتراكي الاسلامي لانه مقيد اولا بمبادىء التملك التي ذكرناها في اوائل هذا البحث ، ومقيدثانياً باشراف الدولة وتوجيهها ويقظتها كما رأينا في هذا النظام ، ومقيد اخيراً بالمثل الاخلاقية العليا التي هي جزء من عقيدة الاسلام ، وبيقظة الضمير الديني الذي تعتمد اشتراكية الاسلام عليه أكبر اعتماد ، وفي واقع رأس المال الاسلامي في الدولة الاسلامية الاولى وما بعدها اكبر دليل على هذا .

٣- إن اشتراكية الاسلام تؤدي حتما الى تعاون فئات المجتمع المختلفة ،لا إلى حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية ،فحين تكفل اشتراكية الاسلام الحياة الكريمة للضعفاء والعاجزين والفقراء وغيرهم ؛وتمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم ، وتفجر ينابيع الخير في نفوس الناس كافة ، فتدعو الغني للبذل ، والفقير للعمل ، والمحزون للصبر ، وتضمن للمريض دواءه ، وللعاري كساءه ، وللشيخ راحته ، وللاطفال تربيتهم وتعليمهم ومعيشتهم ، لايكون في المجتمع إلا إنسان راض ، ومواطن متعاون ، وفئة تحب الاخرى ، وسترى في الواقع التاريخي امثلة رائعة لهذا الحب والتعاون ، اما الشيوعية فأساس دعوتها إثارة الفئات بعضها على بعض، وملء قلوب بعضها بالحقد على بعض ، وشتان مابين هذا وذاك .

٤ ــ ان اشتراكية الاسلام تقوي اكبر صرح في بناء الحضارات منذ عرف تاريخ الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة ، رب العالمين ،العادل الرحيم ، الحكيم العليم ، الذي لايظلم الناس مثقال ذرة ، ولا يشرع لعباده إلا الخير ، فمن أطاع شرعه أحياه حياة طيبة ، وأدخله في الآخرة جنات تجري من تحتها الانهار ،ومن عصى شرعه ابتلاه بالنكبات ثم رده في الآخرة الى نارتلظى لايصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى ، يوم يحاسب الناس على اعمالهم ، فمن

يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، هذه العقيدة هي التي توقظ الضمير ، وتهذب النفس ، وتكبح من جماح اهوائها وشهواتها وتجعل الانسان دائماً امام محكمة ضميره ومراقبة ربه ، في علاقته بجيرانه ، وعلاقته بأهله ، وعلاقته بمجتمعه ، ويوم تتخلى الامة عن هذة العقيدة كما تريد الشيوعية ، فقد سمحت للشر ان يستفحل في صفوفها ، لقد سمحت لنفسها ان تنتحر انتحاراً جماعياً ، وان تكون وباء عالمياً يهدم القيم العالية ، ويزيل الثقة والاستقرار . إن اشتراكية الاسلام حين تقوى في نفوس الناس الايمان بالله ومراقبته ، انما تحكم صمام الامان في النفس الانسانية ، بينما ترفع الشيوعية - بانكارها لله - هذا الصمام ، فلا يبقى في النفس الانسانية شر إلا انطلق ، ولا قوة إلا اندفعت للتدمير .

٥ - إن اشتراكية الاسلام تعتمد على الاخلاق الكريمة ، وتجعلها جزء من عقيدتها ، وتحمل الانسان على ان يتحلى بأكملها ، والشيوعية لاتؤمن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة ، والاجتماعية كالصدق والوفاء ، ولاتنظر إليها إلا في اطار المصلحة الشيوعية ، فلا ثقة لك بحديث شيوعي ولابعهده ، انك لاتدري متى يصدق ومتى يكذب ومتى يفي ومتى يغدر ، إلا اذا عرفت اين تكون مصلحته ! ومصلحة الشيوعي إن كان يعيش في مجتمع غير شيوعي فهي مصلحة حاقدة مخربة ، وان كان يعيش في مجتمع شيوعي فمصلحته مصلحة طاغية خادمة لمصلحة حزبه في التحكم والاستبداد وخنق كل معارضة ، والشيوعي يستخدم المثل العليا التي يؤمن بها الناس في الدعاية لمبدئه للتضليل والتغرير ، فهو يدعو الى الديمقراطية في مجتمع غير شيوعي - كمجتمعنا العربي مثلا - ليتخذ من ذلك وسيلة الى الدعايات المضللة ، بينما هو يكفر بالديمقراطية في مجتمع شيوعي لأنها تعطي الجماهير حرية مناقشتها للقادة الشيوعيين وهذا مايحاربه الحكم الشيوعي بكل قوة ، والشيوعي يدعو الى الحرية في مجتمع غير شيوعي ليتخذ منها وسيلة

لاثارة العمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم ، ولكنه يكفر بالحرية في مجتمعه الشيوعي ، فلا اضراب ولا مظاهرات ولا انتقاد لحاكم ،ولا حرية في تفكير خارج إطار التفكير الشيوعي ،وفي موقف الاتحاد السوفياتي من الكاتب الروسي الذي نال جائزة نوبل للسلام أحدث برهان على هذا ..

ان الاخلاق التي تعارف عليها الناس ، ونادت بها الديانات ، وأيدها المصلحون في جميع الامم وفي جميع العصور ، هي محل سخرية لدى الشيوعي ، لانها في رأيه من صنع الذين ادعوا لانفسهم النبوة والحكمة خدمة لمصالح الاغنياء والاقطاعيين !.. إن المؤمن يمتنع عن الخداع أو الكذب خوفاً من الله وحسابه في اليوم الآخر ، اما الشيوعي فماذا يمنعه من ذلك ؟ انه لايؤمن بالله ولاباليوم الآخر ، ولايبالي بسخط الناس ، ولا ضمير له يؤنبه على ما فعل ، لانه لايعتبر نفسه قد ارتكب جريمة ! فمم يقلق ؟ ومم يخجل ؟ ألا انها اكبر كارثة تصيب الانسانية وترد الانسان الى ماوراء صفوف الحيوان !..

٦ – إن اشتراكية الاسلام تعلن ثقتها بالانسان ، وبغرائز الخير والنبل فيه ، وأنه الى الخير اقرب منه الى الشر « كل مولود يولد على الفطرة »[١] وفي قصة خلق آدم كما وردت في القرآن الكريم إشارة واضحة الى هذا « اذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض « خليفة » قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال اني أعلم مالا تعلمون ، وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم .. واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »[٢] فالانسان كما تدل عليه هذه القصة خلق ليكون « خليفة » عن

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما

(٢) البقرة : ٣٠ – ٣٤

الله في الارض يعمرها ويملؤها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه مافيه من غرائز الشرمن أن يستحق هذه « الخلافة » ، ومن ان يسخر الله له جميع القوى ويخضع له جميع المخلوقات .

إن الانسان أهل لأن يعمل الخير اذا اتبع شرائع الله وامتثل لامره «فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون »[١] ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوي في الانسان دينه ويهذب نفسه ويصفي روحه ، ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره في تنفيذ مبادئه اكثر مما يجبره على ذلك بقوة الدولة ورهبة السلطان .

ولكن الشيوعية لاتثق بالانسان ، لان تاريخه كله من اوله الى آخره تسلط وقتال من اجل الاكل والمال .. انها لاتثق بدينه لأنه يؤمن بخرافة ، ولاتثق بضميره لان القيم التي يؤمن بها الضمير قيم باطلة ! انها لاتثق بغرائز الخير فيه ، وانما تثق بغرائزه الجشعة ورغبته في الاستئثار والطغيان ، ولذلك فهي لاتسلمه المال لأنه يستعمله في استغلال الكادحين ، ولاتطلق له الارادة لانه ينزع الى التحكم والاستبداد ، ولاتعطيه الحرية لانه لايحسن استعمالها ، وقد اثبت الحكم الشيوعي ان الشيوعية لاتثق بالمواطن الشيوعي ، فهي لاتعطيه حرية اختيار الحاكم وشكل الحكم لانه لايهتدي الى ذلك سبيلاً ، وانما تهتدى اليه القيادة الشيوعية العليا ، وأن الشيوعية لاتثق بالموظف الشيوعي لانه ثبت لها أن كبار موظفي الدولة والحزب الشيوعي في روسيا قد استغلوا فرصة انشغال دولتهم بالحرب الاخيرة (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فجمعوا الاموال واقتنوا الاراضي ، وقد أذاع ذلك ستالين في منشور له بعد انتهاء الحرب ، عممه على جميع أبناء الشعب ، يندد فيه باؤلئك الذين انتهزوا فرصة الحرب فخانوا مبادىء الثورة الاشتراكية ! ..

---

(١) البقرة : ٣٨

وأثبت تاريخ الحكم الشيوعي أيضاً أن الشيوعية لاتثق بالرئيس الشيوعي لانها جربته حين ينفرد بالحكم فرأته سفاكاً للدماء ـ أي دماء الشيوعيين طبعاً ـ غداراً بالاعوان والاصدقاء .. لقد قال ذلك السيد خروتشوف في حق زعيمه ستالين بعد موته !

اذاً فالشيوعية لاتثق بالانسان المتدين لانه رجعي ! ولا بالغني لانه استغلالي ! ولا بغير الشيوعي ولو كان فقيراً لانه بروجوازي ! ولا بالمواطن الشيوعي لانه غبي ! ولا بالموظف الشيوعي لانه انتهازي ! ولا بالرئيس الشيوعي لانه ارهابي ! ويظهر ان « ابليس » أيضاً لايثق بالانسان ولذلك لم يخضع له كما خضعت الملائكة ..

ان الشيوعية لاتثق بالانسان . فمن حق الانسان أن لايثق بالشيوعية !..

٧ ـ ان اشتراكية الاسلام تقوي في الانسان كل جانب من جوانبه الانسانية : تقوي روحه وقلبه وعقله وخلقه وجسمه لانه هو كل ذلك . أما الشيوعية فهي تقوي فيه بطنه على الجوانب الاخرى فيه ، انها تجعل الانسان أشبه ما يكون بشخص له بطن كبير وصدر ضيق ورأس صغير كرأس العصفور وعينان مطموستان واذنان مسدودتان ويدان قصيرتان ورجلان هزيلتان ! هل تتصورون أقبح في مرأى العيون من هذا الشخص ؟ ان الانسان ـ كما تريده الشيوعية ـ أقبح منظراً من ذاك في مرأى القلب والعقل .

والشيوعية تعتبر مأساة الانسانية كلها من أقدم التاريخ الى اليوم مأساة بطن جائع .. ومن ثم فهي تنادي بأنه لاسبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذي يسلب من الناس أموالهم ويملأ بطونهم ، ومعنى ذلك انه ليس في الانسان رذيلة الا حب التسلط على مال الآخرين وانتزاع خبز الآخرين ، ومعنى ذلك أن الشيوعية تجزم بأنه لن ينشأ في العالم شر بعد القضاء على رأس المال ، وهذا تصوير

للمشكلة الانسانية يدعو الى الضحك والاشفاق على عقول الشيوعيين ..

لنتصور ـ ياسادة ـ أننا انتقلنا الآن بطرفة عين على بساط الريح الى الاتحاد السوفياتي ، وهو الدولة الشيوعية الاولى في العالم ، فهل نتصور أننا سنرى الشيوعيين هناك وقد انتزعت من أيديهم رؤوس الاموال وأصاب كل منهم نصيبه من الغذاء والكساء والدواء ، هل نتصور أنهم يعيشون ملائكة ليس فيهم من يحقد ولا يحسد ولا يعتدي شيوعي على آخر في نفسه أو كرامته أو سمعته ، أو ينفس على غيره مكانته الاجتماعية ومواهبه الفكرية ؟ ان هذا غير واقع ولا يدعيه الشيوعيون أنفسهم ، فهم بين أمرين : اما أن يزعموا أن الحقد والحسد والعدوان وأمثالها فضائل ، وعندئذ ينقطع مابينهم وبين الناس من صلة الانسانية .. واما أن يعترفوا بأنها رذائل ، وهنا نتساءل : بماذا يعالجون هذه الرذائل ؟بماذا يعالجون أمراض النفس الانسانية ، وأمراض المجتمع الاخلاقية وقد حاربوا الدين وهو أقوى ماتحارب به هذه الرذائل ؛ وأنكروا مبادىء الاخلاق التي تعارفت على احترامها جميع الشعوب ؟!

ان لهم العبرة في تاريخهم في روسيا ، فقد كان ستالين رأس الشيوعية ولم يكن يملك مالاً ، ولم يكن رأسمالياً ولابرجوازياً ، ومع ذلك فقد كانت حياته في الحكم مليئة بالشرور كما أذاع ذلك الحزب الشيوعي السوفياتي بعد وفاته ، وطبعاً لقد كانوا يعرفون فيه هذه الشرور وهو على قيد الحياة ؛ فماذا استطاعوا أن يفعلوه لتخليص المجتمع الشيوعي من شروره ؟ انهم لم يستطيعوا أن يفعلوا الا شيئاً واحداً .. هو أنهم انتظروه حتى يموت .. ثم شتموه !...

لقد تفادت الاشتراكية الاسلامية هذا الخطأ ، فعالجت شرور الانسان الداخلية في نفس الوقت الذي عالجت فيه شرور رأس المال وطغيانه ، وبهذا نجحت في تجنيب المجتمع جميع شرور الانسان لاشراً واحداً فيه .

٨ ـ واخيراً فان اشتراكية الاسلام تجد مأمنها وحماها في النفس المسلمة

المستمسكة باسلامها ، فيندفع المسلم الى تطبيقها بوازع من دينه واسلامه قبل أي وازع ، وفي ذلك من الفائدة للدولة أنها لاتضطر الى تنفيذها بقوة الحراب وجو الارهاب ، بل تجد من الشعب المسلم استجابة وتأييداً ، وفيه من الفائدة للمجتمع أن هذه الاشتراكية تظل تعمل عملها في التقريب بين الطبقات ، وفي انصاف المظلومين من الظالمين ، وفي تحقيق التكافل الاجتماعي لاربابه ، حين يضعف سلطان الدولة أوتهمل تطبيق تلك الاشتراكية ، ان اشتراكية الاسلام نابعة من ضمير الشعب مرتبطة بعقيدته ،فهي لاتزول من المجتمع ولو زالت الدولة وسنرى في الواقع التاريخي الادلة القاطعة على هذا .

أما الشيوعية فانها منبتة الجذور من أعماق النفس الانسانية ، لاتستند الى دين ولا الى فطرة ولا الى اقتناع ، فهي لاتنفذ الا بقوة الدولة وجو الارهاب ، ولذلك كان من لوازم الحكم الشيوعي ، الديكتاتورية والارهاب والتطهير الدموي الدائم في جو الحزب الشيوعي نفسه وفي داخل المجتمع ، وليست في الدنيا قوة تستمر في ارهاب الناس أمداً طويلا ، وليس في التاريخ دولة لم تضعف بعد قوة ، فحين تزول القوة التي تحمي الشيوعية وتكره الناس على تنفيذها ، فسيكون الشعب المحكوم لها أول الخارجين عليها والهادمين لبنيانها من القواعد ، وفيما فعله الموظفون الروس خلال الحرب العالمية الثانية - كما ذكرنا آنفاً - دليل لمن يشك في هذه الحقيقة ، وافحام لمن يجادل في مستقبل الشيوعية بعد انهيار سلطانها ..

٨ - آراء في اشتراكية الاسلام

من العسير أن نذكر هنا كل ماقاله الباحثون الغربيون عن مبادىء الاسلام الاشتراكية ، وأيضاً فان ملامح هذه الاشتراكية كما كشفنا عنها في هذا البحث وبالشكل المنظم الذي أوردناه ليست معروفة لاولئك الباحثين كما نعتقد ، وانما

يعرفون من هذه الملامح جزءاً قليلاً منها كنظام الزكاة والمساواة . ومع ذلك فلنستمع الى مايقوله بعضهم عن ذلك .

يقول المستشرق « جيب » المعروف :

مازال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغالبين المتقابلين في دنيا الغرب ، فهو يساوي ويوائم بين الاشتراكية القومية الاوروبية وبين شيوعية روسيا ، فلم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة الى ذلك النطاق الضيق الذي اصبح من مميزات اوربا في الوقت الحالي ، والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً »[1]

ويقول المستشرق المعروف «ماسينيون »

« ان لدى الاسلام من الكفاية مايجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري ، وبذا يحل الاسلام مرة اخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية الى أن يقول : « وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات[1] »

ويقول « ليو دوروش » :

« ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طراً : الأولى

---

(١) الاسلام والنظام العالمي الجديد لمولانا محمد علي : ٥ ؛

قول القرآن : « انما المؤمنون اخوة » فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال[١] »

ويقول « ماركس » (؟!) في نظام الزكاة :

« وكانت هذه الضريبة فرضاً دينياً يتحتم على الجميع أداؤه ، وفضلاً عن هذه الصفة الدينية فالزكاة نظام اجتماعي عام ، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ماتمد به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة نظامية قويمة لا استبدادية تحكمية ولا عرضية طارئة ، وهذا النظام البديع كان الاسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة ، فضريبة الزكاة التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والاغنياء على دفعها لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من افرادها هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الاسلامي على انه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة[٢] »

٩ – الواقع التاريخي[٣]

أ – في الدولة الاسلامية

كان العالم كله – خارج الجزيرة العربية – يوم أعلن الاسلام تلك المبادىء والقوانين الاشتراكية ، يسوده نظام الاقطاع وتحكم الاغنياء بالجماهير ، ولم يكن

---

(١) الاسلام والحضارة العربية لكرد علي : ٢٧٤/١

(٢) المصدر السابق : ٧٥/١

(٣) لقد طال جو البحث (كمحاضرة) ولم يعد يتحمل الافاضة في هذه الناحية ، ولذلك فقد اقتصرت على الاشارة الى الخطوط البارزة بايجاز على ان أبسط القول في ذلك مفصلا مع الادلة والحوادث التاريخية من مصادرها الموثوقة في الطبعة الثانية إن شاء الله .

للفقراء ولا للعاجزين مايستعينون به على ضعفهم وعجزهم أو يدفعون به عن أنفسهم غائلة الجوع والحاجة إلا أن يستجدوا الناس ، وكانت المجتمعات تنظر الى هؤلاء على أنهم كمية مهملة لاقيمة لها في الحياة الاجتماعية ، بل هم عبء ثقيل على المجتمع لاسبيل الى رفعه ، لأن الفقر في نظرهم قدر من السماء ، ينظر اليه بعضهم على أنه نعمة ، وينظر اليه بعضهم على أنه أعلى انواع الكمال والقربى الى الله ، وينظر اليه آخرون على أنه بلاء يعاقب الله به عباده كما يعاقبهم بالأمراض والموت !...

فلما أن قامت للاسلام دولته الأولى في المدينة ، تكون أول مجتمع — لافي الجزيرة العربية فحسب — بل في تاريخ العالم كله ، تسوده روح التعاون والتناصح والشعور بالمسؤولية : مسؤولية المجتمع نحو أبنائه ، ومسؤولية كل فرد نحو إخوانه الآخرين .

أ — في عهد الرسول

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة أن قال :

أما بعد أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمُنّ والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجب دونه : ألم يأتك رسولي فبلّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزي الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله[1] »

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/١٠٦

فهذا أول توجيه يصدره نبي الدعوة ورئيس الدولة محمد ﷺ في عاصمتها الجديدة (يثرب) كأنه يبين للناس أن أبرز شعارات هذه الدعوة عمل الخير والانفاق في سبيله ، لا يستثنى من ذلك أحد ولو كان غير موسر ، أما الموسر فبإنفاق المال ، وأما غير الموسر فبكلمات الخير والتناصح والبر ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه عاجز عن هذا !

ثم كتب رسول الله كتاباً (معاهدة) بين المهاجرين والانصار ، بيّن فيه دعائم الأخوة التي تقوم بينهم في مجتمعهم الجديد ، وأقرّ فيه اليهود على دينهم وأموالهم ، وعاهدهم على الحماية والنصرة ما أخلصوا للدولة الجديدة والنظام الجديد . واليك المبادىء التي تضمنتها هذه المعاهدة[١] :

١ ـ وحدة الأمة المسلمة من غير تفرقة بينها .

٢ ـ تساوي أبناء الأمة جميعاً في الحقوق والكرامة يجير أدناهم على أعلاهم.

٣ ـ تكاتف الأمة كلها دون الظلم والاثم والعدوان والفساد كائناً من كان الظالم والمفسد .

٤ ـ اشتراك الأمة في تقرير العلاقات مع أعدائها ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن

٥ ـ تأسيس المجتمع على أحسن النظم وأهداها وأقومها .

٦ ـ مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ، ووجوب الامتناع عن نصرتهم .

٧ ـ حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالماً متعاوناً ، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم .

٨ ـ لغير المسلمين دينهم وأموالهم ، لا يجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم .

---

(١) انظر نصها الكامل في سيرة ابن هشام : ٢/٧:١ ـ ١٥٠

٩ – على غير المسلمين أن يساهموا في نفقات الدولة كما يساهم المسلمون .

١٠ – على غير المسلمين – في الدولة الاسلامية – أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر عن كيان الدولة ضد كل عدوان .

١١ – وعليهم أن يشتركوا في نفقات القتال ماداموا محاربين .

١٢ – وعلى الدولة أن تنصر من يظلم منهم كما تنصر كل مسلم يُعتدى عليه.

١٣ – على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم.

١٤ – اذا كانت مصلحة الأمة في الصلح وجب على جميع أبنائها مسلمين وغير مسلمين أن يقبلوا بالصلح .

١٥ – لا يؤاخذ إنسان بذنب غيره ولا يجنى جان إلا على نفسه .

١٦ – حرية الانتقال في داخل الدولة والى خارجها مصونة بحماية الدولة.

١٧ – لاحماية لآثم ولا لظالم .

١٨ – المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الأثم والعدوان

١٩ – هذه المبادىء تحميها قوتان : **قوة معنوية** وهي إيمان الشعب بالله ومراقبته له ورعاية الله لمن بر ووفى ، **وقوة مادية** وهي رئاسة الدولة التي يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنفيذ هذه المعاهدة ، فوثق صلاته بيهود المدينة ، وآخى بين المهاجرين والانصار ، جعل لكل أنصاري أخاً مهاجراً يؤويه ويتعاون معه على العيش والحياة المشتركة ، ويرث كل واحد منهما صاحبه إذا مات ، وذهب كل أنصاري بأخيه المهاجر يقسم بينه وبين أخيه ماله وداره وكل ما يملك !

وفي وسط رمال الجزيرة العربية عاشت في الدنيا لأول مرة عاصمة دولة لا تعرف الحقد ولا الاستئثار ولا البغي ولا الفجور ولا القسوة ولا موت الضمير !

ثم تطورت الدولة بعد ذلك فأرسل الرسول الولاة الى جميع أنحاء الجزيرة يجمعون الزكاة ويصرفونها في مصارف التكافل الاجتماعي ، فلكل فقير حاجته ، ولكل متزوج اعانته ، ولكل أعمى قائده ، ولكل مقعد مساعده ، ولكل مدين سداد ديونه ، ولكل من يموت فقيراً حماية أسرته بعد وفاته ، وحقنت الدماء ، وحفظت الاعراض ، وصينت الكرامات ، وتحرر الناس من الجهل والخوف والخرافة ، ونفذت مبادىء معاهدة المدينة كلها إلا ما كان من علاقة المسلمين باليهود ، فقد نقض اليهود العهد ، وتآمروا مع قريش على حرب الرسول ، وملأ الحسد قلوبهم من نجاح الدولة الجديدة ، وما زالوا يدسون لها ويتآمرون عليها حتى أجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها .

واستمر الامر كذلك طيلة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وآمنت الجزيرة العربية كلها برسالة الاسلام حتى اذا كانت حجة الوداع وكان ذلك في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التي أكد فيها مبادىء الدولة التي أعلنها في السنة الاولى من الهجرة وضمنها وصاياه الخالدة وقد جاء فيها :

أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس : ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ، .. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه ، كل مسلم أخ لمسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، اللهم هل بلغت ؟ قالت الجماهير : اللهم نعم ، قال الرسول :

اللهم فاشهد[١] .

ويلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر جميع الديون الربوية ، وقد كانت يومئذ ديوناً للأغنياء على الفقراء المحتاجين الذين كانت تضطرهم الحاجة الى الاستدانة بالربا ، وهذا تمشٍ مع المبادىء الاشتراكية الاسلامية .

٢ — في عهد الخلفاء الراشدين

ثم توفي الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتولى الخلافة بعده أبو بكر ، وواجه حوادث الفتنة الداخلية التي سميت باسم « حروب الردة » وقد كانت القبائل التي قامت بتلك الفتنة ، منها من اتبع مسيلمة الكذاب والاسود العنسي في دعوى النبوة ، ومنها من بقي على الاسلام والايمان بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أعلنوا امتناعهم عن دفع « الزكاة » للدولة التي يرأسها أبوبكر ، وكيفما كان فقد كانت الفتنة « امتناعاً » عن تأدية « الزكاة » ورفضاً لتنفيذ مبادىء الاشتراكية الاسلامية في التكافل الاجتماعي ، ووقف أبو بكر موقفاً حازماً من تلك الفتنة وقالت قولته المشهورة : « والله لو منعوني عقالاً (أو عناقاً) كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، وخاضت الدولة الاسلامية معارك طاحنة انتهت بانهزام الفتنة ومقتل رؤوسها واسترداد الدولة الاسلامية حق « الزكاة » وتنفيذ مبادىء التكافل الاجتماعي ، ونعتقد أن هذه أول حرب في التاريخ تخوضها دولة مّا في سبيل تنفيذ التكافل الاجتماعي وتمويل قوانينه ، وذلك مما ينبغي تسجيله والتنويه به في هذا المقام .

أما ما عدا ذلك فقد كان عهد أبي بكر امتداداً لعهد الرسول في تنفيذ التكافل الاجتماعي لجميع فئاته . حتى أن خالد بن الوليد حين كان يقود معارك

---

(١) انظر الخطبة بكاملها في سيرة ابن هشام : ٤/٢٥٠

الفتح في العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة - وكانوا مسيحيين - . التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر : «وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل أو اصابته آفة من الآفات او كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقاموا بدار الاسلام»[١].

وكان أبو بكر في حياته الخاصة قدوة للناس في عفته عن أموال الدولة ومساواته نفسه بالناس في أعطياتهم ومعيشتهم.

وتولى عمر الخلافة من بعده، واستمرت معارك فارس والروم الى نهايتها المظفرة وكان روحها المحركة وعقلها المفكر وقائدها الموفق، ونظم الدولة تنظيماً يتفق مع تطورها واتساع رقعتها، وكان من أهم أعماله تدوينه الدواوين، والديوان كان تسجيلاً لكل مصادر الدولة ومواردها، تقيد فيه أسماء ذوي الأعمال وأصحاب الاعطيات والمحتاجين الذين يستحقون نفقتهم من بيت المال بمقتضى قوانين التكافل الاجتماعي، وكان يعطي الرجل على حسب كفاءته وبلائه في خدمة الدولة وسابقته في الجهاد وعلى قدر حاجته وكفايته، وكان يفرض لكل مولود مائة درهم، فإذا ترعرع زاده الى مائتين، فإذا بلغ زاده كذلك[٢].

وقد طبق عمر نظام التكافل الاجتماعي على غير المسلمين كما طبق على المسلمين، فقد مر يوماً بشيخ كبير يسأل الناس، فاسترعى ذلك انتباهه، فسأله ما أنت ياشيخ؟ قال: ذمي (وكان يهودياً) يسأل الجزية والصدقة، فقال له عمر: ما أنصفناك! أكلنا شبيبتك ثم نضيعك في هرمك؟! ثم أخذه الى بيته فأعطاه

---

(١) انظر المعاهدة بنصها الكامل في الخراج لابي يوسف: ١٤٤.

(٢) الاموال: ٢٣٧

ماوجده وأرسل الى خازن بيت المال يقول : انظر الى هذا وضربائه فافرض لهم من بيت المال مايكفيهم وعيالهم ، اني وجدت الله يقول : انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم المسلمون والمساكين هم أهل الذمة، وهذا منهم[١]»

ومر – وهو في طريقه الى الشام – بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال ، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤونه[٢] .

وكذلك استمر الامر في عهد عثمان – رغم الاضطراب السياسي الذي بدأ منذ السنة السابعة من عهد خلافته – ولم يؤثر هذا الاضطراب في قيام الدولة بجمع الزكاة وتنفيذ نظم التكافل الاجتماعي على اتمها . وقد كان أول كتاب كتبه الى عماله (ولاته) :

أما بعد فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم بأمرهم أن يكونوا جباة .. ألا وان اعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم[٣]»

وكتب الى عمال الخراج :

أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلايقبل الا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والامانة الامانة قوموا عليها ، ولا تكونوا اول من يسلبها فتكونوا

---

(١) الخراج لابي يوسف : ١٢٦

(٢) فتوح البلدان للبلاذري : ١٣٦

(٣) تاريخ الطبري : ٣/٣٠٦

شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم [١]

ثم ولي الخلافة بعده علي رضي الله عنه وقد غطى الاضطراب السياسي وجه التكافل الاجتماعي الذي استمر في عهده كما كان في عهد من قبله، وكان مما كتبه الى محمد بن أبي بكر عندما استعمله على مصر أنه أمره بتقوى الله والطاعة في السر والعلانية وخوف الله عز وجل في المغيب والمشهد وباللين على المسلم والغلظة على الفاجر ، وبالعدل على أهل الذمة ، وبالانصاف للمظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن الناس ، وبالاحسان ما استطاع والله يجزي المحسنين .. وأمره أن يجبي خراج الارض على ما كان عليه من قبل لا ينتقص منه ولا يبتدع فيه ، ثم يقسمه بين أهله على ما كانوا يقسمون عليه من قبل ، وان يلين لهم جناحه ، وان يحكم بين الناس بالحق

٣ ـ في العهد الاموي

واستمرت الدولة تقوم بواجبها في تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي من جباية الزكاة ورعاية الفقراء والحاجات الاجتماعية ، حتى ان يوسف بن عمر كان يخصص في ميزانية أقليمه كل سنة عشرة ملايين درهم « للاحداث والبنات اللاتي لم يتزوجن [٢] »

ولا شك في أن سياسة الامويين قد انحرفت عن سياسة الخلفاء الراشدين من نواحٍ عدة، ولكن تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ظل مستمراً كخطة من خطط

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٠٦/٣

(٢) تاريخ الاسلام السياسي : ٣٦٤/١

الدولة العامة ، وأبرز الخلفاء الامويين عمر بن عبد العزيز وهو أقربهم الى هدى الخلفاء الراشدين ، ولو طال حكمه لاعاد الى المجتمع الاسلامي صفاءه المشرق في العهود السابقة ، وحسبنا ان يقول أحد عماله « كنا نطوف بالزكاة على الناس فلا نجد من يقبلها » لنعلم أي عهد كان عهده ، وأية عدالة اجتماعية كان ينعم بها الناس في ظله !

٤ — في العهود الاخرى

واستمرت الدولة أو الدول الاسلامية تقوم بجمع الزكاة وانفاقها على المستحقين حتى العصر العثماني ، ومما لا ريب فيه أن تنفيذ نظام التكافل الاجتماعي قد اضطرب عن ذي قبل نتيجة للاضطراب السياسي الذي كان يعيش فيه العالم الاسلامي في تلك العصور ، ولكن الحق ان هذا الاضطراب « أضعف » تنفيذ نظم التكافل الاجتماعي ولم « يلغه » بل ظلت الدول الاسلامية هي الدول الاشتراكية الوحيدة بين دول العالم يومئذ رغم ما كان يشوب الحكم في الدول الاسلامية من ظلم وفساد ، وليس مرد ذلك إلا الى أن « الاشتراكية الاسلامية » جزء من عقيدة الاسلام كما ذكرنا من قبل .

ب — في المجتمع الاسلامي

لئن كان أمر الدولة الاسلامية ما ذكرناه من تمسكها أول الامر بنظام الاسلام في التكافل الاجتماعي ، وتهاونها فيه آخر الامر ، فقد كان شأن المجتمع الاسلامي أقوى أثراً وأشد تمسكاً وأطول عهداً وأقل مدى في ضعف الاستمساك بذلك النظام

لقد بدأ المجتمع الاسلامي في عهد رسول الله ﷺ كما وصفه القرآن بقوله « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله

ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ، والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم (وهم الانصار) يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (فقر) ومن يوق شح نفسه فاؤلئك هم المفلحون (١)»

مجتمع كان فيه الفقر والغنى ، ولكنه لم يكن فيه المهانة والاستغلال ، وكان فيه الحاكم والمحكوم ، ولكنه لم يكن فيه الظالم ولا المظلوم ، قد وصفه الله بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (أي الاعداء) رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً (٢)»

مجتمع كان فيه اغنياء لايخافون حقد الفقراء ، لانهم أدوا اليهم حق الله في أموالهم ، وفقراء لايخشون شح الاغنياء ، لانهم مابرحوا في فيض غامر من برهم وسخائهم ، ولكن كانوا يتنافسون فيما بينهم ويتحاسدون على فعل الخير والسبق اليه ..

جاء الفقراء مرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ذهب أهل الدثور (الاغنياء) بالأجور : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ ان لكم بكل تسبيحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة الخ (٣).

مظاهرة للفقراء من أغرب ما رواه التاريخ .. لم يحتشدوا فيها للاحتجاج على قسوة الاغنياء وظلمهم لهم .. فذلك ما لم يقع في ذلك المجتمع قط ، ولم يحتشدوا

---

(١) الحشر : ٨

(٢) الفتح : ٢٩

(٣) رواه مسلم وابن ماجه .

فيها للمطالبة بحق مأخوذ وكرامة مسلوبة ، فذلك ما لم يقع لهم قط .. ولكنما احتشدوا ليعربوا عن آلامهم في تخلفهم عن الاغنياء في ميادين الخير والاحسان فكيف يفعلون ؟ انهم يريدون أن يكونوا مثلهم يفعلون الخير وقد ظنوا أن سبيله هو المال فحسب ، وهم لايملكون ما ينفقون ! وكان جواب الرسول أروع مايمكن أن يوجه إليه أمثال هؤلاء ليكونوا بناءين في المجتمع غير هدامين ، ايجابيين لا سلبيين ، عاملين لا عاطلين .. ان سبل الخير ليست وقفاً على وجود المال .. بل ان لها سبلاً كثيرة يجدها كل انسان ولو غير غني ، فلا يحرم منها مواطن ولا يحال دونها فقير .. إنه كف اللسان عن الثرثرة بذكر الله وتسبيحه ! والقيام بالاصلاح الاجتماعي عن طريق الموعظة الحسنة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واماطة الاذى من طريق الناس ، واعانة من يحتاج الى العون وفي الاصلاح بين المتخاصمين والتقريب بين المتباعدين ؛ وفي امداد المجتمع بالنسل الصالح .. هكذا يكون التوجيه الاجتماعي البناء في ظل اشتراكية الاسلام من نبي الحكمة ورسول الخير والسلام .

واليك نماذج من اخلاق هذا المجتمع :

اخلاقهم في المعاملات

قال الشاطبي : « وتجدهم في الاجارات والتجارات لايأخذون إلا بأقل مايكون من الربح او الاجرة ، حتى يكون ماحاول أحدهم من ذلك كسبا لغيره لا له ، ولذلك بالغوا في النصيحة فوق مايلزمهم لانهم كانوا وكلاء للناس لا لانفسهم ، بل كانوا يرون المحاباة لانفسهم - وان جازت - كالغش لغيرهم[١] »

---

(١) الموافقات : ٢/١٩٥

أخلاقهم في الجوار

أخرج البخاري في « الأدب المفرد » عن محمد بن زياد قال : أدركت السلف وأنهم ليكونون في المنزل الواحد بأهاليهم ، فربما نزل على بعضهم الضيف و قِدْرُ أحدهم على النار ، فيأخذ صاحب الضيف لضيفه ، فيفقد القِدرَ صاحبُها ، فيقول من أخذ القدر ؟ فيقول صاحب الضيف : نحن أخذناها لضيفنا ، فيقول صاحب القدر : بارك الله لكم فيها (أو كلمة نحوها) قال ابن زياد : والخبز إذا خبزوا مثل ذلك [١] .

موقفهم من أموالهم

قال الشاطبي : لقد كانوا في الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لانواع الاكتسابات ، لكن لا ليدخروا لانفسهم ، ولا ليحتجنوا (أي يحتجزوا) أموالهم ، بل لينفقوها في سبيل الخيرات ومكارم الاخلاق وما ندب الشرع اليه وما حسنته العوائد الشرعية ، فكانوا في أموالهم كالولاة على بيوت الاموال [٢] .

استجابتهم لدعوة الخير

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظ النساء بعد صلاة العيد ويحثهن على الصدقة و « بلال » يبسط ثوبه فيلقين اليه بما يتحلين به من خواتيم وغيرها [٣] .

---

(١) الادب المفرد ، ص ١٢٩

(٢) الموافقات : ٢/١٨٨

(٣) رواه البخاري ومسلم

ثقة بعضهم بحديث بعض

قال البراء بن عازب (الصحابي) : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كانت لنا ضيعة وأشغال ، ولكن الناس لم يكونوا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب .

وحدث أنس بن مالك مرة بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل : أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، أو حدثني من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب ولا كنا ندري ما الكذب ؟[1] .

الآثار الباقية في المجتمع من اشتراكية الاسلام

لقد كانت مثل هذه الاخلاق قوية في العصور الاولى لقيام الاسلام ثم أخذت في الضعف شيئاً فشيئاً ومع ذلك فهنالك ثلاثة أشياء لم تنقطع في المجتمع الاسلامي حتى اليوم .

أولاً — اخراج الزكاة

استمر المسلم المتدين في مختلف العصور ولا يزال حتى اليوم يخرج زكاة ماله طائعاً مختاراً ، مع أن الدولة أهملت مطالبة الناس بها ، ومع أن هذا المسلم المتدين يدفع للدولة أنواعاً متعددة من الضرائب ، واستمرار اخراج الزكاة من الاغنياء المتدينين على مختلف العصور كان له أثر كبير في سد حاجات التكافل الاجتماعي وهي ظاهرة لانجد لها مثيلاً في التاريخ ، وهي دليل واضح على أثر اشتراكية الاسلام في المجتمع الاسلامي .

---

(١) رواه البيهقي .

ثانياً — التكافل العائلي

ومن الظواهر البارزة في المجتمع الاسلامي حتى اليوم ، تماسك الاسرة وسيطرة الروح التعاونية على أجوائها ، فالابن ينفق على أبيه وعلى أمه ويحتويهما في بيته مع زوجته وأولاده ويقوم بخدمتهما حتى يتوفاهما الله ، وهو يعتبر ذلك فرضاً دينياً ، وعملاً يتقرب به الى الله . وكذلك نرى الاخ الكبير ينفق على إخوته الصغار ويربيهم ويعلمهم ويزوجهم وهو يرى أن ذلك حق لهم واجب لامنة فيه ولا تفضل ، وكذلك يقوم بواجبه نحو أقربائه ، يقيهم شر العوز ، ويدفع عنهم حاجة السؤال عند العجز أو الفقر ، وهي ظاهرة تستلفت النظر بجانب ما يراه الانسان في المجتمع الغربي من تفكك الاسرة ، وتخلي الاب عن رعاية ابنه الكبير أو بنته الكبيرة ، وتخلي الاولاد عن آبائهم عند العجز والشيخوخة ، وقل أن ترى في الغرب رجلاً يسكن مع أبيه أو أمه بجانب زوجته وأولاده الصغار ، لقد تحققنا ذلك بأنفسنا خلال رحلاتنا المتعددة الى اوروبا ، ولا شك في أن تميز المجتمع الاسلامي بهذه الظاهرة أثر من آثار اشتراكية الاسلام وخاصة قانون النفقات على الاقرباء .

ثالثاً — الأوقاف

وهذا مما استمر وجوده منذ العصور الاسلامية الاولى حتى اليوم ، والاوقاف نوعان : وقف ذري (أهلي) ويقصد به حفظ ذرية الواقف من الفقر والفاقة ، ومن شروط صحته أن ينتهي الى جهة خير لاينقطع عند انقراض الذرية ، ووقف خيري وهو ما كان لجهة من جهات الخير ، وقد فاضت المدن والقرى في المجتمع بمثل هذه الاوقاف لجهات من الخير كبيرة النفع على المجتمع ، محققة

لغايات التكافل الاجتماعي وغيره مما يكاد يكون طريفاً ونادراً في التاريخ .

ولست أستطيع أن أستقصي القول عن هذه الاوقاف في مثل هذا الوقت، ولكني أكتفي بسرد أهم الاوقاف التي قامت في المجتمع الاسلامي ولا يزال كثير منها باقياً حتى الآن ، وهي أوقاف للأنفاق على :

١ – المساجد ، ٢ – المدارس ، ٣ – المكتبات العامة ، ٤ – المستشفيات ٥ – الفنادق للمسافرين ، ٦ – التكايا ، ٧ – السقايات ، ٨ – الآبار في الفلوات، ٩ – الرباطات للمجاهدين ، ١٠ – السلاح والخيول للجهاد ، ١١ – تجهيز المقاتلين في الجهاد بالمال وغيره ، ١٢ – إصلاح الجسور والطرقات العامة ، ١٣ – المقابر ١٤ – اللقطاء ، ١٥ – الايتام ، ١٦ – المقعدين ، ١٧ – العميان ، ١٨ – العجزة ، ١٩ – المساجين ، ٢٠ – القرض الحسن للتجار وغيرهم ، ٢١ – البذار (مجاناً) للفلاحين ، ٢٢ – أدوات الزراعة ، ٢٣ – دواب الزراعة ٢٤ – أشجار مثمرة يأكل منها المارّة ، ٢٥ – أوقاف خيرية لجهات أخرى مثل قراءة القرآن، ونفقات العلماء (ومنها وقف خاص في مصر لدابة شيخ الازهر !) ونحر الاضاحي في عيد الاضحى ، وإطعام الفقراء في رمضان وغير ذلك .

وهنالك أوقاف غاية في الطرافة والدلالة على سمو العاطفة الانسانية في المجتمع الاسلامي ، ولا نعلم لها مثيلاً في بلد من بلاد العالم ، من ذلك :

٢٦ – أوقاف للطب النفسي

في مدينة طرابلس (لبنان) وقف لتوظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات يكون عملهما هو أن يتحدثا بصوت خافت يسمعه المريض بحيث يوهمانه أنهما يتكلمان بصوت عادي فيما بينهما ، يقول أحدهما للآخر :

اني أرى اليوم فلاناً أحسن منه بالامس، فيقول الآخر: واني أرى اشراق وجهه وعينيه أحسن مما كان يوم أمس، وهكذا بحيث يسمع المريض ذلك فيعتقد صحة مايقولان .. وقد حدثني عن هذا الوقف مدير أوقاف طرابلس في احدى زياراتي لها.

– وكان في مستشفى طولون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبي المضحك يقوم الممثلون بذلك أمام المرضى الذين تشتد آلامهم ويرتفع صراخهم، فينسون الالم ويأخذون في الضحك، وكان فيه فرقة من المنشدين ذوي الاصوات الجميلة يرتلون الاناشيد في منتصف الليل من فوق مأذنة المسجد بالمستشفى ليخففوا من آلام المرضى الذين يؤرقهم الالم ويمنعهم من النوم؛ كما كانت فرقة الموسيقي، وقصاص يقصون القصص الشعبي على المرضى.

٢٧ — أوقاف للتزويج

أي تزويج الشباب والبنات حين يعجزون أو يعجز آباؤهم عن القيام بنفقات العرس والمهر والجهاز، فيتقدم الفتى أو الفتاة الى قيم الوقف بطلب المعونة لذلك، فيعطيه ماهو بحاجة اليه.

٢٨ — وقف الزبادي

وهو خاص لاسعاف الاولاد والخدم الذين يكسرون مايحملونه من الزبادي في الطريق الى البيت، يذهب الصبي أو الخادم الى قيم الوقف فيعرض عليه نموذجاً مما كان يحمل، فيعطيه عوضاً عنها ويعود الى أهله وقد اتقى شر العقوبة، وقد تحدث ابن بطوطة في رحلته عن هذا الوقف في دمشق.

٢٩ ـ نفقة الحليب !

كان مما أوقفه صلاح الدين الايوبي وقف لامداد الامهات بالحليب اللازم لاطفالهن ، جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر ، تأتي الامهات يومين في كل اسبوع فيأخذن لاطفالهن مايحتاجون اليه من الحليب والسكر .

٣٠ ـ وقف للحيوان

وكان خاصاً بايواء الحيوانات الاليفة في بيت واطعامها كوقف القطط الذي كان الى عهد قريب موجوداً في (سوقساروجة) بدمشق وكانت فيه مايزيد على اربعمائة قطة من الفارهات السمان !

٣١ ـ تطبيب الحيوان

وكانت لعلاج الحيوانات المريضة وتطبيبها ومن ذلك وقف (المرج الاخضر) الذي يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حالياً ،فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة ترعى فيه حتى تلاقى حتفها !

وبعد فهذه فكرة موجزة عن الاوقاف وأهدافها كما كانت ـ ولا يزال كثير منها ـ في المجتمع الاسلامي وهي بلا ريب أثر من آثار اشتراكية الاسلام وتأثر المجتمع الاسلامي بها [١] .

---

(١) أفضنا القول عن الاوقاف والمؤسسات الاجتماعية في كتابنا « من روائع حضارتنا» وهو مخطوط لم يطبع بعد .

جـ ـ في الفرد المسلم

اذا كانت اشتراكية الاسلام قد نجحت في اقامة الدولة الاشتراكية التي سمعنا حديثها ، وفي اقامة المجتمع الاشتراكي الذي أحطنا بملامح الحياة الكريمة الظاهرة فيه ، فان ذلك بلا ريب أثر من آثار نجاح اشتراكية الاسلام في ايجاد الفرد المسلم الذي بلغ الكمال في سمو الخلق ويقظة الضمير واشراق الروح وسخاء النفس والشعور بالمسؤولية ، حتى استطاع أن يقيم الدولة التي تنفذ اشتراكية الاسلام ، والمجتمع الذي يحقق التكافل الاجتماعي كما جاء في نظام تلك الاشتراكية ولا ريب عندنا في أن وجود الفرد المسلم على أروع ماعرف التاريخ من صور الجمال في الوجود الانساني ، مدين لشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كان المثل الاعلى في سلوكه وخلقه ورحمته وعدله وجهاده ومعاملته وطراز معيشته ، كان المثل الأعلى للكمال الانساني في مختلف جوانب النفس الانسانية وبذلك كان القدوة التي يحتذيها كل طالب للكمال في حياته العامة والخاصة ، فكيف بالمسلم الذي يرى فيه رسول الله ورئيس الدولة ، وقائد ركب الحق والخير ، وإمام المتقين والمصلحين ، وسفير الرحمة في العالمين اجمعين .. «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ؟[1] .

يقول الله مخاطباً المسلمين « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »[2] ولذلك استمرت النماذج الانسانية الرفيعة تترى بلا انقطاع في كل العصور الاسلامية ـ كثرة أو قلة ـ لان شخصية الرسول كانت ومـا تزال النموذج

---

(١) الانبياء : ١٠٧

(٢) الاحزاب : ٢١

الاعلى للانسان الكامل يحاول احتذاءها كل مسلم ما وسعه الجهد وأمكنته القدوة .

وكان بودنا أن نعطي صورة واضحة لشخصية الرسول الكريم ، ونضرب الامثلة المتعددة للفرد المسلم كما كان يعيش بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه لانا نرى أن هذا ضروري لاستكمال الصورة الواضحة لاشتراكية الاسلام في مبادئها وقوانينها وواقعها وتاريخها ، فان الامثلة الحية التي تعيش على الارض ويراها الناس بأعينهم ، أبلغ في الاقناع وأدل على الحقيقة من كل مايكتب وما يقال ..

كنا نود أن نفيض القول في هذا ، لولا اننا احببنا أن نقتصر الآن على ماألقي في المحاضرة على مدرج الجامعة ، وسنستدرك ذلك في الطبعة المقبلة ان شاء الله .

١٠ - الخاتمة

يقول الله تعالى :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء[1] » .

---

(١) سورة ابراهيم : ٢٤ — ٢٧

وقال المسيح عليه السلام : سيكون بعدي انبياء كذبة ، قيل له فما علامتهم ؟ فقال : من ثمارهم تعرفونهم .

اذا كانت محاولة البرهان على افضل النظم عن طريق المقارنة والجدال لا تثمر ثمرتها المرجوة حين يرين الهوى على القلوب ، وتطغى العصبية على العقول ، فان المقارنة بين نتائج النظم وثمارها كما يحكيها التاريخ الصادق ، سبيل لا مجال لدحضه والرد عليه ولو لجّ المبطلون في عنادهم ، ولقد رأينا ثمار اشتراكية الاسلام كما هي في رواية التاريخ وواقعه الحي في دولتها وفي مجتمعها وفي افرادها ، فكيف كانت هذه الثمار ؟!

إن اشتراكية الاسلام :

أخذت من العرب وثنية متردية ، وقبائل متفرقة ، وحياة خشنة ، وعزلة موحشة ، وأعطتهم توحيداً متسامياً ، وعيشاً رخياً ، وأمة واحدة ، وقيادة لمواكب النور في تاريخ الانسانية كلها .

أخذت من العالم عقائده المتفسخة ، وملوكه الظلمة ، وحيوانيته المتقاتلة ، وأعطته عقيدة محرّرة ، وقيادة ساهرة ، وانسانية بالنبل والخير زاخرة .

أخذت من العرب « أباجهل » وأعطتهم « أبابكر » !

أخذت من الفرس « مزدك » وأعطتهم « أباحنيفة » !

أخذت من مصر « المقوقس » وأعطتها « عمراً » !

أخذت من الشام « هرقل » وأعطتها « معاوية » !

أخذت من قيادة العالم « رستم وقيصر » وأعطتها « خالداً وعمر » !

أخذت من العالم « امبراطوريتين » أفنتا الشعوب : امبراطورية الفرس في الشرق ، وامبراطورية الروم في الغرب ..

وأعطت العالم « حضارتين » بعثتا الشرق الوثني والغرب الهمجي من رقدتيهما : حضارة « بغداد » في المشرق و « قرطبة » في المغرب !

هذه هي بعض ثمار اشتراكية الاسلام ، فما هي ثمار اشتراكية الشيوعيين ؟

أنا لا أتحدث عن ثمارها في بلادها وفي بلاد غير بلادنا ، ولكني أتحدث عن ثمارها في بلادنا فماذا كانت ؟

لقد كانت ثمارها في الوطن العربي : إلحاداً وإفساداً وخيانة وائتماراً ..

أخذت من العراق أمنه وسلامه ، واعطته دماءاً ودماراً !

أخذت من العراق وحدته ووثبته ، واعطته فرقة وعبودية !

تريد أن تأخذ من العراق دينه وعروبته لتعطيه «مزدكيتها» و«شعوبيتها» !

أخذت من العراق رشيد عالي وعبد السلام عارف ، واعطته المهداوي ووصفي طاهر !.. تلك هي ثمارنا ، وهذه هي ثمارهم ، فهل تستويان ؟ «وما يستوى الاعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور[١]»

ايها السادة :

ان اشتراكية الاسلام :

إلٓهية في قدسيتها !

محمدية في قيادتها !

عربية في نشأتها !

انسانية في نزعتها !

عالمية في رسالتها !

ومن اجل ذلك كانت اشتراكية الاسلام لنا نحن العرب والمسلمين رسالة كريمة وسبيلا مستقيما ؛ وكانت اشتراكية الشيوعيين لنا موتاً وتذليلا وفساداً وهداماً .

من اجل ذلك كانت الدعوة الى اشتراكية الاسلام خدمة انسانية باهرة ، وضرورة قومية قاهرة ، وكانت الدعوة الى اشتراكية الشيوعيين خيانة وطنية سافرة ، وجريمة شعوبية فاجرة ..

والحمد لله رب العالمين . ‏١٩٥٩/٣/٣٠

---

(١) فاطر : ١٩

٨

خواطر عن نهضتنا العربية

الاستاذ مالك بن نبي

سادتي : انني أشكر الجامعة أن أتاحت لي فرصة الحديث معكم وتفضلت بوضعه تحت اشرافها ، وانني أوجه شكري على الاخص الى السيد المدير والى هيئة الاساتذة المحترمين الذين تفضلوا بتحقيق هذه الفرصة ، كما أشكر المستمعين الكرام الذين شرفوني بحضورهم ملتمساً منهم العذر عن قصوري في التعبير العربي تعبيراً صحيحاً يناسب مايقتضيه موضوع الحديث من الوضوح .

سادتي : ان الامة العربية تمر اليوم بتجربة تتضمن نتيجتها مصير كل عربي وربما تتضمن نصيباً من مصير كل انسان بمقتضى التفاعلات الموجودة اليوم بين الكتل البشرية التي تؤلف الانسانية ، وبمقتضى الترابط الموجود بين الحوادث التي تجري اليوم في عالم غيرته في جذوره التطورات العلمية والفنية خلال الخمسين سنة الاخيرة حتى أصبح من الصعب تقدير الاشياء والاحداث بالمقاييس التي تصوغها الاعتبارات المحلية فقط .

لا شك أن التجربة التي تقوم بها الأمة العربية اليوم تأخذ معناها أولاً من الاعتبارات الخاصة الناتجة من صميم حياة العرب المتصلة باطراد تاريخهم ثم انها تأخذ أيضاً معناها من اعتبارات أخرى تتصل بالاطراد العام الذي يكوّن تاريخ الانسانية ويربط أطوارها بعضها ببعض ، لان هذا الاطراد وذاك يلتقيان اليوم

في نقطة أصبحت تمثل قطب التاريخ ، القطب الذي كانت تتجه اليه تطورات العالم بصورة غامضة وأصبحت تتجه اليه بكل وضوح .. أعني أنه يفرض اليوم على سير التاريخ حتمية دخلت في نطاق حسنا وشعورنا حتى اننا نرى أثرها في التفكير الحديث عند بعض المؤرخين مثل Toynbee .

ان التجربة العربية تأخذ أيضاً معناها من الوسائل الفنية الضخمة التي أصبحت اليوم في تصرف الانسانية تفتح أمامها عهداً جديداً وتعلق في وقت واحد على مصيرها كل التوقعات .

ان العهد الحديث الذي مدّ شبكة الخطوط الحديدية في العالم وأضاءمدنه بنور الكهرباء ، ان هذا العهد الحديث الذي يمر جيلنا منذ خمسين سنة أصبح قديماً ،وبدأ يولي مدبراً الى ظلمات التاريخ ،وبدأت تذهب معالمه شيئاً فشيئاً وتصبح آثاراً ومخلفات من بينها خطوط حديدية معطلة في أوربا وبعض الخطوط التليفونية التي أصبحت دون جدوى في قعر البحار .

ان التطور العلمي خلف هذا كله وراءه وكأن التاريخ يطوي الصفحة الأخيرة من الفصل الذي كتبه الجيل في عهد البخار وأصبحنا على أبواب عهد جديد لا نعرف اسمه بعد وانما بدأنا نرى علاماته في الآفاق وفي أنفسنا ،في عالم جديد تبصر فيه عيوننا الى بعد المئات من الكيلومترات وتسمع فيه آذاننا الى بعد الآلاف من الكيلو مترات ، ويمتد فيه حضورنا الى اي مكان من العالم بسرعة الضوء، وننتقل فيه بسرعة الطائرة النفاثة اليوم وبسرعة الصاروخ الموجه غداً . اننا نعيش اليوم في عالم صاغه العامل الفني صياغة ذات أثر عميق في أنفسنا لان العوامل الجغرافية التي كان لها الجانب الاكبر في التأثير على سير التاريخ تفقد اليوم شيئاً فشيئاً مفعولها . ان العالم الذي نعيش فيه أصبح صغير الحجم وبقدر ما يقل فيه تأثير الأبعاد الجغرافية تزيد فيه سرعة التطور بفعل عوامل

التصريع التي ذكرناها من T . V ، و T . S . F واجهزة النقل . فالعالم اليوم يختصر الطريق ويختزل التاريخ ويعيش تحت قانون اجتماعي وتاريخي جديد هو قانون السرعة في جميع وجوه النشاط ، لا يظهر اثره في عالم الاشياء والاعتبارات العسكرية فقط بل يظهر أثره في عالم النفوس التي بدأت تشعر به شعوراً واضحاً كما يتبين ذلك من خلال دراسات حديثة مطبوعة بطابع خاص يمكن ان نسميها السياسة المقارنة او الاقتصاد المقارن ، مثل الدراسات التي خصصها Tibor Monde للحالة في جنوب آسيا الشرقية فإننا نفاجأ في مثل هذه الدراسات باعتبارات ذات طابع نفسي جديد يترجم عن روح العصر وعن الاتجاهات والدوافع الخفية الجديدة التي سجلها التطور في أعماق الأنفس ، فنكون مثلا نقرأ صفحة عن الاصلاح الزراعي في الهند واذا بجملة عن الانتاج الزراعي في الصين تعترضنا فجأة ، فإن هذا يعني أن الحقائق الاجتماعية والاقتصادية في بلد ما لا تصاغ في ضوء الأرقام التي تعبر عن حاجات وضرورات البلد فحسب بل تسلط عليها أضواء من الخارج ، وتقاس بمقاييس وأرقام تأتي من بلد بعيد ، وليس في هذا الاتجاه الا ضرورة من نوع جديد تعبر عن تصغير العالم وسرعة التطور فيه ، وعن وحدة المصير التي يتجه اليها اليوم التاريخ كما تتجه الابرة المغنطيسية الى قطبها في مجال المغنطيسية .

وكل هذه الاعتبارات مسجلة اليوم في شعورنا وفي لا شعورنا ، مسجلة بأي صفة كانت في أنفسنا ، حتى انه لا يمكن لأي شعب ان يفصل حياته عن هذا القانون العام الذي صاغه العامل الفني خلال نصف القرن الاخير ، لا يمكنه أن يفصل حياته عنه دون أن يتعرض الى خطر النشوز في العالم والخروج من التاريخ لأن التاريخ يعزل من لا يسير في اتجاهه ، وكل من عزله التاريخ فإنه يدخل حتماً في حظيرة الشعوب البدائية او في حظيرة العدم مثل الشعوب التي اكتشفها C . Colomb في امريكا . فهذه هي الظروف العامة الجديدة التي تدخل فيها

النهضة العربية في عهدنا الذي لا نعرف اسمه بعد وانما نرى علاماته في الآفاق وفي انفسنا ، وهكذا تدخل نهضتنا عهد الصاروخ يرفع رايتها الرئيس جمال عبد الناصر لتحقق مصير كل عربي ونصيباً من مصير الانسانية .

وهكذا يجب علينا حينما نضع قضية النهضة العربية نصب أعيننا أن نعتبر مقتضياتها من جانبين : بنظرة الى الخارج لنحدد واجباتها نحو العالم اي لنحدد شروط انسجامها مع ضرورات السير العام ، ثم بنظرة الى الداخل لنحدد الطاقات التي يمكن توظيفها من اجل المحافظة على البقاء في الداخل والمحافظة على الاتجاه الصحيح في الخارج .

فأما من الجانب الاول فإن كل عربي يعلم أن نظرة الرئيس جمال عبدالناصر خطّت للنهضة العربية الاتجاه الصحيح الذى يحقق الشرط الاول للانسجام مع القانون العام وهو الشرط الذى يخص وحدة المصير ، لأن قضية وحدة المصير في الظروف التي نمر بها هي في صميمها قضية السلام . ومن يخط سياسته الخارجية على مبدأ الحياد الايجابي مثل ما فعل عبد الناصر — وقد كشفت الحوادث الاخيرة عن شدة تمسكه بهذا المبدأ — من يرسم سياسته الخارجية هكذا فإنه يضمن للأمة العربية ولنهضتها شرط الانسجام مع القانون العام فيما يتصل بوحدة المصير .

ومن ناحية اخرى فإننا نجد في التخطيطات التي تجري الآن في الجمهورية العربية المتحدة تحقيقاً لانسجام النهضة العربية مع ما يتصل بالجانب الثاني من القانون العام ، وهو مايتعلق بعوامل التسريع في التاريخ وسرعة التطور في العلم . فان فكرة التخطيط تلعب دوراً هاماً في العالم الحديث لأنها تؤثر في الاوضاع النفسية والاجتماعية معاً ، اذ أنها تشخص الغايات قبل تحقيقها فتزرع بذلك الامل في النفوس الطامحة وتبث فيها روح التضحية والعمل . ولنا في تاريخنا القديم

مثال ندلّ به على ذلك الاثر النفسي الذي ظهر واضحاً في نفس عمار بن ياسر حينما كان يقوم بجهود عاملين في بناء اول مسجد في الاسلام. وفي تاريخنا الحديث مثال آخر يرينا الاثر النفسي عند Stakhanov ابان النهضة السوفييتية حينما قام بجهود عاملين في التخطيطات الصناعية الأولى . فإن الاول حينما رأى غايته في الحياة قد تمثلت له وكأنه يراها رأي العين سعى اليها بدافع نفسي عجيب . ولا يختلف الثاني عن الأول في رؤيته لأهدافه وسعيه اليها السعي الحثيث حتى أصبح سلوكه عنواناً لنظرية في الانتاج Stakhanovisme .

واما من الناحية الفنية فان فكرة التخطيط تكتل الوسائل وتربط ضمناً -بدافع تفرضه طبيعة العمل المخطط- بين بعض المشاكل التي قلما نفكر في ربطها بصفة منهجية ، لان العادات الفكرية لا تتغير بسرعة التطورات التي يحدثها العامل الفني في الاشياء . فقلما نفكر في العمل غير المخطط أن نربط بين مشكلة اليد ومشكلة العقل أو بين مشكلة العمل ومشكلة الوقت ، بينما يكون الربط بين هذه المشكلات ضرورة حتمية في العمل المخطط : ضرورة تفرضها طبيعة العمل نفسه دون إجهاد في التفكير ، لان التخطيط عملية تفكير : تفكير مسبق في عمل محدد من ناحية ، ومن ناحية اخرى هو توقيت هذا العمل في مدة معينة وتوزيعه على عدد معين من السنوات . وبهذا فانه يربط بين عوامل اجتماعية فعالة ويحل ضمناً المشكلات التي تتضمنها مثل مشكلة الربط الضروري بين العمل والفكر من ناحية وبين العمل والوقت من ناحية اخرى ، حتى تسير الوسائل باسرع ما يمكن الى أهدافها وتنتج اكبر ما يمكن انتاجه في وقت معين . فالتخطيط : هو ، جملةً ، تعميم لنظرية Taylor الذي فكر في المشكلة في مستوى المصنع ، بينما يرفع القرن العشرين هذه النظرية من مستوى المصنع الذي يصنع منتوجا حضارياً معيناً مثل السيارة والطائرة الى مستوى المجتمع الذي يصنع حضارة .

فكما كان تطبيق نظرية Taylor من العوامل التي أثرت تأثيراً عميقاً في

تسريع العمليات الصناعية منذ القرن التاسع عشر ، فإن التخطيط يؤثر اليوم تأثيراً عميقاً في تسريع العمليات الاجتماعية التي تقوم عليها الحضارة ، فالتخطيطات القائمة اليوم في الجمهورية العربية المتحدة تكون في النهضة العربية عنصراً أساسياً لانسجامها مع القانون العام من حيث سرعة التطور . فيمكن اذن ان نقول ان النهضة العربية أخذت ، تجاه الضرورات الخارجية ، الاتجاه الصحيح بفضل سياسة الحياد الايجابي التي يلتزمها الرئيس عبد الناصر ، كما بدأت ايضاً تتجه الاتجاه الصحيح ازاء ضرورات الداخل بفضل المشروعات المخططة التي أخذت طريقها الى التنفيذ في الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن نظرتنا الى هنا في الموضوع إنما هي نظرة الى المستقبل ، أي أنها تتصل بالشروط النظرية التي يجب ان تستجيب اليها النهضة العربية كي تحقق مصير الأمة العربية وتساهم في تحقيق نصيب من مصير الانسانية . ولاشك ان هذه النظرة كافية الى حدما بالنسبة الى ضرورات الخارج ، لان مبدأ الحياد الايجابي لايتوقف تنفيذه إلا على إرادة فولاذية لاتحيدعن سياسة الحياد ولاشك ان الرئيس عبد الناصر برهن على أنه لايحيد مهما تكن الظروف . ونرى اذن أن نظرتنا الى المستقبل كافية بالنسبة الى ضرورات الخارج لأن تقرير المبدأ النظري يكفي في هذا المجال ولكنه لايكفي وحده بالنسبة لضرورات الداخل ، أي بالنسبة الى مشروعات البناء الاجتماعي المختلفة ، بل لابد هنا من نظرة الى الماضي لأن مقتضيات النهضة لاتنفذ بقرار من إرادة فولاذية ، ففي المشكلات الداخلية جانب نفسي لاتعبّر عنه الأرقام مهما تكن دقيقة ، ولايمكن في أي بناء اجتماعي أن نهمل هذا الجانب لأنه يصور معادلة شخصية تتدخل ضمناً في أي حل تمليه الاعتبارات الفنية .

إنه يجب ألاّ ننسى أن الانسان لايدخل العمليات الاجتماعية كمادة خام بل يدخل في صورة معادلة شخصية صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب

سابقة وعادات ثابتة تحدد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون في هـذا الموقف من القوة أو الوهن، من الاهتمام او التهاون، من الضبط أو الاهمال الخ ..
وإذن فلا نكتفي هنا نظرة مجردة الى المستقبل، لان الانسان جهاز دقيق، أدق من كل شيء نتصوره في الميكانيك الدقيق، ولكنه جهاز تخضع حركاته وسكناته الى قانون صاغه ماضي أسرته ومجتمعه وثقافته، ولا بد من نظرة الى ماضي هذا الجهاز لنعرف مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية والمشروعات المخططة القائمة عليه .

ولكن هذا الانسان ليس قضيباً من الحديد نضعه تحت المجهر أو تحت تأثير مادة مشعة لنختبره اذا ما أردنا استعماله في تركيب ميكانيكي معين . ان اختبار الانسان لايمكن أن يكون من النوع الستاتيكي، مثل قضيب الحديد في الظروف العادية، بل يجب أن يكون من النوع الديناميكي أعني أنه يجب أن نختبره في حركاته لا في سكناته، واذا اعتبرنا أن التاريخ إنما هو تسجيل لحركات مجتمع معين فأي قطعة منه نحللها نجد في نهاية التحليل إما الصورة الحقيقية لحالة الفرد بالنسبة الى ضرورات المجتمع وإما، على الاقل، بعض المعلومات عن معادلته الشخصية أي عن مدى صلاحيته في العمليات الاجتماعية، كما يمكننا في نهاية التحليل أن نقرر مايجب تعديله في تلك المعادلة حتى تصبح منسجمة مع ضرورات الخارج وحاجات الداخل .

واذن فأي قطعة من التاريخ العربي تدلنا على مواطن الضعف في مجتمعنا حتى يمكننا أن ندخل التعديل المناسب في المعادلة الشخصية التي تخصنا ؟

فلنفرض أننا أخذنا صورة شمسية للعالم العربي خلال العقد الاول من القرن التاسع عشر مثلاً .. فإننا سوف لانرى شيئاً فيها وكأنها صورة التقطت في ليل مظلم، ذلك الليل الطويل، الطويل جداً، الذي أشار اليه المستشرق Gauthier في كتابه (القرون المظلمة في المغرب) .

فهذه الصورة لاتفيدنا شيئاً في موضوع الحديث لأنها لاتصور لنا حركة المجتمع العربي في ذلك العقد وإنما نومه وسكونه .

فلنأخذ صورة شمسية أخرى حوالي سنة ١٨٦٨.. إننا لن نجد فيها معلومات اكثر من الاولى. ولكننا نرى خلال الشريط ما يدل دلالة غامضة على فجر بدأ بصيصه يظهر في أفق العالم العربي .

ولنأخذ الآن صورة شمسية ثالثة حوالي سنة ١٩٠٥.. إننا سوف نجد العالم العربي يعيش الآن في ضوء النهار وسوف نحكم بمقتضى ما رأينا في الصورة الثانية والثالثة أن النهضة العربية بدأ فجرها يطلع حوالي سنة ١٨٦٨ وأن نهارها أصبح واضحاً حوالي سنة ١٩٠٥. ولو أننا حللنا الصورة الثالثة لوجدنا ان النهار الجديد يضيء أشياء حديثة لم يألفها العربي في مسكنه ولباسه وشوارعه، أشياء نرى عليها طابع حضارة الغرب . نرى لاشك هذه الاشياء كعلامة بينة على وجود نهضة لم تتبين آثرها في الصورة الاولى مثلا ، ولكننا لم نستنتج من تلك العلامة غير المنتظرة سوى دلالة عامة على أن التاريخ العربي قد تحرك من جديد بين سنوات (١٨٦٨ – ١٩٠٥) دون أن نعرف شيئاً آخر عن سرعة حركته ومدى التطور في هذه الحقبة التي اخترتها عن قصد ، لانها تطابق في تاريخ القرن التاسع عشر مايسمى في اليابان بعهد (الميجي) من بدايته اي عندما طرق C. Perry قائد الاسطول الامريكي اذ ذاك أبواب اليابان سنة ١٨٦٨ فاضطرت لفتحها صاغرة حتى نهاية الحرب ضد روسيا القيصرية وانتصار تلك الدولة الآسيوية الناشئة على هـذه الدولة الاستعمارية الكبرى سنة ١٩٠٥ انتصاراً بهر بعض الشعوب المستعمَرة التي بدأت تنظر الى اليابان كالبطل الآخذ بثأرها . انه لا يهمنا الحدث نفسه وانما تهمنا دلالته على ان النهضة التي يسمونها العهد الميجي

في اليابان قد حققت فيه ما لم تحققه في البلاد الاسلامية على العموم وفي البلاد العربية على الأخص .

إننا نجد أنفسنا أمام حقيقة يشهد بها التاريخ وليس في وسعنا الا الاعتراف بأن النهضة كان نشرها أعمق في اليابان منه في البلاد العربية في اواخر القرن الماضي . وهذا يعني دون ريب ان سير بلادالشمس المشرقة خلال الحقبة التي اخترتها للمقارنة كان سيراً يتواءم مع ضرورات الداخل والخارج اكثرمن السير في البلاد العربية ، وهذا يعني في التحليل انالمعادلة الشخصية اليابانية كانت أرجح في كفة التاريخ من المعادلة الشخصية التي كونتها النهضة في البلاد العربية . وهذا يجعلنا نتساءل لماذا رجحت كفة اليابان في أواخر القرن التاسع عشر الى هذا الحد ؟

إنه يجب علينا، للجواب على مثل هذا السؤال،ان نحدد معنى النهضة هناحتى لا نخالف منطق التاريخ في استنتاجاتنا ضمن هذا البحث .

اذا راجعنا تاريخ القرن التاسع عشروجدنا ان« النهضة »كانتظاهرة عامة في مختلف البلاد المستعمرة وأن اسبابها تتصل بالظروف النفسية والاقتصادية والسياسية الجديدة التي كونها المستعمرفي تلكالبلاد ، فالنهضة كانت الفعل الذي ردت به الشعوب المستعمرة في تلك الظروف .فلماذا اختلفت النتيجة اذا كانت الاسباب التاريخية واحدة ؟

اننا نضع هنا نقطة الاستفهام في صميم الموضوع لأننا اذا حددناالنهضة كرد فعل ازاء الاستعمار فاننا في خطوة ثانية مجبرون على ان نحدد رد الفعل لهذا النوع من العلة الخاصة التي ربطها الشعب الناهض بالحضارة الغربية .

اننا نجد (الهند) مثلا تحدد صلة نهضتها بالحضارة الغربية في صورة فكرة دينية متعالية تتجلى في حياةRama Krisma وفي حياة تلميذهVive Kanenda

الذي قام بجولة الى اوربا وامريكة في غرة هذا القرن كأنه يريد ان يشعر الحضارة الغربية المتجبرة ان روح (الفيدا Véda) أي روح الهند الناهضة لاتخضع ولن تخضع للقوة المادية. وهذا الموقف هو الذي وقفه (غاندي) نفسه في بدء حياته العامة والذي لايزال يقفه اليوم بعض تلامذة Vive Kanenda مثل Skri Aurobinda المفكر الهندي المعاصر لنا، فهو موقف على جانب من السلبية كما رآه (طاغور) نفسه عندما عبر بازدراء لاذع عن موقف بلاده ازاء الحضارة الغربية ، الموقف الذي يمكننا وصفه بموقف الضعيف المتكبر أمام القوي المتجبر . وهذا النوع من الصلة لم يكن لينفع النهضة في الهند لو لم يأت غاندي الذي عدّل الجانب السلبي فيها بالإضافات الايجابية فغيّر اتجاه النهضة الهندية تغييراً نراه اليوم يتم على يد تلميذه (نهرو) . ومن الواضح لمن تتبع سياسة الهند منذ عشر سنوات أن النهضة الهندية نزلت من السحاب وبدأت تسير سيراً حثيثاً للانسجام مع القانون العام انسجاماً يستحق احياناً الاعجاب فيما يتصل بضرورات الخارج بوجه خاص . حتى أصبحنا نشعر أن الهند لم يعد يطيب لها الجلوس على مقعد المتفرج الذي يتتبع الاحداث على شاشة التاريخ معلقاً عليها، بل اختارت لنفسها ـ وليس لديها الكثير من الوسائل ـ ان تصنع الأحداث العالمية او تشارك في صنعها بصفة جدية .

ومهما يكن في هذا من الاستطراد فإننا نريد أن نقول ان النهضة الهندية كانت تحدد نوعاً من الصلة بالحضارة الغربية فيه ما فيه من نزعة الكبرياء التي ما برحت فيما أظن تطبع موقف الهند في العالم ، ولا تعطينا المقارنة بالنهضة العربية سوى شيء واحد هو ان الفكر الهندي لما رأى خلال القرن الماضي انه لايستطيع حل مشكلات البقاء ومشكلات الاتجاه الخاصة بالهند انفصل عن الارض وارتفع الى السحاب مكابرا .

أما النهضة في اليابان خلال الحقبة التي اخترناها للمقارنة فانها عبّرت عن صلة

بالحضارة الغربية من نوع آخر . فاننا لو أخذنا صورة شمسية للمجتمع الياباني كما فعلنا للمجتمع العربي بين سنوات (١٨٦٨ - ١٩٠٥) فسوف نجد فيها من أشياء حضارة الغرب مانجده قطعاً في صورة شمسية نلتقطها في نفس الوقت لمجتمعنا نحن ، ولكننا لو حللنا الصورتين بالمجهر الدقيق لوجدنا الصورة الشمسية الخاصة بالنهضة العربية زاخرة بالاشياء الغربية الحديثة ، ولا نجد معها تقريباً سوى أشياء اخرى من مخلفات حضارتنا التي ولّت إلى ظلمات التاريخ .

أما لو حللنا الصورة الشمسية الخاصة بنهضة اليابان فاننا نجد فيها ايضاً مع الاشياء الغربية الحديثة أشياء عتيقة من مخلفات حضارة (الميكادو ، والسموراي) واننا سوف نجد فيها الى جانب عالم زاخر بالاشياء عالماً آخر زاخراً بالافكار الجديدة : الافكار التي نبعت من عبقرية اليابان لما اصطدم بواقع القرن التاسع عشر . وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل لانها تكشف لنا عن الفارق العظيم بين الصلة التي ربطها اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها . ان اليابان وقف من الحضارة الغربية موقف التلميذ ووقفنا منها موقف الزبون . انه استورد منها الافكار بوجه خاص ونحن استوردنا منها الأشياء بوجه خاص ... انه كان خلال سنوات (١٨٦٨-١٩٠٥) ينشيء حضارة ، وكنا نشتري بضاعة حضارة ، فكان البون بيننا شاسعاً والخلاف جوهريا ، يؤدي حتماً الى ترجيح كفة اليابان كما بيّنا في المقارنة التي عقدناها لسنة ١٩٠٥ .

ان هذه النظرة الى الماضي أفادتنا شيئين : ان حركة النهضة العربية كانت تسير على بطء ثم انها لم تكن تتجه نحو انشاء حضارة . او على الاقل انها لم تنظم اتجاهها نحو الحضارة .

ومن الطبيعي اذن ان نفترض فيها أولاً وجود عوامل تعطيل نفسية أثرت في سيرها خلال الحقبة التي جعلناها عن قصد موضوع البحث - وثانياً وجود عوامل أخرى فكرية أثرت في اتجاهها تأثيراً سلبياً .

والمشكلة في صورتها الجديدة اذن هي ان نتساءل : هل زال مفعول هذه العوامل المعوقة للنهضة العربية أم لا ؟ ومن الواضح اننا لانملك في ايدينا شيئاً يتيح لنا الجواب عن هذا السؤال جواباً يقنعنا لانه يتطلب دراسة موضوعية لم نقم بها ولا نعلم أن احداً قام بها . انه بلغنا أن القضية دخلت اخيراً الى المختبر لتدرس ، وأن لجنة تأسست بالقاهرة لدراسة هذا الجانب النفساني في إطار التخطيطات القائمة اليوم . ولكننا قبل ان تصلنا نتيجة هذه الدراسة الموضوعية نجد أنفسنا مضطرين الى تقدير نظري وهو أن عوامل التعطيل التي نتحدث عنها لا يزال بعضها عالقاً بعالم النفس عندنا في صورة رواسب خلفها في نفوسنا عهد الكساد الذي اشرنا اليه بعنوان كتاب المستشرق Gauthier ولا أشعر أن هذا التقدير النظري يخرج من نطاق الواقع اذا أخذنا باعتبار أننا لم نقم الى الآن في العالم الاسلامي عموماً والعالم العربي بالخصوص بما يسميه علماء النفس عملية تصفية للرواسب التي نتحدث عنها . وفيما يخص هذا الحديث فانني اقنع بالحديث عن هذا الجانب المرضي في النهضة العربية تاركا جانب العلاج الى من يقوم بهذا الامر مباشرة في إطار التخطيطات ، مع اعتقادي انه يتصل بقضية (الثقافة) والتوجيهات الثقافية في البلاد العربية على شرط أن نعطي لكلمة ثقافة معناها الصحيح لتقوم أولاً بالدور الخلاّق للانسان العربي الجديد الذي يتواءم مع ضرورات النهضة في الخارج وفي الداخل .

هذا من جانب الاعتبارات التي تمس ضعف النهضة من حيث النفس . وأما الاعتبارات التي تمس ضعفها من حيث الفكر فاننا أيضاً مضطرون الى التقديرات النظرية حتى تأتينا نتائج الدراسات الموضوعية للقضية ، فاننا نقدر جملةً أن الضعف الذي نشاهده في اتجاه النهضة العربية من الجانب الفكري خلال الفترة التاريخية التي اخترناها للمقارنة أي فترة (١٨٦٨ - ١٩٠٥) إنما يرجع الى

أسباب منطقية معينة لانتصور أنها تخرج عنها. ويمكن أن نرتب هذه الاسباب كما يأتي:

١ – عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة.

٢ – عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصاً صحيحاً.

٣ – عدم تحديد الوسائل تحديداً يناسب الغاية المنشودة والامكانيات.

اننا نكون بهذا الترتيب قد صغنا ثلاث مشكلات تكون الحلقة الجديدة لهذا الحديث.

١ – فاما بالنسبة للسبب الاول – وبقدر صحة الملاحظة – فالضعف يتصل بقانون الحركة بصفة عامة. ان كل حركة تفقد غايتها، أعني أن غايتها لم تتحدد بوضوح، فان شأنها التيه في السبيل والتبذير في الوسائل والخطأ في الهدف وبالتالي فانها حركة تخضع لقانون الصدفة اي أنها لاتأتي بنتيجة في اتجاه معين وفي وقت معين. هذا من وجهة نظرية بحتة أي بالنسبة لكل نوع من الحركة. ولكن النهضة العربية والنهضة بصفة عامة (باعتبارها حدثاً يحدث في تاريخ أمة في ظروف معينة مثل النهضات المعاصرة لنهضتنا في آسيا كما ذكرنا أو مثل نهضة أوربا في في منتصف القرن الخامس عشر) هي حركة من نوع خاص تحدد غايتها طبقاً لنوعيتها: هل الحضارة هي تلك الغاية وبالتالي هل هي غاية كل سير في التاريخ؟ سواء أكان عن طريق التحديد والتوجيه والتوقيت أم عن طريق الصدفة ؟.

ان الجواب على هذا السؤال يستوجب أولاً اعتبار التاريخ لا كمجرد تسلسل حوادث على شاشة الزمن بل كعملية اجتماعية محددة الاسباب والنتائج ومرتبطة بمصير الانسان تقدر حظه أو تلقيه في الحضيض.

ويأتي اذن السؤال في هذه الصورة: في أي ظروف يحقق التاريخ حظ الفرد ويرفع شأنه في بلده ويعزز مكانه في العالم؟

اننا لو وزعنا بعض الارقام على خريطة العالم لوجدنا الجواب للسؤال المطروح

في صورة جغرافية ذات دلالة . فلنأخذ مثلا قائمة متوسط الدخل السنوي للفرد في العالم فان ارقامها تتراوح من ١٨٥٠ دولاراً في الولايات المتحدة الى ٣٨ في جمهورية ليبريا . واذا اعتبرنا في هذه القائمة أن متوسط الدخل السنوى في اليابان ٢٠٠ هو الرقم الوسط في العالم ، لا كعدد ولكن اقتصادياً ، ثم وزعنا أرقام القائمة على الخريطة فاننا سوف نرى أنها تصور لنا رقعتين جغرافيتين تتمتع احداهما بمتوسط دخل سنوى فردى فوق ٢٠٠ دولار والاخرى يقع الدخل الفردى فيها دون هذا الرقم . ومن الطبيعي أن نقول إن الفرد الذى يولد في الرقعة الاولى يحصل بمجرد ولادته على حظ اكبر في الحياة من نظيره الذى يولد في الرقعة الاخرى . ولو لاحظنا بعد هـذا أن الرقعة الاولى هي بالضبط رقعة الحضارة الغربية وامتدادها الجغرافي التاريخي شرقاً وغرباً ، أى امتدادها من أقصى الغرب من سان فرانسيسكو مثلا الى طوكيو في الشرق ، ولاحظنا في الوقت نفسه أن الرقعة الاخرى هي بالضبط رقعة الشعوب التي تعيش من طنجـة الى جاكرتا في حالة نسميها ماقبـل الحضارة ، وربطنا القضية بالجغرافية من ناحية وبالتاريخ من ناحية أخرى ــ فان هذه الاعتبارات تُملي الجواب على السؤال المطروح .. أى أن الشروط التي تحقق للانسان حظه في الحياة هي بصفة عامة شروط حضارة ، وأن مصيره مقيد بها يُرزق غداً إن تحققت ويحرم ان اختلت أو انهدمت .

ولو اتخذنا قائمة أخرى ووزعنا أيضاً أرقامها على الخريطة لوجدنا الظاهرة نفسها في صورة قارتين : قارة يسودها الرخاء لان حضارتها تتكفل بحياة الفرد وتقدم له جميع الضمانات الاجتماعية ؛ وقارة يسودها الحرمان لان الحياة الاجتماعية فيها في مرحلة دون الحضارة . فلو وزعنا مثلا أرقام قائمة استهـلاك الكهرباء أو الفحم الحجرى فاننا سوف نصل للنتيجة نفسها .

وعلى سبيل المثل فقط نذكر أرقام استهلاك الفحم في العالم للفرد :

٨ أطنان للفرد في الولايات المتحدة الامريكية .

٤ « « في السويد .

٢,٥ طن « في فرنسا.

١ طن « في ايطاليا.

١١٠ كيلو « في الهند أي لبلادٍ واقعة في محور طنجة ـ جاكرتا .

واذا رجعنا الآن الى قضية النهضة العربية في ضوء هذه الاعتبارات فاننا نرى أنه من الضروري أن تحدد غاية سيرها كمحركة في التاريخ، ثم أن تتخذ، كعملية اجتماعية ، الحضارة غاية لها . وبقدر ما يصح هذا التشخيص في ضوء الاعتبارات الاجتماعية والتاريخية كما سبق ، نكون قد تداركنا جانباً من عوامل التعطيل الذي كشفته لنا المقارنة مع نهضة اليابان .

٢ ـ هذا بالنسبة للسبب الاول . وأما بالنسبة للثاني أي بالنسبة لتشخيص المشكلات فان الضعف يتسرب في تقدير مشكلات النهضة من حيث ضرورات الداخل وضرورات الخارج تقديراً سلبيا ، لاننا كنا نفكر حتى عهد قريب ، والى حد ما لازلنا نفكر ، لاحسب طبيعة الاشياء ولكن حسب عادات فكرية توجه فكرنا مبدئياً في اتجاه معين سواء أكان هذا الاتجاه صالحاً يناسب فعلاً ماتقتضي المشكلات من الحلول أم لايناسب. هذه العادات الفكرية تعمل مفعولها أحياناً في صورة البديهيات التي تطبق دون أي تحفظ ، والبديهيات في التاريخ كثيراً ماقامت بدور سلبي كعوامل تعطيل مثل بديهية : الارض مسطحة ، فانها عطلت الى حد ما سير التاريخ وحالت دون اكتشاف أمريكا قروناً طويلة حتى عهد كولومبو ، بينما كان العلم القديم نفسه ينشد كروية الارض كما يشهد بذلك كتاب (بطليموس Ptolémée) . إن اجيالا كثيرة من البحارة لم تكتشف أمريكا لانها لم تكن تواجه مشكلة المواصلات البعيدة

بفكرها بل بعاداتها الفكرية . وهذه العادات تؤثر فعلا في سرعة التطور لانها تجعلنا نعتبر المشكلات طبقاً لبديهيات لا يدل شيء على أهميتها ، بدل أن نفكر فيها حقيقة ، وكثيراً مانغتر بالصورة بدل أن نهتم بجوهرها ، مثل الطبيب الذي يهتم بعرض من أعراض المرض بدلاً من أن يكشف عن المرض نفسه ، ومن الواضح أن علاجاً يتجه في حالة معينة الى الحمى عوضاً عن الاهتمام بسببها قد يؤدى الى زيادة المرض وأحياناً الى موت المريض نفسه ، اذا مافات وقت التدارك .

ان كثيراً من المشكلات تعرض لنا هكذا فلا نتعرض لها بفكرنا ولكن بعاداتنا الفكرية . وقد يكون نصيبنا من النجاح قليلاً دون أن نشعر بذلك أحياناً لاننا نفقد وسائل الرقابة ، وليست بين ايدينا المقاييس لتقدير النتيجة تقديراً صحيحاً . قد نكون مثلاً مهتمين بقضية (الامية) وهي تمس في الصميم قضية النهضة كعملية اجتماعية تتضمن الطاقات الفكرية مع الطاقات الاخرى ، ومن الطبيعي ان نفكر في الجهل كمشكلة أساسية لابد من حلها ، ولكننا في الواقع قلما نفكر فيها تفكيراً جذرياً . فكثيراً مانؤتي المشكلة الحلول التي اعتدناها في عاداتنا الفكرية مع بعض الطقوس الاجتماعية التي لاتخلو من الرياء ، فنقرر طبقاً لعاداتنا أن « العلم » هو العلاج النافع ، ونميل أيضاً الى هذا النوع من العلاج بمقتضى الطقوس الاجتماعية القائمة في البلاد ، بينما النتيجة أحياناً دون مانريد وأحياناً خلاف مانريد عندما نرى النتيجة في احدى صورتيها: إما في صورة العالم الذي لاينفع المجتمع الا قليلاً أو في صورة العالم الذي يضر المجتمع احياناً بعلمه ، لان أساسه الخلقي لم يتكون ولم نفكر في تكوينه مقتنعين بشكلية الاشياء دون اهتمام جدي بحقيقتها وبصلتها بضرورات الداخل وضرورات الخارج . وربما تزيد الحالة سوءاً حين تتدخل الطقوس الاجتماعية في تشخيص المشاكل فإن العلم يصبح اذاً صنفاً من الرياء وسبباً للتنافس بين الأسر البشرية فيفقد بهذا كل فعاليته الاجتماعية ، لاننا لم نفكر فيه على أساس اجتماعي نفسي

وانما على أساس مدرسي وجامعي . فنكيف التعليم كعملية تهدف أساساً الى إضافة المعلومات بعضها الى بعض لا كعملية تصفية نفسية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع ، أي كعملية صياغة للإنسان صياغة جديدة ، تتواءم مع ضرورات الداخل وضرورات الخارج ، أي مع القانون العام الذي يفرض في الداخل سرعة السير وفي الخارج وحدة المصير ، ولا نشعر بالخطأ في المنهاج القائم على مبدأ اضافة المعلومات أو - اذا سمح لي بهذا التعبير - تكديس المعلومات لاننا لا نقدر تطورنا بالمقياس الذي يصوغه السير العام في العالم وانما نقدره بقياس نسبي تصوغه ظروفنا الخاصة .

فحين يدخل العالم في عهد القمر الصناعي ندخل نحن في عهد الكاديلاك ، ونشعر أننا حققنا خطوة لا بأس بها في التقدم لاننا كنا في عهد الحمار في بعض البلاد العربية . انني لم أذكر هذا المثل للشعور بحاجتنا الى القمر الصناعي والصاروخ الموجه ، وانما ذكرته لتوضيح الموقف ؛ بل اشعر أن حاجتنا الاساسية في عالم النفس اكثر منها في عالم الاشياء . ان حاجتنا الاولى هي الانسان الجديد .. الانسان المتحضر .. الانسان الذي يعود الى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد . وصياغة هذا الجهاز الدقيق الذي يسمى الانسان لا تتم بمجرد إضافة معلومات جديدة الى معلوماته القديمة لانه سيبقى هو قديماً في عاداته الفكرية وفي مواقفه امام المشكلات الاجتماعية وفي فعاليته إزاءها وعلى الاخص في لافعاليته التي نجدا كثرها عندما تفاجئنا الظروف أحياناً ببعض الفضائح او ببعض المآسي مثل غرق السفينة (دندرة) في النيل ، أو عندما نحلل صورة شمسية تكشف لنا مواطن الضعف في المجتمع ، كما كشفت لنا الصورة التي اتاحت لنا مقارنة النهضة في اليابان مع النهضة في البلاد الاسلامية عموماً والعربية خصوصاً ، كما سبق .

واذاً فان قضية اجتماعية مهما كانت ظروفها لا تعالج بالبديهيات التي تفرضها عاداتنا الفكرية ومنها هذه التي ترى العلاج النافع في وضع

النقيض أمام كل داء. فقد كان من حكم الطب القديم أن الحرارة مثلاً دواؤها الرطوبة، ولا بأس بهذه الحكمة مالم تكون قيداً يقيد التفكير وعادة تحجر الفكر. فلو استسلم الطب لحكمة كهذه مع رشدها وصلاحيتها في بعض الظروف لما وجد باستور (Pasteur) طريقاً لاكتشاف العلاج النافع لداء الكلب مثلاً، لان هذا الطريق المبتكر كان في اتجاه يخالف تماماً حكمة النقيض اذ نرى (Pasteur) يعالج الداء بنفس الداء. فيجب اذن ان نحترز، قدس الامكان في معالجة المشكلات الاجتماعية، من الطريقة التي تضع امام كل داء نقيضه كدواء فنضع مثلاً العلم أمام الجهل دون قيد أو شرط، ونجد أنفسنا أحياناً وبالتالي أمام علم نفعي غير نافع، يعيش على جسم المجتمع مثل النبات الطفيلي على الاشجار. فقضية الجهل لا تعالج اذاً بمجرد وضع البرامج التعليمية، والتعليم لا ينفع كمجرد إضافة معلومات، بل يجب ان يكون أولاً عملية تصفية نفسية ... وتعديل معادلة شخصية زيفتها عهود الكساد. وبكلمة واحدة يجب ان يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة في العربي المتجدد طبقاً لضرورات النهضة في الداخل والخارج. وهذا يعني ألا توضع برامج التعليم لما يسمى (العلم) ولكن طبقاً لشيء أعم بكثير هو: الثقافة. أي أن توضع برامج تتصل بعالم النفس والدوافع الاساسية ثم بعالم العقل والمفهومات، وبعالم الاشياء والحاجات.

٣- وأما من وجهة المشكلة الثالثة التي ذكرناها في الترتيب السالف أي تحديد الوسائل فإن تحليلنا للصورة الشمسية قد كشف لنا عن جانب سلبي في النهضة العربية يتصل بضعف منطقي فيها باعتبارها حركة تاريخية لم تعرف بالضبط أو لم تحدد غايتها. ولكن لابد أن نضيف بجانب هذا ضعفاً آخر متفشياً فيها باعتبارها عملية اجتماعية لم تعرف بالضبط أو لم تحدد وسائلها. فإننا لو تتبعنا سيرها خلال فترة معينة، كما فعلنا، فسوف نجد فيها- رغم كل الضعف في تحديد غايتها-

اتجاهاً نحو حضارة ، مهما يكن في هذا الاتجاه من الغموض. ولكننا اذا حللنا مرة اخرى الصورة الشمسية المذكورة فإنها ستكشف لنا أن النهضة العربية كانت تحاول تحقيق غايتها بالاشياء التي تستوردها من الحضارة الغربية . فالخطأ يتصل هذه المرة بقضية الوسائل ، والسؤال : هل يصح أن تكون الاشياء التي نستوردها من الخارج وسائل لتشييد حضارة دون قيد ولا شرط ؟...

ان الشيء الذي نستورده يكوّن منتوجاً من منتوجات حضارة معينة ، أو منتوجاً حضارياً بصفة مطلقة . فأما من حيث انه منتوج حضارة معينة فإنه قد يتفق مع مصلحة البلاد التي استوردته أو لا يتفق معها أحياناً من الجانب الاقتصادي وأحياناً من الجانب النفساني أيضاً . فاستيراد (الويسكي) مثلاً قلما يتفق مع مصلحة بلاد اسلامية بوجه عام وبلاد عربية بوجه خاص . وكذا استيراد سيارات الكاديلاك غالباً واستيراد فرو السيدات في البلاد التي تشرق عليها شمس المناطق الحارة .

هنا نلمس جانباً من الضعف المنطقي لا نكاد نختلف فيه لأنه واضح تمام الوضوح ، وهو يتصل غالباً بسلوك الفرد ، أي يتصل بقضية نفسية وخلقية . ولكن هناك جانباً آخر يتعلق بسلوك المجتمع نفسه وموقفه أمام الشيء المستورد باعتباره منتوجاً حضارياً بصفة مطلقة فلا بأس طبعاً أن نستورد من الأشياء ما نسدّ به حاجاتنا الاساسية موقتاً ، ولا بأس أن نستورد الطب والطبيب والمطبعة والاستاذ ومعلوماته والصيدلي وأدواته والمهندس وآلاته مادمنا نحن لا ننتج هذا كله . وإنما على شرط ألاّ تكوّن عندنا بعض العادات الفكرية فتقلب ضمناً ودون أن نشعر منطق الاجتماع ، أو تكوّن عندنا بعض العقد النفسية فتربط اتجاهاتنا ودوافعنا بالشيء والشيئية .

فإننا اذا صغنا جملة مثل هذه : « ان المنتوج لا يكوّن المنتج بل المنتج

هو الذي يكون المنتوج » — فسوف لانختلف في مضمونها لأننا صغناها صياغة عامة واضحة لايختلف فيها اثنان وسوف نتفق لاشك على أن هذه القاعدة المنطقية صحيحة دوماً ، وعليه فلنتخذها كمقياس عام في الموضوع .

إننا حين حللنا الصورة الشمسية التي استخدمناها خلال حديثنا وجدنا في النهضة العربية بين سنوات (١٨٦٨—١٩٠٥) « عالم اشياء » جديد لم يعرفه آباؤنا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مثلاً ووجدنا الاشياء نفسها في اليابان استوردها كما استوردناها نحن من الحضارة الغربية ، ولكن كشف لنا التاريخ ان تلك الاشياء لم تؤد في نهضتنا الدور الذي أدته في نهضة اليابان . فنستنتج من هذا أن الاشياء لاتؤدي مفعولها الاجتماعي تلقائياً ولا تؤثر وحدها في صياغة العملية الاجتماعية وانما تؤثر بقدر مايضاف الى مفعولها من دوافع نفسية وتوجيهات فكرية معينة ، فالشعب الياباني كان يريد بالاشياء التي استوردها خلال العهد الميجي وسائل يواجه بها بناء حضارة . والبناء لايتم بالاشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها ، وانما يتم بالدوافع التي تحرك تلك الاشياء والفكرة التي ترتبها في العملية الاجتماعية . وعندما لايكون في هذه العملية سوى الاشياء وحدها فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لافي حكم التقدير . وهذا ماوقع في نهضتنا العربية خلال النصف الاول من هذا القرن ، فكنا كأننا نحاول بناء حضارة بمنتوجاتها . ومثل هذه العملية يتناقض بكل وضوح مع القاعدة المنطقية البسيطة التي صغناها لتوضيح هذا الجانب مع التحفظ بنسبية الاشياء وطبيعتها. على ان القاعدة المنطقية في الرياضيات مثلاً تفصل بين الخطأ والصواب بمقدار الشعرة أي المقدار الذي يسميه أهل الفن (الابسلون) .. أما القاعدة المنطقيـة في الاجتماع فانها تفصل بين الخطأ والصواب بمقدار الشبر . وهذا الشبر يفصل في الحقيقة موضوع حديثنا بين خطئين : أي بين الافراط والتفريط . ولكلا النوعين من الخطأ معنى اجتماعي ربما يفيد توضيحه هنا . فأما

التفريط فهو ترك العملية الاجتماعية لقانون الصدفة مطلقاً، أي ترك العنان للاشياء تفعل ماتريد بتصرفها الاعمى. وهذا التصرف يقلب أولاً الوضع المنطقي الطبيعي معبراً عن عملية تقوم على مبدأ تكوين المنتج من منتوجاته، أي في مصطلح موضوعنا تكوين الحضارة ابتداء من المنتوجات الحضارية، فان العملية صريحة المخالفة للمنطق البسيط من الوجهة النظرية ولكنها تخالف أيضاً مايسمى المنطق العملي لانها قائمة على استحالة مزدوجة: تنتج الاستحالة الاولى من عجزنا عجزاً مسبقاً عن وضع قائمة للاشياء أو المنتجات الحضارية التي يلزم استيرادها لان احصاء عددها يفوق مانتصور من الصعوبة كمجرد عملية احصائية، فضلاً عن ان عملية كهذه لاتنتهي لان عدد الاشياء الحضارية يتزايد كل يوم، فالمحاولة اذن ضرب من العبث في هذا الوجه أولا. ثم هي مستحيلة من وجه آخر.

فلو قدرنا أننا انتهينا بنجاح من عملية الاحصاء - واني اكرر عبث مثل هذا الفرض - فسوف نجد انفسنا امام استحالة أخرى تتصل بتمويل المشروع. لان الميزانية التي يقتضيها تنفيذه تفوق امكانيات أي مجتمع ناشيء، وتصعب حتى على مجتمع متقدم مزوّد بالخبرة كما نرى ذلك خلال (تجربة ألمانيا) بعد الحرب العالمية الثانية التي حُطّم جهاز انتاجها تحطيماً كاملاً شاملاً من مصنع الابرة الى مصنع الصاروخ الذي كان يشرف عليه V. Brown على شواطيء بحر البلطيق. واليوم – أي بعد عشر سنوات فقط - استرجعت المانيا عالم اشيائها بالجملة، بل زادت فيه آخر المنتوجات الصناعية، ولكن لم يفكر من أشرف في المانيا على عملية البعث الجديد في استيراد هذه الاشياء، لان العملية مستحيلة من وجهة تصورها الفكري ومن وجهة تمويلها، ولو عززها مشروع مارشال بالمليارات من الدولار.

ولكن أثر خطأ التفريط لاينتهي عند هذه الاستحالة الفكرية والمادية بل يتعدى الى الجانب النفسي لان الشيء يفرض على الانسان سيطرة خفية تتجلى في حاجتنا اليه أو

في اعجابنا به وقلما تتجاوز سلطة الشيء حدود الاعجاب الفني عند من صنعه، لان روح الصانع تشعر دوماً بعزتها امام المصنوع أما عند من يستورد الشيء فان الوضع ينعكس: فاما ان يفقد الشيء تماماً فعاليته الاجتماعية لاننا لا نقدر قيمته، مثل جهاز الكترو ني دقيق يقع صدفة في ايدي قوم بدائيين في اواسط افريقيا، واما ان يجد الشيء عندنا كل تقدير ولكن يتجاوز تقديرنا له حدود الاعجاب الفني الى اعجاب صوفي فتطغى علينا سيطرة الشيء إلى حد يقرب من التقديس اللاشعوري لان الصلة النفسية بيننا وبينه ليست صلة الصانع بالمصنوع. وهكذا تتكون في المجتمع نزعة يمكن أن تؤدي في نهاية الامر الى ظهور حضارة شيئية، أي حضارة يطغى فيها الشيء على الانسان. وربما تنتهي هذه النزعة تدريجياً الى نزعة مادية بحتة. فهذا هو الجانب الخفي من حيث التفريط في عملية إنشاء حضارة ابتداء من منتوجاتها واشيائها.

ولكن هنا، إلى الجانب الآخر، جانب الافراط كما ذكرنا. وهذا الخطأ يكشف عنه تاريخ الحضارات التي سبقتنا، فالحضارة المسيحية مثلاً لم تنشأ في أنبوبة مغلقة أعني انها لم تكوّن كل عناصرها من نفسها، في بادىء أمرها على الاخص فإن أحدث اختراعاتها من القمر الصناعي إلى الصاروخ الموجه قائم على تطور علمي لا يمكن أن نتصوره لولا علم الجبر أو علم المثلثات أو الحساب العشري الذي يقوم على استخدام الصفر كرقم أساسي.. فلولا هذه المقدمات العلمية التي هيأتها الحضارة الاسلامية للحضارة المسيحية، لما استطاعت هذه أن تغزو الفضاء اليوم. ولكن الحضارة المسيحية لم تستورد من البلاد العربية البضاعة العلمية فحسب، بل كانت تستورد معها أيضاً بعض الاشياء من منتوجاتها بالأخص في بادىء أمرها.

كما أن الحضارة الاسلامية أيضاً كانت تتغذى وتتفاعل بثقافة اليونان وأشياء من الهند بحكم التاريخ، لانه لا يمكن لحضارة أن تنشأ في أنبوبة مغلقة لا يأتيها شيء من الخارج.

فالصواب إذن في الشبر الذي يفصل بين التفريط والإفراط وتحديده

يتوقف على عملية تحليل للحضارة نفسها ، باعتبارها مركباً لايتكون في أصله من أشياء ومنتوجات حضارية بل من أصول تفرضها طبيعة المنتوجات وشروط تطور الانتاج .

فلنسلك هنا مسلك الكيميائي الذي يريد أن يصنع مركب الماء مثلاً فإنه يأخذ منه مقداراً كافياً لإجراء عملية التحليل . فالمقدار الكافي كعيّنة من الحضارة هو ما نسميه المنتوج الحضاري ، فأي شيء ينتجه المجتمع هو منتوج حضارة سواء أأنتجه بوسائل الانتاج العادية أم أنتجه بالتفكير البحت ، فكل مفهوم من عالم المفهومات وكل شيء من عالم الاشياء وكل شخص من عالم الاشخاص باعتباره معادلة شخصية انتجتها ظروف التاريخ وشروط التطور ، كل عيّنة بين هذه العيّنات هي منتوج حضارة . . أى أن هذه العينات كلها — مع اختلاف صورها وأشكالها وطبائعها تكوّن من حيث تركيبها الاجتماعي نوعاً واحداً هو نوع المنتوجات الحضارية ، فلا غرابة إذن عندما أقول : ان القلم الذي يكتب هذه الكلمات مثلا ، والشخص الذي يكتبها ، والكلمات نفسها والورقة التي تكتب عليها كلها من نوع واحد ، من حيث تركيبها الاجتماعي . ولكنني اذا ماحللت القلم كعينة ، والصفحة التى يكتب فيها ، فإنني سأجد في كلتا العينتين ثلاثة عناصر مركبة :

الانسان - التراب - الوقت

وهكذا تكون النتيجة دوماً كلما استمرت عملية التحليل من عينة إلى أخرى ، من منتوج حضاري إلى آخر .

يمكن إذن أن نعبر عن كل منتوج حضاري بهذه المعادلة الاساسية :

منتوج حضاري = إنسان + تراب + وقت .

ويجب الآن أن أكتب هذه المعادلة لكل منتوج من منتوجات الحضارة

من الابرة إلى مابعدها، وإلى مابعد الصاروخ، حتى أكوّن جدولاً كاملاً من المعادلات، الواحدة تحت الاخرى في هذا الترتيب مثلا :

منتوج حضاري أول = إنسان + تراب + وقت

ثان = 〃 + 〃 + 〃

الخ . . . . . = ...

منتوج حضاري أخير = إنسان + تراب + وقت

وحين أنتهي من ترتيب المعادلات بهذه الصورة يمكن أن أجمعها عمودياً على الطريقة المستخدمة في الجبر، وأنتهي حينئذ الى هذه النتيجة الشاملة.

مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت

ولكن جمع منتوجات حضارية هو الحضارة نفسها في صورة غير مركبة وجمع إنسان هو الانسان نوعاً، وجمع تراب هو التراب نوعاً، وجمع وقت هو الوقت نوعاً . وبالتالي يمكن أن أكتب النتيجة التحليلية في صورتها النهائية:

حضارة = إنسان + تراب + وقت

ومن هذه المعادلة النهائية يمكن أن نستنتج استنتاجات نظرية مختلفة تدل أولاً على أن الحضارة ليست، أساساً، تكديس منتوجات حضارية بل هي بناء مركب اجتماعي يشمل ثلاثة عناصر فقط مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين . ثم إنها تزيل عن موضوع بناء هذا المركب الشبهات التي تعلق به من حيث الامكانيات، اذ نرى أن هذه الامكانيات بالنسبة لأي شعب محفوظة في رصيد الطبيعة، لا في رصيد البنك . يعني أن إمكانيات الشعوب تتساوى في أصلها .

ولكن المعادلة التي كتبناها في صورتها الاخيرة لاتتفق مع واقع التاريخ دون قيد أو شرط ، لان العملية لاتنتج تلقائياً كلما اجتمع الانسان والتراب والوقت . إذ نرى في تاريخ الشعب الواحد فترات خالية من الحضارة ، لان الشعب لم يدخل في عملية التحضير بل خرج منها في ظروف معينة ، يقع فيها الافول .

ان المعادلة التي انتهينا اليها ليست صحيحة إلا بشروط يبينها التاريخ ، لانه هو مختبر التجارب والعمليات الاجتماعية .

إننا عندما سلكنا في التحليل مسلك الكيميائي الذي يحلل عينة من الماء وجدنا في جهاز التحليل كمية من غاز الهيدروجين وكمية من غاز الاوكسجين ، ولكن عندما نحاول الرجوع من هذين العنصرين إلى الأصل نجد أنفسنا أمام استحالة تدل على أن العملية صحيحة في التحليل وربما غير صحيحة في التركيب . ولكن الكيميائي يرفع من ذهنه هذا الشك لانه متمسك بمبدأ عام يقضي بان المركب يتركب حتماً من العناصر التي ينتهي اليها تحليله ، فيدرك بداهة ان الاستحالة التي وقف عندها هي صورية لاتمس بجوهر المركب . فالماء يساوي هيدروجين وأوكسجين سواء من حيث التحليل أو من حيث التركيب . ولكن يجب اتباع طريق خاص في التركيب ، وفعلاً لايلبث الكيميائي أن يكتشف أن عملية تركيب الماء تخضع لقانون المركب الذي يتدخل فيها في صورة شرارة كهربائية مثلاً .

وهكذا يجب أن نلتفت نحن إلى مختبر التاريخ ليدلنا على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاثة : الرجل ، التراب ، الوقت ، كيما يكوّن بها حضارة . ولا أريد هنا اطالة الكلام على تأثير الدين كعامل مركب للحضارة ، فمن يدرس تاريخ الحضارة الغربية مثل Toynbee أو H. Massis يرى أثر الفكرة المسيحية في تركيبها وكذلك من يدرس الحضارة الاسلامية ير

في تركيبها أثر الشرارة التي نزلت من السماء على غار حراء . . وكذلك يرى من يدرس الحضارة البوذية أثر فكرة (Gautama) كدين ، في تركيبها .

ولكن حسب الاعتبارات الاجتماعية التي تنتج مما انتهى اليه التحليل يتبين أن المعادلة العامة التي وصلنا اليها تدل على أن مشكلة الحضارة لاتحل باستيراد منتوجات حضارية موجودة - مع الاحتفاظ بالصواب بين الافراط والتفريط كما بيّنّا - ولكنها تستوجب حل ثلاث مشكلات جزئية :

١ - مشكلة الانسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ .

٢ - مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية .

٣ - مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد .

إنه يمكننا الآن في ضوء هذه الاعتبارات النظرية أن نقدر تقديراً سليماً وضع النهضة العربية من حيث غايتها ووسائلها وطبيعة مشاكلها .

إننا نعرف الآن أن المشروعات المخططة القائمة اليوم في الجمهورية العربية المتحدة تهدف أساساً إلى تركيب حضارة وإلى تسريع السير نحو هذا الهدف ، وإن وسائلها للوصول اليه هي الانسان والتراب والوقت .

ونعلم أنها حين تأتي بالحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بهذه العناصر الثلاثة تكون قد حققت شروط الانسجام مع سير التاريخ بالنسبة إلى ضرورات الداخل وضرورات الخارج . وتكون بذلك قررت مصير كل عربي وساهمت مساهمة جدية في تقرير مصير الانسانية .

ان النهضة العربية بلا شك دخلت في طور جديد منذ ثورة (٢٣) يوليو سنة ١٩٥٢ ولاشك ان المشروعات التي وضعت للتنفيذ ستحقق طفرة استثنائية في تاريخ الأمة العربية . ولكنني اريد لو يسمح لي قبل كلمة الختام ان اعبر

عن وجهة نظري في ترتيب الصعوبات حسب درجتها وأهميتها فانني أرى أن توضع (مشكلة الانسان) في المرتبة الاولى لانه هو الذي يوجه الاشياء ويصنع الحضارة .

. . .

وختاماً أكرر شكري للذين أتاحوا لي فرصة الحديث معكم وفي مقدمتهم حضرة السيد مدير الجامعة والسادة عمداء الكليات وهيئة التدريس .

وانني لأرجو ان يجد الشباب العربي في رحاب هذه الجامعة خير مصنع يصنع في عقله عدةَ الحضارة ، وفي نفسه الاستعدادَ لبناء الحضارة العربية بناءها الجديد والسلام .

١٩٥٩/٧/٢٦

